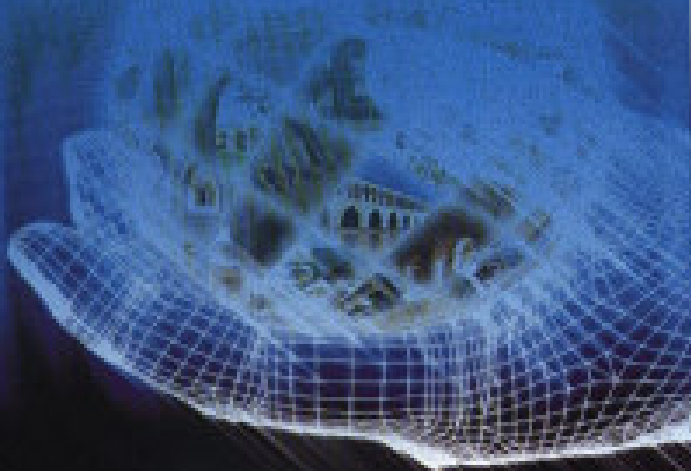


مجلة

البحوث والدراسات

دورية أكاديمية محكمة يصدرها المركز الجامعي بالوادني

العدد الثالث - السنة الثالثة - جمادى الأولى 1427 هـ / جوان 2006 م



مجلة البحوث والدراسات

دورية أكاديمية محكمة يصدرها المركز الجامعي بالوادي

العدد الثالث. السنة الثالثة : جمادى الأولى 1427 هـ / جوان 2006 م

المدير العام

مصطفى ياحي

مدير المركز الجامعي بالوادي

رئيس التحرير

إبراهيم رحمانى

مدير معهد العلوم القانونية والإدارية

هيئة التحرير

أحمد زغب	زكرياء دمدوم
عادل محلو	علي ذهب
محمد السعيد عقيب	المكي دراجي

توجيه جميع المراسلات إلى :

رئيس تحرير مجلة البحوث والدراسات ، المركز الجامعي بالوادي

حي النور- ص. ب : 789 الوادي 39000 الجزائر .

تلفاكس : 03 71 21 032 أو : 032 24 47 65

Email : Bouhouth_d @ yahoo.fr

ISSN 1112 – 4958 – 03

أعضاء الهيئة العلمية الاستشارية

أ.د. إبراهيم سعد الله	أ.د. أبوبكر لشهب
أ.د. الأمين شريط	أ.د. عبد الله بوخلخال
أ.د. الهاشمي لوكيا	د. علي قريشي
أ.د. صالح مفقوده	د. عبد القادر دامخي
أ.د. عمر سعد الله	أ.د. فيصل بن حليلو
أ.د. محمد الناصر بوغزالة	أ.د. محمد حمزة بن قرينة
أ.د. محمد خان	أ.د. محي الدين مختار
د. إبراهيم بختي	د. أحمد بن ناصر
د. أحمد جلايلي	د. آدم قبيبي
د. الطاهر سعد الله	د. بشير بن عيشي
د. راسم مسير الشمري	د. صالح العلي
د. عبد الكريم قريشي	د. فتحي خلفاوي
د. كمال عجالي	د. محمد بوعمامة
د. محمد زغداوي	د. مسعود مزهودي
د. عبد العزيز دادي	د. علي آجقو
د. موسى رحمانني	د. محمد الطاهر بوياية

ما ينشر في المجلة يعبر عن رأي كاتبه ، ولا يمثل بالضرورة رأي المجلة

قائمة المحتويات

مجلة البحوث والدراسات : العدد الثاني . السنة الثانية

جمادى الأولى 1427 هـ / جوان 2006 م

الموضوع	رقم الصفحة
□ افتتاحية العدد : كلمة السيد المدير العام للمجلة	
□ كلمة رئيس التحرير	
□ تأويل ألفاظ المتشابهة في القرآن الكريم .	
بقلم : د. عبد الرحمن تركي	11
□ العدل بين الأطفال .	
بقلم : أ.د. أبو بكر لشهب	25
□ الشروط في عقد البيع عند المالكية .	
بقلم : د. سعاد سطحي	49
□ جمعية الشباب السوي في الزيتوني .	
بقلم : أ. محمد السعيد عقيب	61
□ دور عائلة الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف في الحركة الوطنية الجزائرية . بقلم : أ. عاشوري قمعون	71
□ أدب الأطفال في ضوء المنهج الإسلامي .	
بقلم : د. محمد عبد الهادي	87
□ التناس في سجنات مفدي زكريا نموذجا .	
بقلم : د. محمد زغبنة	101
□ تحولات النص الشعري المغربي المعاصر .	
بقلم : د. عبد الحميد هيمة	125
□ معالم نقدية وفكرية في ثنائية « البرزخ والسكين » للشاعر عبد الله حمادي . بقلم : أ. محمد الأمين شيخة	141

- إشكالات البنيوية في كتابات النقاد الغربيين المعاصرين .
- 163 بقلم : د. بشير تاويريريت
- تحليل البنية العميقة لصور الجملة الاعتراضية في القرآن الكريم . بقلم : د. رابح بومعزة
- 175 □ دور حل المشكلات في تأهيل الأداء القرائي لدى ضعاف القراءة . بقلم : د. إسماعيل لعيس ، و د. الطاهر سعد الله
- 195 □ أثر داء السكري المرتبط بالأنسولين على الخصائص النفسية للمراهق وعلاقته بالتحصيل الدراسي. بقلم : أ. منيرة زلوف
- 209 □ أهمية استخدام تكنولوجيا الإعلام في العملية التعليمية . بقلم : أ. محمد بودريالة
- 223 □ بعض الرؤى المستقبلية لعلم النفس الرياضي في الميدان التربوي ورياضة المنافسة.
- 243 بقلم : د. عبد العزيز دادي ، و د. الطاهر سعد الله
- قياس التغير الهيكلي في الاقتصاد الجزائري . بقلم : د. مبارك بلالطة
- 255 □ الخصوصية : القاعدة الأهم لاقتصاد السوق . بقلم : أ. مكي دراجي ، و أ. عبير شابي
- 275 □ L'ACCORD D'ASSOCIATAION ENTRE L'ALGERIE ET L'UNION EUROPEENNE UE ET SES CONSEQUENCES SUR SON ADHESION A L'OM.
- 307 Par Dr. CHIKHA-BELGACEM khalifa

البحوث والمقالات التي تصل المجلة ولا تستجيب
لشروط النشر المعتمدة لا نلتزم بعرضها على هيئة
التحكيم كما لا نلتزم بردها لأصحابها .

قواعد النشر في المجلة

- ترحب المجلة بكل إسهامات الأساتذة والباحثين ، ويشترط في البحوث والدراسات المرشحة للنشر بالمجلة ما يأتي:
- * المعالجة الموضوعية وفق الأسلوب العلمي الموثق .
- * الالتزام بأصول البحث العلمي وقواعده العامة والأعراف الجامعية في التوثيق الدقيق لمواد البحث .
- * أن تكون الهوامش في آخر البحث متضمنة إعطاء معلومات ببيوغرافية كاملة .
- * تقدم البحوث مكتوبة على جهاز الحاسب الآلي مطبوعة من ثلاث نسخ مرفقة بنسخة على قرص مرن مع مراعاة التصحيح الدقيق في جميع النسخ .
- * وضع ملخص بالعربية وآخر بالفرنسية أو الإنجليزية لا يتعدى الواحد خمسة أسطر .
- * أن يرفق الباحث بموضوعه ورقة متضمنة التعريف به وبدرجته وإنتاجه العلمي، وكذا عنوانه البريدي والالكتروني إن وجد ، ورقم هاتفه .
- * أن يقر الكاتب أن البحث أو المقال لم يسبق نشره أو أرسل للنشر في مجلات أخرى .
- * تخضع المواد الواردة لتحكيم الهيئة العلمية الاستشارية للمجلة .
- * يجري إعلام الكتاب بقرار الهيئة العلمية الاستشارية وهيئة التحرير ، ولا تعاد المواد المعتذر عن نشرها لأصحابها .

توجه البحوث والدراسات إلى العنوان التالي :

رئيس تحرير مجلة البحوث والدراسات

المركز الجامعي بالوادي

حي النور- ص.ب : 789 الوادي 39000 الجزائر .

افتتاحية العدد :

كلمة السيد مدير المركز الجامعي

يسعدني أن أرى العدد الثالث من مجلة البحوث والدراسات يصدر بالمركز الجامعي بالوادى ، وبه بحوث ودراسات قيمة ومتنوعة تنوع المركز الجامعي وتعدد اختصاصاته وفروعه . يصدر هذا العدد وقد لقي العددان السابقان ترحيباً وصدى إيجابياً على المستويين الولائي والوطني ، وبهذا تواصل المجلة مسيرتها وصدورها وهي تتطلع إلى الأحسن والأفضل دائماً ، هدفها دعم البحث العلمي وتشجيع الباحثين ، وتوسيع دائرة القراءة والقراء بالولاية وغيرها ، والتواصل بين المركز الجامعي والأوساط الثقافية والاقتصادية والاجتماعية المحيطة به ، فيحصل تبادل الأفكار والتجارب والخبرات بين الجامعة والمؤسسات الوطنية .

وبصدور هذا العدد الذي تميز بموضوعات وأقلام أخرى جديدة انضمت إلى أسرة الأساتذة المشاركين والمساهمين في الكتابة بهذه المجلة ، نقول إن هذه المجلة قد أخذت موقعها بين مثيلاتها من المجلات العلمية الأكاديمية المحكمة والتي تتميز بالكلمة الموضوعية والمبدعة ذات الأهداف والرسائل العلمية والتربوية والتثقيفية .

وإني في هذه الكلمة أنوه بجهود المشرفين على هذه المجلة ، والأساتذة الباحثين والمشاركين في هذا العدد ، وتمنيتي لكل الأسرة الجامعية بالتوفيق والنجاح .

مدير المركز الجامعي بالوادى

المدير العام المجلة

الأستاذ / مصطفى ياحي

كلمة رئيس التحرير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد وآله وصحبه

رجل فقدناه .. والرجال قليل

نستهل هذا العدد من المجلة بتقديم التعازي لأنفسنا، ثم لآل محدة، ولكل المتسبين للأسرة الجامعية، فقد ودّعنا منذ أيام قليلة - ونحن نضع اللمسات الأخيرة على هذا العدد - أباً فاضلاً، وأخاً عزيزاً، وعلماً بارزاً من أعلام الفقه والقانون بالجزائر، أستاذنا الجليل العلامة الدكتور محمد محدة - عضو الهيئة العلمية للمجلة - طيب الله ثراه، وأحسن مثواه، ورفع مقامه مع الشهداء والعلماء والصالحين .

لقد كان أستاذنا - رحمه الله - من القلائل الذين تركوا أثراً كبيراً، مذكورة ومشكورة في مختلف الجامعات داخل الوطن وخارجه .

ولد المرحوم ببلدة إمية ونسة (30 كلم غرب مدينة الوادي) عام 1955 م. حفظ القرآن الكريم وبعض المتون الفقهية في مسقط رأسه، حيث لقي عناية كبيرة من والديه؛ فنشأ نشأة سوية ملؤها الصلاح والتقوى، وحسن الأخلاق، وجميل الذكر .

زاول تعليمه المتوسط بالمعهد الإسلامي (ثانوية بوشوشة حالياً). ودرس المرحلة الثانوية بقسنطينة حيث تحصل على شهادة البكالوريا عام 1974 م . وتحصل على شهادة الليسانس في الحقوق عام 1979 م من جامعة قسنطينة . كما نال درجة الماجستير في القانون الجنائي عام 1983 م من جامعة قسنطينة . ثم دكتوراه دولة في القانون الجنائي من الجامعة نفسها عام 1991 م بدرجة التقدير الأولى « مشرف جداً » .

ارتقى المرحوم في سُلّم التدريس الجامعي إلى أعلى المراتب حيث نال عام 1996 درجة الأستاذية (أستاذ التعليم العالي) . وانتقل عام 1997 م إلى كلية الحقوق - جامعة بسكرة ، ورأس مجلسها العلمي ، وتولى إدارة مخبر الاجتهاد القضائي بها . وكان - رحمه الله - يصارحني أكثر من مرة باعتزازه الكبير بالخفاوة والتقدير اللذين يتمتع بهما في جامعة بسكرة - التي أكرمته حياً وكرّمته ميتاً - ولقي فيها كل التبجيل والاحترام من قبل إدارتها وأساتذتها وطلابها ؛ فنتج عن ذلك كله دفعٌ قويٌّ لهذه المؤسسة الفتية التي احتلت في وقت وجيز مكانةً مرموقةً بين الجامعات الوطنية والدولية .

ولقد عمل المرحوم محاضراً في فروع القانون المختلفة وفي الشريعة الإسلامية في عدة جامعات منذ تخرجه عام 1979 م ، وكان بارعا في علم الفرائض ، وقد ابتكر طريقة جديدة في معالجة مسائل ميراث الجد مع الإخوة بحيث تسهل على العالم والمتعلم الوصول إلى الحل الشرعي ، ومعلوم أن علم الفرائض أول علم يُفقد كما أخبر النبي ﷺ ، والظاهر أن فقد هذا العلم يكون بموت العلماء وليس بانتزاعه من الصدور كما يصدقه أثر نبوي آخر . ونحسب أن أستاذنا الفقيه أحد العلماء الكبار الذين لا يشق لهم غبار في فقه التركات والموارث .

ومن الجامعات الوطنية التي حاضر فيها المرحوم : جامعة قسنطينة ، جامعة الأمير عبد القادر ، جامعة باتنة ، جامعة بسكرة ، جامعة قالمة .

وأسهّم - رحمه الله - في تأسيس معهد العلوم القانونية والإدارية بالمركز الجامعي بالوادي ، وعمل أستاذا مشاركا فيه منذ افتتاحه عام 1998 م حيث حاضر في عدة مواد دراسية منها : المدخل للعلوم القانونية ، القانون الجنائي العام ، المدخل للشريعة الإسلامية ، وقانون الأسرة .

كما افتتح رفقة نخبة من زملائه الأساتذة وبإشرافه أقساماً للدراسات العليا في عدة جامعات ، وكذا تكوين عشرات الدفعات من طالبي شهادة الكفاءة

لممارسة مهنة المحاماة، كما أشرف وناقش العشرات من رسائل الماجستير والدكتوراه في القانون بمختلف فروعه، وفي الشريعة الإسلامية فقهاً وأصولاً في مختلف جامعات الوطن، كما كانت له رحلات علمية كثيرة زار من خلالها عدة دول عربية وغربية، وكان لا يفوت فرصة الحضور للمعرض الدولي للكتاب بالقاهرة، حيث يلتقي بأعداد كبيرة من العلماء والباحثين الذين تجمعهم به علاقات علمية وصداقات أخوية جد وطيدة.

إلى جانب هذا كله عمل الفقيه محامياً بمجلس قضاء بسكرة ومعتمداً لدى المحكمة العليا ومجلس الدولة، وافتتح مكتبه بمدينة الوادي منذ مطلع التسعينيات، فكان نعم المدافع عن المظلومين، ونعم المرافع في ساحة القضاء، حيث لقيت مرافعاته إعجاباً وتقديراً كبيرين، فقد تميزت بفصاحة اللغة، وقوة الحجّة، والقدرة على الإقناع، وجودة الأداء الخطابي، وقلّ أن تجمع هذه الموصفات في محام في أيامنا هذه.

أما خصاله - رحمة الله عليه - فأكثر من أن تحصى، وقد عرفته عن قرب منذ عام 1992م، وحظيت بإشرافه العلمي في مرحلة الدراسات العليا في الماجستير والدكتوراه فما وجدته إلا وعاء للأخلاق الفاضلة، صدقاً وأمانة وثقة لا تعرف حدوداً، ونجدة وحمية للحق ممزوجة ببصيرة الفقيه وحلم العالم. وكان لا يرد من لجأ إليه خائباً، ولا ييخل بما آتاه الله عز وجل من علم أو جاه أو مال، وقد انتفع به خلق كثير، وعمّت أفضاله أعداداً لا تحصى ممن يعرفهم وحتى من لا يعرفهم.

كما عرفته - رحمه الله - آية في الذكاء، وحضور البديهة، وكثرة الحفظ، وقوة الذاكرة، والتشبت بعزة النفس، وإجلال العلم ورفع مقامه؛ فلا يتكلم عن فقهاء الإسلام إلا ويعقب: «عليهم الرحمة والرضوان». وكان شديد التواضع والمبادرة بالسلام والكلام في أي مكان وجد فيه - مع الابتسامة الدائمة، كما لا تفارقه في الغالب روح الدعابة.

كما كان رحمه الله شديداً على نفسه بكثرة العمل ، بحيث يحرم نفسه حتى من العطل ، إلى درجة أنه يقدم دروسه لطلبة الدراسات العليا صبيحة الجمعة. ويقسم الأسبوع مناصفة بين الوادي وبسكرة .

توفي رحمه الله إثر حادث مرور بمنطقة الحمراية (100 كلم شمال مدينة الوادي) مساء يوم الاثنين 27 صفر 1427 هـ الموافق لـ: 27 مارس 2006 م. ودفن مساء اليوم الموالي (الثلاثاء) بمسقط رأسه . وقد شيع جنازته المئات من محبيه وعارفيه ورفاق دربه ، من قسنطينة ، باتنة ، بسكرة ، وورقلة إلى جانب أهله وذويه وتلاميذه بالوادي . وقد ألقى أ. د/ محمد الأخضر مالكي كلمة تأيينية مؤثرة في توديع المرحوم ، كما قدم ممثل نقابة المحامين بباتنة كلمة مماثلة .

طبعت للمرحوم عدة مؤلفات في الجزائر وليبيا ومصر ، والتي منها :

- مختصر علم أصول الفقه الإسلامي - الخطبة والزواج - التركات والمواريث (جزأين) - رسالة الستر للشيخ الطاهر بن العبيدي (تحقيق وتعليق) - ضمانات المشتبه فيه وحقوق الدفاع - ضمانات المشتبه فيه أثناء التحريات الأولية - ضمانات المتهم أثناء التحقيق - ضمانات المتهم أثناء المحاكمة - جرائم الشيك .

ومن كتبه المخطوطة : كيفية معاملة المساجين - الحبس الاحتياطي إجراء استثنائي - طبعة الخطبة فقهاً وقانوناً - تحقيق رسالة أسباب التيمم للشيخ الطاهر بن العبيدي .

رحم الله أستاذنا محمد محدة وأسكنه فسيح جناته وألهمنا وأهله وذويه الصبر والسلوان . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

رئيس التحرير
الأستاذ : إبراهيم رحمانى

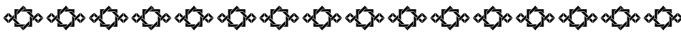
تأويل ألفاظ المنشابه في القرآن الكريم

دراسة تحليلية نقدية

إعداد

د. عبد الرحمن تركي

أستاذ بمعهد الآداب واللغات. جامعة الوادي . الجزائر .



الملخص

هذا المقال يعالج ألفاظ المتشابه في القرآن ، فيعرفها ويوضح حكم ورودها ، ومدى قبولها للتأويل المستند إلى اللغة والنحو ، ومدى قبولها للتأويل بالرجوع إلى غيرها من الألفاظ ، ويناقش الاتجاهات والمواقف إزاء هذه الألفاظ وما تحمله من معان متعددة من خلال كتب التفسير وعلوم القرآن .

Résumé

Cet article traite l'analogie des mots dans le Coran il les définissent tout en elucidant a fortiori leur emergence et leur apparition la fiabilité du consentement de l'explication qui se fait sous un angle grammatical et syntaxique la fiabilité du consentement de l'interprétation lorsque ce dernier fait recours a d'autres mots .

Comme il juge les courants et les points de vue qui ont été établis vis-a-vis de ces mots apparentes ses divers sens selon les chefs d'œuvre de l'interprétation et les sciences de Coran .

أولاً. المقدمة :

شغل موضوع تأويل ألفاظ المتشابه وهو أحد موضوعات علوم القرآن ، شغل المفسرين والفقهاء كما شغل الفلاسفة والمتصوفة لما يترتب على التأويل من أحكام وآراء وأفكار وتصورات ، ومن المؤلفات التي تناولت هذا الموضوع (البرهان في علوم القرآن) لبدر الدين الزركشي ، و(الإتقان في علوم القرآن) لجلال الدين السيوطي ، و(الجامع لأحكام القرآن) لأبي عبد الله القرطبي عند تفسير قوله تعالى : (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات)⁽¹⁾ ، و(التفسير الكبير) لفخر الدين الرازي عند تفسير هذه الآية ، وكذلك (متشابه القرآن) للقاضي عبد الجبار الهمداني .

وقد نحنا المفسرون في هذا الموضوع منحى يرتبط باللغة والنحو والإعراب والتراكيب والمفردات ، كما يرتبط بموضوعات علوم القرآن الأخرى كأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وألفاظ العموم والخصوص ، والتساؤلات التي نود الإجابة عنها في المقال هي : هل معاني القرآن كلها في مستوى واحد من الوضوح والبيان ؟ وما الحكمة في ورود المتشابه في القرآن ؟ وهل تفسيره مثل تفسير المحكم الواضح البين في نفسه ؟ ، وهل أقدم المفسرون على تأويله (أي المتشابه) أم فوضوا معناه إلى الله تعالى ؟ .

وقبل تفصيل الموضوع يجدر بنا التطرق إلى تعريف وشرح كلمتي التأويل والمتشابه .

ثانياً. تعريف كلمة التأويل :

التأويل من أول وآل يؤول أولاً وتأويلاً ، نقول آل القطران أو العسل إذا أعقد بالنار يؤول أولاً ، وآل اللبن يؤول أولاً إذا خثر ، وأول الكلام تأويلاً وتأوله دبره وقدره وفصره ، والتأويل عبارة الرؤيا أي تعبير وتفسير الحلم والمنام ، وألت القوم أوولهم أولاً إذا أحسنت سياستهم ، وأوّل فوعل ، كان الأصل ووّل فقلبت الواو الأولى همزة وأدغمت واو فوعل في عين الفعل⁽²⁾ .

والتأويل معناه بوجه عام التفسير والشرح ، وفي بعض آيات القرآن التي ترد فيها هذه اللفظة نراها تشير إلى الوحي الذي نزل على النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، والتفسير والتأويل بمعنى واحد وهو كشف المراد من الشيء المشكل ، وفرق بعض أهل العلم بينهما فكثير استعمال التفسير فيما يتعلق بشرح المفردات والألفاظ ، والتأويل فيما يتعلق بالمعاني والجمل ، واصطلح على معنى آخر للتأويل هو تفسير الآية بمعنى غير ما يفهم من ظاهر اللفظ ، لذلك نجد بعض المفسرين يقولون إن هذه الآية من الصريح الذي لا يحتمل التأويل أي لا يحتمل معنى آخر يخرج عن المراد الظاهر من لفظه⁽³⁾ .

وهناك تعاريف أخر للتأويل منها أنه صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية غير مخالف للكتاب والحديث ، أما التفسير فهو علم بكيفية النطق باللفظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي يحمل عليها حالة التركيب⁽⁴⁾ ، ومنها أن التفسير بيان وضع اللفظ كتفسير الصراط بالطريق والصيب بالمطر ، والتأويل تفسير باطن اللفظ مأخوذ من الأول وهو الرجوع لعاقبة الأمر ، مثاله قوله تعالى : { إن ريك لبالمرصاد }⁽⁵⁾ ، تفسيره أنه من الرصد يقال يقال رصده رقبتة ، وتأويله التحذير من الغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض على الله⁽⁶⁾ .

ثالثاً. تعريف كلمة التشابه :

استعمل أهل اللغة مادة التشابه فيما يدل على المشاركة في المماثلة أو المشاركة المؤدية إلى الالتباس غالباً ، يقال تشابها واشتبه أي أشبه كل منهما الآخر حتى التباساً ، ويقال أمور مشتبهة ومشبهة أي مشككة وغامضة ، والشبهة الالتباس والمثل ، ومنه قوله تعالى لرزق الجنة {وَأُتُوا به متشابهاً}⁽⁷⁾ ، أي متفق المناظر مختلف الطعوم⁽⁸⁾ .

والقرآن كله متشابه أي متماثل من ناحية الإعجاز والنظم والبلاغة والأحكام والتواتر ليس فيه اختلاف ولا ينقض بعضه بعضا ، وفي الآية : { الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني }⁽⁹⁾⁽¹⁰⁾ .

ومن جهة أخرى تنقسم آيات القرآن إلى محكمات ومتشابهات لقوله تعالى : { هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات }⁽¹¹⁾ ، وفي تعريفهما اختلفت الأقوال إلى⁽¹²⁾ :

1- المحكم ما عرف المراد منه ، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه كالحروف المقطعة في أوائل السور ، وهذه وأمثاله مما لا يهتدي إليها العقل ، وهذا يعني أن الإمساك عن الخوض والكلام فيها أولى .

2- المحكم هو ما لا يحتمل إلا وجها واحدا من التأويل ، والمتشابه ما احتمل أوجها .

3- المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان ، والمتشابه هو ما لم يستقل بنفسه واحتاج إلى بيان وقد يختلف في تحديد بيانه .

4- المحكم هو تسديد النظر والترتيب المفضي إلى إثارة المعنى المستقيم من غير مناف ، والمتشابه هو الذي لا يحيط العلم بالمعنى المطلوب من حيث اللغة إلا أن تقترن به أمانة أو قرينة .

5- المحكم هو الواضح المعنى الذي لا يتطرق إليه إشكال ، والمتشابه نقيضه كالأسماء المشتركة وصفات الله التي يوهم ظاهرها الجهة والتشبيه .

6- المحكم ناسخ القرآن وحلاله وحرامه وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به ، والمتشابه منسوخه ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به .

إذا تأملنا هذه الأقوال وجدناها وإن اختلفت ألفاظها وتنوعت عباراتها ، فمعانيها متقاربة ، فالمحكم واضح الدلالة يبين المعنى من لفظه ، والمتشابه خفي

الدلالة باطن المعنى يحتاج إلى قرينة أو أمانة لشرحه وبيان معناه ، هذه القرينة أو الأمانة هي المحكم ، وبهذا لا يؤول المتشابه إلا بالرجوع إلى المحكم .

رابعاً . هل يمكن معرفة المتشابه والاطلاع على معانيه ؟ :

تخصر الآراء المختلفة في اتجاهات ثلاثة⁽¹³⁾ :

الاتجاه الأول :

يرى عدم إمكانية تعيين المتشابه ويعدّه مما استأثر الله بعلمه لقوله تعالى : {وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا}⁽¹⁴⁾ ، فالوقوف واجب عند لفظ الجلالة {الله} ، والواو ليست للعطف وإنما للاستئناف ، و{الراسخون} مبتدأ و{يقولون} خبر عنه والتقدير {وأما الراسخون في العلم} ويؤيد هذا الاتجاه رأيه بمايلي :

- إن الأقوال التي رامت تحديد معنى المتشابه متعارضة ليس بعضها أولى بالترجيح من بعض .

- الأدلة الشرعية من القرآن أو الحديث التي تفيد الإمساك عن التأويل دون حجة قاطعة مثل ما رواه البخاري وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت : تلا رسول الله هذه الآية : {هو الذي أنزل عليك الكتاب أولوا الأبواب}⁽¹⁵⁾ قالت : قال رسول الله : فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذي سمى الله فاحذرهم⁽¹⁶⁾ .

ويمثل هذا الاتجاه جمهور من السلف فهو قول عبد الله بن عمر وعائشة وعمر ابن عبد العزيز ، ويروي عن مالك .

الاتجاه الثاني :

يرى إمكانية معرفة المتشابه ، ويقرّ أنه لا بد أن يكون في جملة الراسخين في العلم من يعلم المتشابه ، ويعتبر أن الواو للعطف وأن الوقف في قوله تعالى : {والراسخون في العلم} ، ويذهب هذا الاتجاه إلى أن ليس في القرآن ما لا يمكن

معرفته ، وليس فيه ما استأثر الله بعلمه ، ويمثل هذا الاتجاه عبد الله بن عباس ومجاهد بن جبر والقاسم بن محمد وأبو الحسن الأشعري والنووي والمعتزلة نذكر منهم القاضي عبد الجبار الهمداني .

وقد عضد هذا الاتجاه رأيه بما يلي :

- إن المقام القرآني مقام التنويه بشأن العلماء الراسخين ، فإذا لم يعرفوا المتشابه فلا يكون لوصفهم بالرسوخ أي معنى ولا التنويه بشأنهم أي مغزى .
- إن الله قد أخبر أن الكتاب كله قد فصلت آياته {كتاب أحكمت آياته ثم فصلت} (17) .

الاتجاه الثالث :

يرى أن التوفيق بين الاتجاهين ممكن ، ويقسم المتشابه إلى ثلاثة أضرب :
أ - ضرب لا سبيل للوقوف عليه ، ولا يمكن معرفته وهو ما استأثر الله بعلمه كوقت الساعة والحروف المقطعة وما يوهم الجهة والتشبيه من صفات الله .
ب - ضرب يمكن معرفته ، ومثاله ما يوجد في القرآن من كلمات غريبة مغلقة .
ج - ضرب متردد بين الأمرين يجوز أن يختص لحقيقة معرفته بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم .

وهذا الاتجاه يُرجح لأنه انطلق من تقسيم المتشابه وتحديد نوعية الغوامض وتحديد ما فيها من تفاوت ، لذا لا يميل الباحث إلى الإمساك عن البحث وغلط باب التفكير والاجتهاد ولا يميل في الآن ذاته إلى التخطي في تأويل الحروف وآيات الصفات المتشابهة .

خامسا . حكمة ورود المتشابه في القرآن :

أ - ما استأثر الله بعلمه تلوح لنا فيه حكم أهمها (18) :

1- رحمة الله بهذا الإنسان الضعيف الذي لا يطيق معرفة كل شيء ، وإذا كان الجبل حين تجلّى له ربه جعله دكا وخرّ موسى صعبا فكيف لو تجلّى سبحانه بذاته

وحقائق صفاته للإنسان ؟ ، من هذا القليل أخفى الله معرفة الساعة كي لا يتكاسل البشر ويقعدوا عن الاستعداد لها وكي لا يفتك بهم الخوف والهلع لو أدركوا شدة قربها منهم .

2. الابتلاء والاختبار ، أيؤمن الإنسان بالغيب ثقة بخبر الصادق أم لا ؟ .

3. القرآن دعوة للخواص والعوام ، وطبائع العوام تنبو عن إدراك الحقائق في أكثر الأمور ، لذا خوطبوا بما يناسب مشاهداتهم ومخيلاتهم ، والمثال هنا متشابه آيات الصفات الإلهية ووصف الجنة والنار وأحداث اليوم الآخر .

4. إقامة دليل على عجز الإنسان وجهالته مهما عظم استعداده وغزر علمه وإقامة شاهد على قدرة الله الخارقة وأنه أحاط بكل شيء علما .

5. لو كان القرآن كله محكما لما كان مطابقا إلا لمذهب واحد وكان بصريحه مبطلا لجميع المذاهب المخالفة له ، أما وجود التشابه فيه فيقطع كل ذي مذهب أن يجد فيه كل ما يؤيد مذهبه ، فيضطر إلى النظر فيه وقد يتخلص المبطل عن باطله .

ب - أما ما يستطيع كل إنسان أن يعرفه بواسطة البحث كالتشابه الذي نشأ التشابه فيه من الإجمال ، وكذلك ما يعلمه خواص العلماء دون عامتهم فتلوح لنا منه حكم هي :

1 - تحقيق إعجاز القرآن لأن كل ما استتبع فيه شيئا من الخفاء المؤدي إلى التشابه له مدخل عظيم في بلاغته وبلوغه الطرف الأعلى في البيان .

2 - تيسير حفظ القرآن والمحافظة عليه إذ لو عبر عن هذه المعاني الخافية بالكثير من الألفاظ لخرج القرآن في مجلدات واسعة ضخمة يتعذر معها حفظه وصونه .

3 - باشتمال القرآن على المحكم والمتشابه يضطر الناظر فيه إلى تحصيل علوم كثيرة .

4 - باشتمال القرآن على المحكم والمتشابه يضطر الناس فيه إلى الاستعانة بالأدلة العقلية فيتخلصوا من ظلمة التقليد ، ولو كان كله محكما لما احتاج إلى الدلائل العقلية وظل العقل مهملا .

سادسا. منشأ التشابه وتأويله :

قسم التشابه باعتبار جهة منشئه إلى ثلاثة أضرب⁽¹⁹⁾ :

الأول : متشابه من جهة اللفظ :

وهو نوعان :

النوع الأول : ما كان التشابه فيه ناشئا من جهة الألفاظ المفردة ذاتها إما لغرابتها لقلة استعمالها مثل لفظ « الأب » في قوله تعالى : {وفاكهة وأبا}⁽²⁰⁾ ، وقد فسر الأب بالكأ الذي ترعاه البهائم بدلالة الآية التي تليه {متاعا لكم ولأنعامكم}⁽²¹⁾ ، وقيل يابس الفاكهة والثمار ، وقيل هو كل نبات سوى الفاكهة⁽²²⁾ ، وإما لكونها تنتسب إلى المشترك مثل كلمة اليمين في قوله تعالى : {فراغ عليهم ضربا باليمين}⁽²³⁾ ، فهل يعني أن الضرب قد تم باليد اليمنى باعتبار أن الضرب بها أشد لأنها اليد الأقوى ؟ أو أن المقصود أن الضرب قد وقع بسبب اليمين التي حلفها إبراهيم عليه السلام ونوّه القرآن بشأنها في قوله تعالى : {وتالله لأكيدن أنصامكم}⁽²⁴⁾ ، ولفظ (اليمين) تتحمل أكثر من معنى ولا يمنع ذلك من ترجيح أولها وهو أنه عليه السلام اتجه إلى الأصنام يضربها بقوة حتى تركها جزاذا إلا كبيرها⁽²⁵⁾ .

النوع الثاني : ما كان التشابه فيه ناشئا من جهة اختصاره كقوله تعالى : {وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء}⁽²⁶⁾ ، جاءت هذه الآية مختصرة ، والأصل : {وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى لو تزوجتموهن فلا تنكحوهن ، فانكحوا ما طاب لكم} ، والفاء واقعة في جواب إن الشرطية وهي في الأصل عاطفة لما بعدها على جملة مقدرة هي جواب الشرط⁽²⁷⁾ . وإما أن يكون التشابه فيه متأيا من جهة بسطه مثل قوله تعالى : {ليس كمثله

شيء⁽²⁸⁾ ، فوجود هذه الكاف جعل الكلام يتجه أو يأخذ معنى : ليس مثل مثله شيء ، وظاهره هذا يوهم بوجود المثل ، والحقيقة أن هذا التركيب أبلغ من قوله : (ليس مثله شيء) ، وقد جرى ما في الآية على عادة العرب فتقول : مثلك لا يفعل كذا على قصد المبالغة في نفيه عنه ، فإذا نفى عمّن يناسبه كان نفيه عنه أولى ثم سُلكت هذه الطريقة في شأن من لا مثل له⁽²⁹⁾ .

وإما أن يكون التشابه متأنيا من جهة ترتيبه كقوله تعالى : { الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما }⁽³⁰⁾ ، فهناك من يرى أن الكلام على سياقه من غير تقديم أو تأخير ، ومعناه لم يجعل له عوجا ولكن جعلناه قيما ، وهناك من يرى أن قيما مؤخر كأنه قال : الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيما ، ولم يجعل له عوجا⁽³¹⁾ .

الثاني : متشابه من جهة اللفظ المعنى معا :

وهو خمسة أنواع هي :

1- تشابه من جهة الكمية كالعموم والخصوص مثل قوله تعالى : { فاقتلوا المشركين }⁽³²⁾ ، فهل أن اللفظ خاص بالمشرك العابد للوثن ؟ أم عام يتناول كل كافر ؟ ، وهل يستغرق كافة الأفراد بما في ذلك الصبيان والنساء والعجزة أم لا ؟⁽³³⁾

2- تشابه من جهة الكيفية مثل الوجوب والندب والإباحة مثل قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه }⁽³⁴⁾ ، فهل الكتابة واجبة أو مندوبة أو مباحة⁽³⁵⁾ .

3- تشابه من جهة الزمان فقط مثل الناسخ والمنسوخ كقوله تعالى : { فاتقوا الله ما استطعتم }⁽³⁶⁾ ، هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : { اتقوا الله حق تقاته }⁽³⁷⁾⁽³⁸⁾

4. تشابه من جهة الزمان والمكان معا كقولة تعالى : {وليس البربان تأتوا البيوت من ظهورها} ⁽³⁹⁾ ، فمن لا يعرف عادات العرب يتعذر عليه شرحها وهو أنهم كانوا إذا أحرموا بالحج أو العمرة جعلوا من أحكام الإحرام ألا يدخل الحرم بيته من بابه ، وكان الحرم إذا أراد أخذ شيء من بيته تستم على ظهر البيت ⁽⁴⁰⁾ .

كذلك قوله تعالى : {إنما النسيء زيادة في الكفر} ⁽⁴¹⁾ ، والمعنى المراد هنا تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر ، وكان العرب يحرمون القتال في الأشهر الحرم ولكنهم كانوا يتحايلون فإذا احتاجوا إلى القتال في شهر الحرم أحلوه وحرّموا مكانه صفرا فإن احتاجوا إلى القتال أحلوه وحرّموا ربيعا الأول حيث كان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية دون حرب ⁽⁴²⁾ .

5. تشابه من جهة الشروط التي بها يصح الفعل أو يفسد ك شروط الصلاة ، وشروط البيع .

والخلاصة أن الضرب الأول بنوعيه والضرب الثاني بأنواعه الخمسة وإن اعتبرت من التشابه فهي مما يمكن فهمها وتفسيرها ، بالإضافة إلى أن هناك أشياء قصرت عنها الأفهام في بعض العصور وإن عُدّت من التشابه إلا أن الزمان كفيل بشرحها كالأشياء التي تدرج ضمن الإعجاز العلمي وكمثال نذكر الآيات التالية : {والشمس تجري لمستقر لها} ⁽⁴³⁾ ، {لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار} ⁽⁴⁴⁾ ، {وأرسلنا الرياح لواقح} ⁽⁴⁵⁾ ، {يكور الليل على النهار} ⁽⁴⁶⁾ ، {وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب} ⁽⁴⁷⁾ ، وهي آيات دلت على معان عظيمة كشفتها العلوم الطبيعية والرياضية والتاريخية والجغرافية .

الثالث : متشابه من جهة المعنى فقط :

وهو ما كان التشابه فيه متأتيا من جهة معانيه مثل آيات الصفات التي يوهم ظاهرها تشبيه الله بخلقه ، كقوله تعالى : {الرحمن على العرش استوى} ⁽⁴⁸⁾ ، وقوله : {وقالت اليهود يد الله مغلولة بل يدها مبسوطتان} ⁽⁴⁹⁾ ، وقوله : {ولتصنع على عيني} ⁽⁵⁰⁾ ، وقوله : {وجاء ربك والملك صفا صفا} ⁽⁵¹⁾ .

وكذلك أوصاف أحوال القيامة وما فيها من بعث ونشور وحشر وميزان وصراط وجنة ونار ، وكل ما يتعلق بأمور الغيب ، وهي موضوعات لا يمكن أن ندرك حقيقة ماهيتها الذاتية ولا أن نعرف كيفيتها وقد عُبر عنها بكونها معان سامية ضاقت عن إيفاء كنهها اللغة الموضوعية ، فعُبر عن تلك المعاني بأقصى ما يقرب معانيها إلى الأفهام والعقول .

سابعاً. الخاتمة :

وفي ختام هذا المقال يتبين أن المتشابه صنفان : صنف يمكن تأويله وشرح معناه بالرجوع إلى المحكم ، وصنف يفوض معناه إلى الله تعالى كالحروف المقطعة في أوائل بعض السور ، كما يتبين أن تأويل المتشابه يرتبط باللغة والنحو والإعراب وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ حتى يكون بين النص ومعناه حبل متين وخط أكيد ، وهذا حذرا من التأويل الذي يغرق في الباطن ويعمن في الرمزية بحيث لا نرى أي صلة بين النص ومعناه من الناحية اللغوية ، ويتبين أيضا أن اختلاف المفسرين في تفسير الآيات القرآنية تركز تقريبا في ألفاظ المتشابه وتراكيبه التي تعددت المعاني المستنبطة منها ، وكذلك التي لها صلة بالإعجاز لازالت تحتاج إلى أبحاث ودراسات تخرج بين آثار المفسرين وما وصل إليه العلم الحديث في مجالات الطبيعة والكون والنفس والحياة .

الهوامش :

- 1- آل عمران 7 .
- 2- أبوبكر بن دريد : جمهرة اللغة ، تحقيق رمزي البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 1 ، 1987م ، ج 1 ، ص 247 ، ج 2 ، ص 1090 ، 1177 ، ومجد الدين الفيروزابادي : القاموس المحيط ، ج 3 ، ص 331 .
- 3- أحمد محمد شاكر : دائرة المعارف الإسلامية (هامش مادة تأويل) ، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد وعبد الحميد يونس ، دار المعرفة ، بيروت ، ج 4 ، ص 524 .
- 4- التهانوي : كشف اصطلاحات الفنون ، تحقيق لطفي عبد البديع ، المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ، طبعة 1963م ، ج 1 ، ص 33 ، 35 .

- 5- الفجر 14 .
- 6- جلال الدين عبد الرحمان السيوطي : الإقتان في علوم القرآن ، دار المعرفة ، بيروت ، ج2 ، ص 221 ، 222 .
- 7- البقرة 25 .
- 8- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ج2 ، ص 69 ، وفخر الدين الرازي : التفسير الكبير ، دار الفكر بيروت ، ط3 ، 1985 ، ج7 ، ص 180 ، 181 .
- 9- الزمر 23 .
- 10- الزركشي : المصدر السابق ، ج2 ، ص 68 ، والسيوطي : المصدر السابق ، ج2 ، ص 3 ، والرازي : المصدر السابق ، ج7 ، ص 180 .
- 11- آل عمران 7 .
- 12- الزركشي : المصدر السابق ، ج2 ، ص 69 ، 70 ، والسيوطي : المصدر السابق ، ج2 ، ص 3 ، والرازي : المصدر السابق ، ج7 ، ص 183 ، 184 ، وأحمد مصطفى المراغي : تفسير المراغي ، دار الفكر بيروت ، ط3 ، 1971 ، ج3 ، ص 98 ، 99 ، وابن حجر العسقلاني : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، دار المعرفة ، بيروت ، ج8 ، ص 210 ، 211 .
- 13- لمعرفة الاتجاهات المختلفة في إمكانية تعيين التشابه والاطلاع على معناه ، وفي تفسير الآية السابعة من آل عمران السابقة الذكر ينظر : أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، طبعة 1965 ، ج4 ، ص 16 ، 17 ، 18 ، 19 ، والزركشي : البرهان ، ج2 ، ص 72 ، 73 ، والسيوطي : الإقتان ، ج2 ، ص 4 ، وأبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري : التبيان في إعراب القرآن ، تحقيق علي محمد الجاوي ، دار الجليل ، بيروت ، ط2 ، 1987م ، ج1 ، ص 239 ، والرازي : المصدر السابق ، ج7 ، ص 190 ، 191 ، 192 ، وأحمد بن يوسف اطفيش : تفسير التفسير ، تحقيق إبراهيم طلاي ، المطبعة العربية ، غرداية ، طبعة 2000 ، ج2 ، ص 244 ، والمراغي : المصدر السابق ، ج3 ، ص 100 .
- 14- آل عمران 7 .
- 15- آل عمران 7 .
- 16- رواه البخاري في كتاب التفسير باب (منه آيات محكمات) ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ، ج8 ، ص 209 ، ورواه أبو داود في كتاب السنة باب

النهى عن الجدال واتباع المتشابه من القرآن ، عون المعبود شرح سنن أبي داود لأبي الطيب محمد العظيم آبادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط 1 ، 1990 ، ج 12 ، ص 224 ، 225 .

17- هود 1 .

18- للاطلاع على الحكم المتعددة لورود المتشابه في القرآن ينظر : السيوطي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 16 ، 17 ، والرازي : المصدر السابق ، ج 7 ، ص 185 ، 186 .

19- السيوطي : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 6 ، 7 .

20- عبس 31 .

21- عبس 32 .

22- القرطبي : المصدر السابق ، ج 19 ، ص 222 ، 223 ، والرازي : المصدر السابق ، ج 31 ، ص 64 .

23- الصافات 93 .

24- الأنبياء 57 .

25- القرطبي : المصدر السابق ، ج 15 ، ص 94 .

26- النساء 3 .

27- القرطبي : المصدر السابق ، ج 5 ، ص 11 ، 12 ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى : مجاز

القرآن ، تحقيق محمد فؤاد سزكين ، دار الخانجي ، مصر ، ط 1 ، 1954م ، ج 1 ، ص

114 ، وأبو البقاء العكبري : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 327 ، 328 ، والرازي :

المصدر السابق ، ج 9 ، ص 177 ، 178 .

28- الشورى 11 .

29- القرطبي : المصدر السابق ، ج 16 ، ص 8 ، وأبو البقاء العكبري : المصدر السابق ،

ج 2 ، ص 1131 .

30- الكهف 1 .

31- القرطبي : المصدر السابق ، ج 10 ، ص 351 ، وأبو البقاء العكبري : المصدر السابق ،

ج 2 ، ص 837 ، وأحمد بن يوسف اطفيش : المصدر السابق ، ج 8 ، ص 285 .

32- التوبة 5 .

33- القرطبي : المصدر السابق ، ج 8 ، ص 72 .

34- البقرة 282 .

- 35- القرطبي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 383 ، واحمد بن يوسف اطفيش : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 209 ، والمرآغي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 76 .
- 36- التغابن 16 .
- 37- آل عمران 102 .
- 38- القرطبي : المصدر السابق ، ج 18 ، ص 144 .
- 39- البقرة 189 .
- 40- القرطبي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 344 ، 345 .
- 41- التوبة 37 .
- 42- القرطبي : المصدر السابق ، ج 8 ، ص 137 ، وأبو عبيدة : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 258 ، 259 .
- 43- يس 38 .
- 44- يس 40 .
- 45- الحجر 22 .
- 46- الزمر 5 .
- 47- النمل 88 .
- 48- طه 5 .
- 49- المائدة 64 .
- 50- طه 39 .
- 51- الفجر 22 .

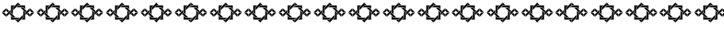
العدل بين الأطفال

(دراسة مقارنة مدعمة بالقوانين الوضعية والمواثيق الدولية)

بقلم :

أ.د/ أبو بكر شهاب

أستاذ الشريعة الإسلامية بعهد العلوم القانونية والإدارية
جامعة الوادي - الجزائر .



المخلص

في الوقت الذي ينتهك فيه حق الحياة لشعوب بأطفالها، وتصل المساعدات الدولية المخصصة للأطفال لجزء منهم دون غيرهم، ينادي المنادون بتنمية حقوق الطفل !

وفي هذا المقال نتناول موضوع العدل المنشود بين الأطفال، بحثا عن الخلل، ورغبة في الوصول إلى طريقة لعلاج ؟ بالاستناد إلى الإعلانات والمواثيق الدولية، ونقارن بالشريعة الإسلامية .

Résumé :

Au temps que il y'a une violation de droit de la vie des peuples avec ses enfants, et les aides internationaux arrivent à une seule partie des enfants sans les autres, des appels sont prononcés pour la progression des droits de l'enfant.

Dans cet article nous traitons la question de légalité souhaité entre les enfants, en cherchant le problème et souhaitant que nous arriverons à le traiter en basons sur les annonces et les conventions internationaux et en comparons avec les règles islamiques.

تمهيد :

يذكر أكثر علماء التفسير ومقاصد الشريعة ، أن أجمع آية في القرآن الكريم ، آية سورة النحل رقم 90 : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ، فيها الأمر بكل خلق حسن، ومنه العدل ، وجاء التأكيد في العديد من الآيات على العدل منها قوله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة الآية 9] ، ونفى الظلم عن نفسه سبحانه في الآية 108 من سورة آل عمران ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

عدل من أسمى مقاصد التشريع ، شامل لكل مجالاته ، مع النفس ومع الآخرين . عدل يَكُن كل صاحب حق من حقه ، يهيئ الفرص المتساوية للجميع ، ويوفر الرعاية للعاجزين من الصغار والكبار ، يوفر لهم أسباب العيش الكريم ، من غير مفاضلة بسبب عرق أو لون أو دين ، إلا تحقيقا للعدل بوجه من أوجه الاستحقاق أو بدافع الحاجة ؟.

في هذه المعاني السامية والمقاصد المؤكدة نتناول موضوع العدل بين الأطفال ، في كل الأحوال ، وعلى كل المستويات: الأسرية ، والإقليمية ، والدولية ، ونقارن بالقوانين الوضعية ، والمواثيق الدولية ، والبداية بالولاية .

تصرفات الولي مقيدة بالعدل ...

أحكام الولاية على القاصر تضمن المصالح المادية وغير المادية ، في عدالة شاملة للأموال وغيرها .

فالولاية تعنى : النصرة والإعانة ، وهي من أسماء الحق تبارك وتعالى ، الناصر المعين لجميع مخلوقاته ، المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها ، فهي تشعر بالتدبير والقدرة والفعل وما لم يجتمع فيها ذلك ، لا يصح إطلاق الاسم عليها ⁽¹⁾ ، كما

تفيد معنى السلطان وتوصف بالكمال والنقصان (2) .

قال عز وجل : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (3) ولا يبلغون هذه الدرجة إلا إذا تحملوا تكاليف الولاية ومنها التعاون والنجدة (4) ، قال تعالى : ﴿ ... وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ ﴾ (5) والمعنى : ولم يكن له حليف ينصره. (6)

لهذا قرأ قوله تعالى : ﴿ هَٰذَا لَكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ ﴾ (7) بالفتح والكسر، وقال بعض المفسرين، بالفتح النصرة، وبالكسر القدرة والسلطان، فالولي : النصير والحليف، القائم على شؤون غيره. وعند الفقهاء : سلطة شرعية مستلزمة لنفاذ التصرف على الغير (إما أصلية أو بالنيابة).

فالولي له السلطة التنفيذية في حدود ولايته ولا يحتاج إلى رضى المتولى عليه، إلا أن يخالف الشرع نصاً أو روحاً.

أصلية مثل ولاية الأب على ابنه، أو بالنيابة مثل ولاية الوصي على الصغير، ضرب من النيابة، فتكون بمعنى : قيام شخص مقام آخر في التصرف عنه (8)، والولاية على الصغير إجبارية لأن الشرع هو الذي يقررها أو القضاء، ويقوم بمقتضاها الولي أو النائب مقام القاصر في كل ما يقبل النيابة، (9) وهي أقسام أولها الولاية على النفس .

بها تكون للولي مهمة الحماية والتربية، والإصلاح، ويد الولي يفترض فيها الأمانة، لهذا يشترط في الحاضن للصغير الصلاح في دينه.

تقرر في السنة المطهرة أن كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه (10)، ولا خيار له فيما يُنشأ عليه من خير أو شر. (11)

وفي المقابل حذر الشارع من ترك الولد وإهماله قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ﴿١٢﴾ ، والوقاية تحصل بتعليمهم وتأديبهم كما قال علي رضي الله عنه : وأمرهم بطاعة الله ، وتعليمهم الخير كما قال الحسن. (١٣)

مسؤولية عامة وخاصة مفروضة بالشرع على كل ولي لعموم قوله ﷺ : «كلكم راع ومسؤول عن رعيته ، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيته ، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته» . (١٤)

والوقاية المذكورة في الآية ، والمسؤولية في الحديث لا يتحققان إلا بتعليم الطفل وتربيته على الخير ونهيه عن الشر ، بداية بمعاني العقيدة والسنن الكونية و انتهاء بوجود القدوة الصالحة ، حتى يسلم عقله من الزيغ والضلال ليصبح أداة خير. (١٥)

رأى الأقرع بن حابس النبي ﷺ وهو يُقبَّل ولده الحسن فقال : إنَّ لي عشرة من الولد ما قبَّلتُ واحداً منهم ! فقال عليه الصلاة والسلام : «من لا يرحم لا يُرحم» (١٦) ، فمن لا يرحم صغيره لا يرحمه الله .

يقوم به وهو منشراح الصدر محتسباً الأجر عند الله تعالى . قالت عائشة رضي الله عنها قال لي رسول الله ﷺ يوما : اغسلي وجه أسامة ، فجعلت أغسله وأنا آنفة ، فضرب يدي ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبَّله ثم قال : قد أحسن بنا إذ لم يكن جارية (١٧) ، تقرير من رسول الله ﷺ لمبدأ اللطف والرحمة مع الصغار (١٨) ، حتى أن الإمام البخاري أفرد باباً كاملاً بعنوان «رحمة الصغير» (١٩) ويبلغ الرفق بالولد حتى يجعله بمنزلة الرفق بالوالد ، سأل رجل رسول الله ﷺ فقال : من أبر؟ فقال : برّ والدك ، فقال لي ولدان ، فقال برّ ولدك ، كما أن لوالدك عليك حقاً كذلك لولدك عليك حق (٢٠) .

ويذكر بعض أهل العلم : أن الله سبحانه وتعالى يسأل الوالد عن ولده يوم القيامة قبل أن يسأل الولد عن والده ، (٢١) لأن الله تعالى كما قال : ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (٢٢) ، قال عز وجل من جهة أخرى

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾⁽²³⁾ .. فكما أن للأب على ابنه حقاً، للإبن على أبيه حق.⁽²⁴⁾

قال ابن عمر رضي الله عنهما: أدب ابنك فإنك مسؤول عنه ماذا أدبته وماذا علمته؟ وهو مسؤول عن برِّك وطواعيته لك.⁽²⁵⁾

قال الإمام النووي: ... على الأب تأديب ولده وتعليمه ما يحتاج إليه من وظائف الدين، وهذا التعليم واجب على الأب وسائر الأولياء قبل بلوغ الصبي والصبية⁽²⁶⁾، لما جاء في السنة « أن لولدك عليك حقاً »⁽²⁷⁾، وحديث «كلكم راع ومسؤول عن رعيته»⁽²⁸⁾، وتأديب الوالد ولده من أفضل الأعمال « ما نحل والد ولدا أفضل من أدب حسن »⁽²⁹⁾.

الطفل أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل نقش، وقابل لكل ما يمال به إليه فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة يشاركه ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والولي.⁽³⁰⁾

ولما كان تأديب الطفل الهدف منه إصلاح الصغير في العاجلة والآجلة، والرفق مشروط بعدم الإخلال بالهدف فإذا احتاج الولي إلى ضربه ضربه متى غلب على الظن أنه يحقق الهدف.

1. و متى حصل التأديب بالأخف من الأفعال والأقوال لم يعدل إلى الأغلظ إذ هو مفسدة لا فائدة فيه لحصول الغرض بما هو دونه⁽³¹⁾، لأن الوسائل تسقط بسقوط المقاصد.⁽³²⁾

والأب هو أولى الناس بالإشراف على مال ابنه اتفاقاً واختلفوا في غيره، فذهب الحنفية والمالكية والحنابلة إلى تقديم وصي الأب عن غيره⁽³³⁾ لتعيين الأب له فأصبح نائباً عنه.

وذهب الشافعي إلى أن الولي بعد الأب هو الجد الصحيح، لأن ولايته مقررة

من قبل الشارع لإنزاله منزلة الأب⁽³⁴⁾، ويرى المالكية والحنابلة أنها لا تثبت إلا للأب أو وصيه، ولا تثبت لغيرهما كالجدة أو العصة⁽³⁵⁾.

ونؤكد بهذا الصدد على نقاط نراها مهمة :

- أن الاعتبار في الولاية على مال الطفل هو حفظه وصيانتة وأن هذا متحقق في الأب ووصيه إلا بما يثبت عدم الأهلية فيهما، أو في واحد منهما؟ .
- وأيا كان الولي على المال فلا بد من توفر شروط فيه منها:

1. كمال الأهلية، لأن فاقد الأهلية الكاملة ليس أهلاً للولاية على نفسه، فمن باب أولى أن لا يكون أهلاً للولاية على مال غيره⁽³⁶⁾.

2. الاتحاد في الدين، فإن كان الأب غير مسلم فلا ولاية له على مال ابنه المسلم⁽³⁷⁾، وعلى القاضي أن يعين من يتولى حفظ وصيانة مال الطفل، لأن القاضي والي من لا والي له، ويلحق بغير المسلم من كان غير صالح في دينه⁽³⁸⁾.

3. أن لا يكون مبذراً، أو سيء التدبير، لأن ولايته على المال ولاية حفظ وصيانة، وسيء التدبير لا يمكنه ذلك، كما أن المبذر ي تلف المال ويضيعه، فليس لواحد منهما ولاية على مال؟

4. أن يكون حسن التدبير أمين غير مبذر حتى يكون له مطلق التصرف في المال.

وبتوفر هذه الشروط في الولي على المال يجوز له الإنفاق على الطفل من ماله والتصرف في المال بكل ما يحفظه وينمي، من بيع، وأجرة وصيانة⁽³⁹⁾.

سلطة الولي على المال في مال الطفل :

إذا توفرت شروط الولاية في الولي على المال جاز له فعل كل ما من شأنه صيانة مال الطفل ونفقه .

1. فينفق على الصغير من ماله إذا دعت الحاجة إلى ذلك من غير إسراف.

2. كما يجوز له بيع مال الطفل متى دعت الحاجة إلى بيعه عند جمهور الفقهاء : فإن كان للطفل عقار في مكان لا يجر عليه نفعا كثيرا جاز بيعه من الولي وشراء له - استبدال - غيره إن كان فيه أكثر نفع من الأموال.⁽⁴⁰⁾

ويجوز للولي الشرعي أن يستأجر عقار الطفل ، أو يعمل به وفيه ، تنمية له ، لما نقل عن عائشة رضي الله عنها وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : حتى لا تأكله الزكاة.

سلطة ليست خاصة بالأب دون غيره على مذهب أكثر الفقهاء⁽⁴¹⁾ ، تعم كل ولي شرعي على مال ، ولعموم قوله عز وجل : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾⁽⁴²⁾ لأن معنى اليتيم متحقق في كل طفل - دون سن البلوغ - محتاج إلى من يعتني به ، ومتى وجد الأب فهو الأولى لقوله ﷺ « أنت ومالك لأبيك »⁽⁴³⁾ أصالة ، وبفقدانه يتحقق معنى اليتيم المذكور في الآية في الطفل صورة ومعنى ، وبعدم أهليته للولاية على المال ، يوجد معنى اليتيم معنى فقط ، وفي الحاليين لا يسقط حق الطفل في الولاية على ماله.

فإذا استحق الولي أجرا بسبب ولايته على المال فله ذلك بالتي هي أحسن ، حفظا للمال ، أما إذا كان وارثا لصاحب المال واستحق عليه نفقة وأجرة فله أن يأخذ واحدة فقط صيانة للمال ، إلا أن يحتاج - ولا يكفيه -⁽⁴⁴⁾ ، خلافاً للحنفية الذين قالوا لا يأخذ الوصي من مال اليتيم شيء لا على سبيل القرض ، ولا على سبيل الابتداء سواء كان الولي غنيا أو فقيرا واحتجوا بقوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا ... ﴾⁽⁴⁵⁾ ، ورجح الإمام الطبري في تفسيره لآية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا ﴾ جواز الأخذ من مال اليتيم على سبيل الاستقراض ، واعتبره من الأكل بالمعروف المذكور

في سورة النساء ﴿فليأكل بالمعروف﴾⁽⁴⁶⁾ .

في أقصى صورة للعدل، الواجب لجميع الأطفال، ومن جميع الأولياء، مساواة في القيمة الإنسانية، مساواة في المنافع العامة الاجتماعية، مساواة في التكاليف، والواجبات المالية .

أولاً : المساواة في القيمة الإنسانية :

اقتضت حكمة الخالق سبحانه وتعالى وعدله أن يخلق الناس متحدين في أصل المنشأ، مستعدين لتقبل الشرع بما يحمله من تكاليف عامة وخاصة قال عز وجل : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »⁽⁴⁷⁾ وقال : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾⁽⁴⁸⁾ وأكد ذلك ﷺ عندما قال : « الناس ولد آدم وآدم من تراب »⁽⁴⁹⁾ ، فلا مجال لتفضيل أحد على أحد منهم إلا بناء على ما يقدمه من الأعمال ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾⁽⁵⁰⁾ وهو أساس التفاضل بين الناس⁽⁵¹⁾ ، والطفل غير مكلف بالأعمال لعدم توفر شروط التكليف فيه، لقوله ﷺ : « رفع القلم عن ثلاث ... ومنهم الصبي .. »⁽⁵²⁾ .

إلا أنه يشارك الجميع في أصل المنشأ، فاستحق حقوقه كاملة غير منقوصة فيما شمله، كما استحق أن يعامل على فطرته وهي الصفة المشتركة بين الأطفال . لا على أساس لون أو عرق أو جهة أو أي وصف آخر يميزه عن قرنائه.

ثانياً : المساواة في المنافع العامة الاجتماعية :

لا فرق بين طفل وآخر لأي سبب وإن كان الدين، لاستواء الجميع في القيمة الإنسانية، وعدم التكليف .

فهذا الرسول الأعظم يخاطب أمته وهو الحاكم فيهم بشخصه قبل وفاته، ويستنه بعد ذلك ﷺ فيقول « اعدلوا بين أبنائكم في النحل كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البرِّ واللفظ »⁽⁵³⁾ ، ورفض ﷺ الإشهاد عندما علم أن الأب لم يعدل

بين أبنائه في العطية .

أخرج البخاري في صحيحه - وغيره من أصحاب السنن - عن النعمان بن بشير أنه قال : أعطاني أبي عطية ، فقالت أمي - عمرة بنت رواحة - لا أرضى حتى تشهد رسول الله ﷺ فأتى النبي ﷺ فقال : إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله ، فقال : « أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟ قال : لا؟ قال : فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم » (54).

وجاء في رواية الإمام مسلم أنه ﷺ قال : « فلا تشهدني إذن ، فإني لا أشهد على جور » ، أما في رواية ابن حبان فبلفظ : « لا تشهدني إلا على عدل ، فإني لا أشهد على جور » ، وفي بعض ألفاظ مسلم : « فليس يصلح هذا ، وإني لا أشهد إلا على حق » ، وفي آخره : « فاشهد على هذا غيري » ، ثم قال : « أيسرك أن يكونوا إليك في البر سواء؟ » قال : بلى ، قال : « فلا إذن » ، وفي رواية لأبي داود ، والنسائي وأحمد ، أنه قال ﷺ : « اعدلوا بين أبنائكم ... ثلاثا ... » (55).

من مجموع الروايات يستفاد أن الحاكم ﷺ وجه الجميع إلى مبدأ العدل بين الأولاد ، وإن كان سبب هذا الحديث كما سبق في عطية أب لابنه مع تفضيله على إخوته فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فالعدل بين الأطفال مطلب شرعي ، وعدم التزامه يعد باطلا وظلما ، لما أشارت به الروايات السابقة (56).

والحاكم والقاضي من مهامه إقامة الشرع بين أفراد رعيته ، وجلب المصالح لهم ودفع المفاسد عنهم ، وليس أعظم ظلما من سكوته عن الجور ومخالفة الحق .

ونخلص إلى أن العقد في حد ذاته لا يصح إذا حصل مع التفضيل (57) ، ولا يصلح اعتبار الدين والصلاح فيه سببا للتفضيل ، لاستواء الجميع - الأطفال في الصفتين أولا : الإنسانية ، ثانيا : عدم التكليف ، ولعموم الأمر بالعدل للولادة.

وينهض لهذا الأدلة الآمرة بالحكم بالعدل في حق الحكام ومنها قوله تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (58) وإن كانوا غير مسلمين ، ثبت عند الفقهاء حق

الذمي في بيت مال المسلمين، فيرى المالكية بأنه يجوز إعطاء الذميين من أموال الزكاة خلافا للجمهور⁽⁵⁹⁾، إلا أن رأي المالكية هذا قوي وله وجاهته لما لهم من توجيهات منها :

1. لتأليف قلوبهم، وتثبيت النية لدى من عزم على الإسلام منهم ولا ينافي هذا ما أثر عن عمر رضي الله عنه⁽⁶⁰⁾، لأنه حكم معلل - بالقوة - والحكم المعلل يدور مع علته وجودا وعدما.

2. للاعتبار السابق في الأطفال وهو أن المعتبر فيهم هو الاستواء في صفة الإنسانية لا غير، ويشهد لتوجيه المالكية سالف الذكر، حكم الشرع بعدم مقاتلة أو مؤاخضة الأطفال وإن كانوا غير مسلمين حتى في حالة الحروب⁽⁶¹⁾، وقد ثبتت التسوية في الإعطاء لكل أطفال الرعية وإن كانوا غير مسلمين من أبناء أهل الذمة من بيت مال المسلمين، مما يجعل من مسألة التسوية بين الأطفال واجبا شرعيا .

ثالثا : المساواة في التكاليف والواجبات المالية :

الطفل لا يتحمل تكليفا ولا واجبا ديانة، و تثبت في ماله الحقوق المالية، ويؤديها عنه وليه إما انطلاقا من الحكم الشرعي، أو بحكم القاضي ومن أمثلة ذلك :

فإن كان له مالا و توفرت فيه شروط الزكاة، لزم وليه إخراج زكاته، بعد الحكم بإسلام الطفل وإلا فلا .

الزكاة فريضة شرعية يراعى فيها المال وإيصاله لمستحقه، والضرية يفرضها الحاكم متى احتاجت الدولة - الخزينة - على مالكي الأموال، ومتى فرضت، فإن المراعى فيها إضافة لما يراعى في الزكاة من إيصال المال إلى مستحقه ما يلي :

(1) ملكية المال .

(2) دخول صاحب المال تحت حماية الدولة.

(3) توفر شروط في المال ومنها القدر.

(4) الدخول في الحماية والطفل مهما كان دينه متى دخل في الحماية وكان مالكا

للمال ... فإن الضريبة تجب في ماله مقابل تمتعه بالحماية والقدر الكافي في المعيشة.

قياسا على الزكاة التي لم يشترط فيها إلا ملك المال والنصاب إضافة إلى دوران الحول دون تمييز بين صغير أو كبير، رجل وامرأة قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ، وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى، وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ﴾ (62) مع استقرارهن في البيوت وجبت الزكاة في أموالهن مثل الرجال .

وأثبتنا في بحث الدكتوراه أن الطفل ضامن لما ألتفه من أملاك غيره من ماله إن كان له مال وإلا فعلى وليه أو عاقلته، لأن المعتبر في هذا المجال هو التعدي، بالإتلاف وقد حصل الإتلاف، وإن لم يصح قصد التعدي منه، لأنه حق من حقوق العباد التي يجب أداؤها لأصحابها.

وليس للوالي - للحاكم - أن يفرق بين الأطفال في كل هذه الواجبات المالية، أما الآباء والأمهات فللفقهاء فيهم تفصيل نحصره في مذاهب كما سيأتي.

مساواة الآباء بين أبنائهم :

انطلاقا من حديث النعمان بن بشير السابق - ومجموع ألفاظه - يستفاد التأكيد على التسوية بين الأولاد، وهو رأي جمهور العلماء، إلا أنهم اختلفوا في مسائل منها: حكم التفضيل إذا وجد سببه، وحكم العطية إذا حصلت مع التفضيل، ثم في كيفية التسوية .

أولاً: وجوب التسوية بين الأولاد :

ذهب الإمام مالك والظاهرية ، والإمام أحمد في رواية رجحها الشوكاني إلى أن عطية الأب لبعض أبنائه مع تفضيله باطلة مردودة ، واستدلوا بأن النهي الوارد في حديث النعمان بن بشير يفيد فساد العقد لأنه ﷺ وصفه بأنه جَوْرٌ، والجور لا يجوز إمضاءه⁽⁶³⁾.

وأشار ابن حزم الظاهري إلى ذلك وتأكيد عليه وإلى أنه إن ولد لمن أعطى بعض أبنائه عطية ، أن يعطي المولود مثل ما أعطى إخوته أو يشركه فيما أعطاهم ... وإن لم يفضل أعطي مما ترك أبوه من رأس ماله مثل ذلك⁽⁶⁴⁾ ، وهو مذهب الحنابلة وطاووس وابن المبارك ومجاهد وعروة وخلاصة قولهم: يجب على الوالد العدل بين أولاده في العطية ويحرم عليه تفضيل أحدهم على غيره فيها⁽⁶⁵⁾.

ونصَّ الحنابلة على عدم جواز التفضيل لأي سبب كأن يكون بسبب الصلاح في الدين وعدمه أو الفقر أو لوجود عاهة - كعمى ...⁽⁶⁶⁾.

واستدلوا بعموم الأحاديث الصحيحة⁽⁶⁷⁾، إلا أن صاحب كشف القناع أشار إلى جواز تخصيص أحد الأولاد أو بعضهم بالعطية إذا كان بإذن الباقيين ، واعتبر الحكم - بتحريم التفضيل - معللاً بما يورثه من العداوة وقطيعة الرحم ، وبالإذن تنفي⁽⁶⁸⁾ ويترتب على ذلك أنه من فضل بعض أبنائه يلزمه إما رد ما فضل به بعضهم أو إتمام نصيب الآخرين حتى يتساوا⁽⁶⁹⁾ ، ولأنها عطية والد لولده فإنها تلزم بالموت وفي رواية للإمام أحمد أنها لا تلزم بالموت⁽⁷⁰⁾ وإنما لا بد للزومها من إذن الورثة مثل الوصية.

ثانياً : استحباب التسوية بين الأولاد :

جواز التفضيل مع الكراهة ، وإذا وجد سببه ذهبت الكراهة ، واختار ابن قدامة وجوب التسوية بين الأولاد في العطية ما لم يختص أحدهم بمعنى فيه يبيح التفضيل ، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية ، فإذا اختص الأب أحد أبنائه بالعطية - أو الزيادة فيها - لوجود سبب شرعي كأن يكون محتاجاً مطيعاً لله ، والآخر (ـ) أو

الآخرين - عاص - أو عاصين -) أغنياء يستعينون بالمال على المعصية، فإذا أعطى من أمر الله بإعطائه ومنع من أمر الله بمنعه فقد أحسن وهي رواية أخرى للإمام أحمد⁽⁷¹⁾.

واستدل ابن قدامة على ذلك بما رواه الإمام مسلم وأبو داود وابن ماجه ومالك وأحمد من أن أبا بكر نحل ابنته عائشة جدارا عشرين وسقا من ماله باللغة دون سائر ولده⁽⁷²⁾، واعتبر حديث النعمان بن بشير حديث في عين لا عموم لها، كما أنه يجوز أن يكون لعلمه ﷺ ... ؟

ويشهد لهذا المذهب أيضا : قوله ﷺ «كل ذي مال أحق بماله»⁽⁷³⁾.

وقيد أبو يوسف التفضيل بعدم قصد الإضرار من الوالد بالباقيين، فإن قصد ذلك وجبت التسوية⁽⁷⁴⁾.

أما أكثر الحنفية والمالكية والشافعية فذهبوا إلى القول باستحباب العدل بين الأولاد في النحلة حتى يتساووا في البر للوالدهم، وأنه يكره كراهة تنزيه أن يخص أحدهم أو بعضهم بالعطية، لأن ذلك يوقع الوحشة في قلوب الفضولين منهم، واعتبروا الهبة إن حصلت مع التفضيل صحيحة نافذة⁽⁷⁵⁾.

لهذا قيد الإمام أبو حنيفة الزيادة والتفضيل بزيادة الفضل في الدين وانه إذا كانت كذلك فلا بأس به⁽⁷⁶⁾.

ونص الشافعية على أنه يستحب أن يهب الباقيين مثل الأول إن فضله عنهم، وإلا استحب له الرد إلا أنه لا يجب، ما لم يتفاوتوا في الحاجة⁽⁷⁷⁾.

ويذكر القاضي أبو الوليد الباجي من المالكية : أنه إذا أعطي الأب بعض أبنائه على سبيل الإيثار فإنه مكروه، وإنما يجوز له ذلك ويعرى عن الكراهة إذا أعطى البعض لوجه ما من جهة يختص بها أحدهم أو غرامة تلزمه، أو خير يظهر منه فيختص بذلك خيرهم على مثله⁽⁷⁸⁾، حملا للنهي الوارد في حديث النعمان ابن بشير، على أن بشير لم يكن له سوى ذلك العبد الذي وهبه للنعمان⁽⁷⁹⁾، ومن أدلتهم أيضا فعل بعض الصحابة مع عدم إنكار الباقيين فأصبح بمثابة الإجماع

منهم⁽⁸⁰⁾.

ثالثا: الترجيح

من العدل أن تكون العطية حسب الخصائص والميزات وإذا استقر أن العدل بين الأولاد في العطية واجب من الآباء نحو أبنائهم كما أنه يجب على الولاة نحو جميع أطفال الرعية.

فإنه من العدل المطلوب شرعا أن يخص ذا الحاجة أو ذا الميزة بما يناسب المعنى الذي اختص به في العطية، مع المحافظة على الرابطة بين الأطفال، وبين الأولاد، فليس للحاكم أن يفرق بين الأطفال في ولايته في منحة الأبناء على احتياجاتهم وإن كانوا غير مسلمين - وخاصة قبل التمييز -⁽⁸¹⁾، كما أنه ليس للأب أن يفضل بعض أبنائه على بعض حفاظا على الصلة فيما بينهم، وبرهم له لأن التفضيل يكون سببا في العداوة والبغض، وبانتفاء العلة ينتفي الحكم أو يتغير.

وليس من العدل أبدا أن يعطى الفاسق مثل ما يعطى الصالح، لأن العطية ستكون تشجيعا لكل منهما، وإنما العدل يقتضي البيان لأسباب العطية، ومحاولة الإرضاء حتى تنتفي علة المنع.

فلا جواز التفضيل على الإطلاق، ولا وجوب التسوية مطلقا، وإنما: الأصل وجوب العدل والتسوية بين جميع الأطفال إلا في حالات منها:

أ. أن يختص أحدهم بمعنى فيه⁽⁸²⁾.

ب. أن يضمن عدم حصول الغيظ والقطيعة.

ج. على أساس العمل الصالح والاستعداد له.

فلو نظر المجتمع الدولي إلى الأطفال بهذا المنظار لثم القضاء على كثير من حالات الفقر والعوز في بعض بقاع العالم كإفريقيا وآسيا، ولحصل التوازن والتساوي بين أطفال العالم في كل القارات، وقطعا فإنه يؤدي إلى إيجاد روح المحبة والإخاء!

رابعاً : كيفية التسوية والعدل في العطية بين الأطفال :

المطلوب من الوالي - الحاكم - أن يعدل بين الأطفال حسب حاجتهم مع مراعاة أعمارهم وأحوالهم وإمكانات الدولة.

أولاً: في النفقة والسكن: ذهب الظاهرية إلى أن الواجب هو العدل بينهم حسب الكفاية لأن النفقة شرعت لدفع الحاجة، ولا يجب في ذلك مراعاة ميراثهم⁽⁸³⁾، ونص شيخ الإسلام ابن تيمية على وجوب التسوية ثم أشار إلى التفضيل بناء على الحاجة⁽⁸⁴⁾.

ثانياً: العطية: أن تكون مثل الميراث فيأخذ الذكر مثل حظ الأنثيين وهو قول المالكية والشافعية ومحمد بن الحسن من الحنفية واحمد ، وذهب آخرون إلى أن التسوية تقتضي أن لا يفرق بين الذكر والأنثى لما رواه ابن عباس رضي الله عنه: « سَوُّوا بين أولادكم في العَطِيَّةِ فلو كنْتُ مُفَضَّلًا أَحَدًا لَفَضَّلْتُ النِّسَاءَ »⁽⁸⁵⁾.

لأن المرأة غالباً تكون أكثر حاجة إلى العطية من الذكر في هذه الحالة، ولأنها عطية في الحياة .

والحاصل أن المعتبر في كيفية التسوية هو قرائن الحال بتحقيق المصالح ودفع الضرر، وسد الحاجة من جهة والاستعداد للعمل الصالح النافع من جهة أخرى.

ولا نفهم كيف المساعدات الدولية تصل إلى أطفال في نصف الكرة الغربي الشمالي حتى يكاد يقضى فيه على الفقر تماماً، ولا تصل المساعدات إلى النصف الجنوبي الشرقي للكرة الأرضية حتى أصبحت تعد إفريقيا وآسيا موطناً للأطفال الجوع، بل ومقبرة لمن قتلهم سوء توزيع المساعدات الإنسانية بل الثروات الطبيعية.

وأطفال فلسطين والعراق ، كنار على علم في هذا المجال ؟؟

فعلى المجتمع الدولي أن يأخذ مسألة الأطفال والمساواة بينهم بجدية وموضوعية.

يشير تقرير السيد: (كارول بيلامي) المدير التنفيذي لليونيسيف حول وضع

الأطفال في العالم⁽⁸⁶⁾ ، 1996 ، أنه من سنة 1945 إلى 1992 نشبت 149 حرباً رئيسية أدت إلى قتل أكثر من 23 مليون نسمة وأن المعدل السنوي لأعداد القتلى في هذه الحروب يزيد على ضعف الوفيات التي حصلت في القرن التاسع عشر ، ويزيد سبعة أضعاف عما كان عليه عدد قتلى الحروب في القرن الثامن عشر.

كما يشير إلى أن تطور فنون القتال الحديث ساهمت في ذلك ، فخلال عقد (1980 إلى 1990) تكون الحروب قد خلفت ضحايا من الأطفال يقدرون بـ: 2 مليون قتيل ، و5.4 ملايين إعاقة ، و12 مليون مشرد ، وأكثر من مليون طفل يتيم أو مشرد ، وأكثر من 10 ملايين طفل متضررين نفسياً.

ففي أنغولا وحدها يقدر عدد الذين ماتوا نتيجة الحرب 330.000 طفل في الفترة من 1980 إلى 1988 وفي نفس الفترة توفي ما يزيد عن 490.000 طفل في الموزمبيق.

اعترافات صريحة - وصارخة - تدل على عدم قدرة المنظومة الدولية على توفير الأمن للأطفال ، وعلى عدم الجدية في التعامل مع هذه الشريحة ؟

في حين لا نجد في التاريخ الإسلامي ما يشير إلى قتل أطفال أو أي تأثير سلبي عليهم ، إلا ما كان عن طريق الخطأ ، أو غير المقصود ، وهذا يجعلنا نقول بأن شعار الطفل أولاً الذي رفع من قبل الأمم المتحدة وتبنته الدول الأعضاء يبقى مجرد شعار مفرغاً من محتواه .

ختاماً : اتفقت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية ، ثم القوانين الوضعية على ضمان الحق في الحياة ، لكل الناس دون تمييز ، فمن القرآن الكريم قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ... ﴾⁽⁸⁷⁾ ، ومن السنة قوله ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عَقُوقَ الْأَمْهَاتِ وَوَادَ الْبَنَاتِ »⁽⁸⁸⁾ .

ومما جاء في كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أمراء أهل الجزية : ألا يضربوا الجزية إلا على من جرت عليه المواسي ، ولا يضربوا على النساء والصبيان ... وقاتلوا من قاتلكم ولا تقتلوا النساء ولا الصبيان⁽⁸⁹⁾ وهو مذهب جمهور السلف قاطبة⁽⁹⁰⁾ .

وهو الأمر الذي تفتن إليه رجال القانون والدفاع عن حقوق الإنسان حالياً، فالاتفاقية الأوروبية لحقوق الإنسان والحريات الأساسية من أهم ما جاء فيها، حماية النساء والأطفال والصغار والعمال وحماية الأمومة والطفولة⁽⁹¹⁾.

وفي ديباجة اتفاقية حقوق الطفل لعام 1989، ورد النص على: أن الطفل بسبب عدم نضجه البدني والعقلي، يحتاج إلى إجراءات وقاية ورعاية خاصة، بما في ذلك حماية قانونية مناسبة قبل الولادة وبعدها⁽⁹²⁾.

ومن التقصير في الحماية : عدم توفير الكفاية من الأكل والشرب وكل ضروري للحياة والاستمرار في النمو العادي، فمن محاسن الاتفاقية العالمية لحقوق الإنسان لعام 1948م أنها نصت في المادة 25 بفقرتها على حق الأشخاص، وخصصت الأمومة والطفولة بمستوى من المعيشة كاف للمحافظة على الصحة والرفاهية⁽⁹³⁾.

ولم يبلغوا ما فعله عمر رضي الله عنه حيث كان يفرض لكل مولود رزقا من بيت مال المسلمين عملا بما رآه من العدالة الاجتماعية، وسار على ذلك عثمان وعلي رضي الله عنهم⁽⁹⁴⁾.

والأب الذي يعد أول مسؤول على توفير الكفاية لابنه - النفقة - إن امتنع على الإنفاق على ولده القاصر مع قدرته يحبس لدفع الهلاك عن الولد، تماشيا مع قاعدة: لا ضرر ولا ضرار⁽⁹⁵⁾.

فالقانون الوضعي لم يأت بمجديد عندما نص على عقاب من ترك طفلا أو عاجزا، وخاصة إذا كان من أصوله أو ورثته، وعلى عقاب الذي يحرص على إهمال الأطفال⁽⁹⁶⁾.

لهذا يذكر ابن حزم أنه لو مات طفل في بلدة جوعا وجبت ديته عليهم مجتمعين⁽⁹⁷⁾، لأنه مات بسبب تقصيرهم.

والضرر المضمون في الشريعة الإسلامية: شامل لكل ما يعده الناس ضررا ويتعلق المصالح التي قصد الشارع إلى حفظها⁽⁹⁸⁾ أما الإهمال الذي تترتب عليه

عقوبة التقصير فهو ما تجاوز الحد المعتاد⁽⁹⁹⁾.

وعدم العدل بين الأطفال فهو، تقصير من وجه وإهمال من وجه، وتعد من وجه آخر؟

فوجب تعليم الكبار الحفاظ على مصالح الصغار، وترشيد وتوجيه المنظمات الإقليمية والدولية نحو الأهداف التي من أجلها شكلت، للوصول إلى عدل شامل بين أطفال العالم؟ وفي تعليم الشريعة الإسلامية ما يوفر ذلك ويضمن استمراره وشموله.

والله من وراء القصد وولي التوفيق.

الهوامش :

- (1) ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة 473/1.
- (2) شرح العقيدة الطحاوية ص 403 و404.
- (3) سورة التوبة الآية 71.
- (4) سيد قطب، في ظلال القرآن 1674/3.
- (5) سورة الإسراء، الآية 111.
- (6) الصابوني، صفوة التفسير 351.350/1.
- (7) سورة الكهف، الآية 44.
- (8) مصطفى أحمد الزرقاء، المدخل الفقهي العام 817/2.
- (9) المرجع السابق 817/2 والهامش 1 من نفس الصفحة، و الشاطبي في الموافقات 227/2.
- 240، ويتولى ولاية القاصر الأقرب فالأقرب من أقارب القاصر العصباء على ترتيب الإرث والحجب مع مراعاة الأصلح، وتبدأ الولاية بال ميلاد إذ لا ولاية لأحد على الجنين قبل ميلاده والقاضي ولي من لا ولي له.
- (10) البخاري في الجناز 80 و92 وفي القدر، ومسلم في القدر.
- (11) مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، سنة 5 عدد 18 (1414هـ، 1993م) مسائل فقهية: المعيار الشرعي في تربية الأولاد ورعايتهم ص 228. 229.
- (12) سورة التحريم، الآية 06.
- (13) ابن قيم الجوزية، تحفة المودود ص 158، والألوسي، روح المعاني مجلد 10 جزء 28 ص 157.156،

- (14) رواه البخاري في صحيحه في الفتن باب الفتنة التي تموج كموج البحر، انظر الفتح 45/13 و46 ومسلم رقم 1829، في الإمارة، فضل الإمام العادل، والترمذي رقم 2263 و1705، والنسائي 227/8، وأبو داود رقم 2928 والإمام أحمد في المسند 38/5 و47.34 و51.
- (15) مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، السنة 5 العدد 18 ص 229 و230 وانظر فتح الباري 440/10، والإحياء للغزالي 200/2، وأحكام النساء لابن الجوزي ص 170.
- (16) الحديث رواه البخاري من حديث أبو هريرة رضي الله عنه، انظر تخريج العراقي لأحاديث الإحياء، إحياء علوم الدين 218/2 هامش رقم (1).
- (17) قال العراقي لم أجده هكذا، ثم ذكر رواية عند أحمد بالمسند من حديث عائشة رضي الله عنها، بإسناد صحيح وفي آخرها "لو كان أسامة جارية لخليتها ولكسوتها حتى أنفقها"، الإحياء 218/2 هامش (2).
- (18) المنهج الإسلامي في رعاية الطفولة، اليونسييف، 1405هـ 1985م، ص 16 ولزبد في التفصيل بنظر الأدب المفرد للبخاري، والإحياء، وتخريج العراقي لأحاديث 218/2 وما بعدها.
- (19) إحياء علوم الدين 217/2، والحديث رواه الطبراني من حديث ابن عمر، وقال الدار قطني في العلل: الأصح وقفه على ابن عمر، ينظر: الإحياء 217/2، هامش رقم 5.
- (20) المرجع السابق.
- (21) ابن قيم الجوزية، تحفة المودود في أحكام المولود ص 139.
- (22) سورة التحريم، الآية 06.
- (23) سورة العنكبوت، الآية 08.
- (24) ابن القيم، تحفة المودود ص 139 و161.
- (25) المصدر نفسه ص 137.
- (26) النووي، شرح صحيح مسلم 44/8.
- (27) مسلم بشرح النووي 43/8.
- (28) مسلم برقم 1829، وابن حجر، فتح الباري 178/5 و13/45، والنووي، المجموع 11/3.
- (29) الحديث أخرجه الترمذي من حديث عمرو بن سعيد بن العاص مرفوعاً، انظر: الألباني في ضيف الجامع الصغير رقم 5231 وابن الديع، تمييز الطيب من الخبيث، تحقيق محمد عثمان الخشت ص 236 حديث رقم 1223، وابن الأثير، جامع الأصول 416/1، حديث رقم 218، وقال: في سنده مجهول ضعيف، وصححه الحاكم ورده الذهبي بقوله: بل مرسل ضعيف أما الترمذي فقال غريب مرسل، لأن عمرو بن سعيد تابعي لم يدرك النبي ﷺ، رقم الحديث للترمذي 1953، قلت: إلا أن معناه صالح للاحتجاج، وإن لم يصح لفظه، بإضافة مجموع الأدلة السابقة والمعاني التي ذكرت قبل هذا الأثر.
- (30) الغزالي، الإحياء 62/3، و218/2، وانظر: ابن الحاج، المدخل 295/4.
- (31) العز بن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنعام 75/2.

- (32) قواعد الأحكام في مصالح الأنام 102/1.
- (33) ينظر : حاشية الدسوقي على الشرح الكبير 299/3، وحاشية بن عابدين 174/6 وبدائع الصنائع 3028/6 و3034، وكشاف القناع 447/3، والمادة 87 من قانون الأسرة الجزائري تنص على ما يلي: يكون الأب وليا على أولاده القصر وبعد وفاته نحل الأم محلها قانونا.
- قلت :** وإذا سلمت هذه المادة في اعتبار الأم ولية على الأبناء في أنفسهم فإنها لا تسلم على هذا الإطلاق في الولاية على أموالهم، إلا أن المادة 92 أجازت للأب أو الجد تعيين وصي، وإذا تعدد الأوصياء اختار القاضي الأصلح منهم (وذكرت المادة 93 شروط الوصي ومنها أن يكون أمينا حسن التصرف) إلا أن المادة 81 أطلقت عندما نصت على أن من كان فاقدا الأهلية أو ناقصها لصغر السن أو جنون أو عته أو سفه ينوب عنه قانونا ولي أو وصي أو مقدم طبقا لأحكام هذا القانون، والمواد 82، 83، 84، 85 و86 والقانون المدني: مادة 42 لا يكون أهلا لمباشرة حقوقه المدنية من كان فاقدا التمييز من لم يبلغ السادسة عشرة سنة، وفي المادة 44 يخضع فاقدا الأهلية وناقصها بحسب الأصول لأحكام الولاية أو الوصاية.
- (34) الرملي، نهاية المحتاج 362/4، والشيرازي، المهذب 432/1.
- (35) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير 299/3، وابن قدامة، المغني والشرح الكبير 242/5.
- (36) ابن رشد، بداية المجتهد 12/2.
- (37) بداية المجتهد 12/2.
- (38) دأمين عبد المعبود زغلول، رعاية الطفولة في الشريعة الإسلامية ص 319 (نقلا عن ابن عابدين في حاشيته).
- (39) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير 299/3، المغني والشرح الكبير 242/5.
- (40) المغني والشرح الكبير 242/5، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير 299/3 وحاشية ابن عابدين 174/6 و175، وكشاف القناع 447/3 و451.
- نصت المادة 88 من قانون الأسرة الجزائري على أنه على الولي أن يتصرف في أموال القاصر تصرف الرجل الحرير، ويكون مسؤولا طبقا لمقتضيات القانون العام، ونصت من جهة أخرى على أن هناك أحوال يجب فيها على الولي أخذ الإذن من القاضي وهي: (1) بيع العقار وقسمته ورهنه وإجراء المصالحة، (2) بيع المنقولات ذات الأهمية الخاصة، (3) استثمار أموال القاصر بالإقراض، أو الاقتراض أو المساهمة في شركة، (4) إيجار عقار القاصر لمدة تزيد على ثلاث سنوات أو تمتد لأكثر من سنة بعد بلوغه سن الرشد،
- وفي المادة الموالية (89) من نفس القانون: على القاضي أن يراعي في الإذن: حالة الضرورة والمصلحة وأن يتم بيع العقار بالزاد العلني، وفي المادة (90) إذا تعارضت مصالح الولي ومصالح القاصر يعين القاضي متصرفا خاصا تلقائيا أو بناء على طلب من له مصلحة.
- (41) يراجع التفصيل عند الفقهاء في مثل: بدائع الصنائع 3031/6، ونهاية المحتاج 264/4 والمبدونة الكبرى 327/4، وحاشية بن عابدين 495/6 والمغني والشرح الكبير 397/4.

- (42) سورة الأنعام ، الآية 153 ، وسورة الإسراء ، الآية 34 ، واليتيم هو فقدان الأب وفي البهائم فقدان الأم ، وجاء في القاموس: اليتيم هو الصبي أو الولد الذي فقد أباه قبل البلوغ ، القاموس المحيط مادة [يتيم] والمعجم الوسيط .
- (43) أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص رقم 3530 في البيوع ، وابن ماجه رقم 2291 و2292 ، وقال الحافظ بن حجر في الفتح 155/5 لمجموع طرقه لا تحطه عن القوة وجواز الاحتجاج به .
- (44) تفسير: ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ .
- (45) سورة البقرة ، الآية 188 ، وسورة النساء ، الآيات 2 ، 10 ، 127 .
- (46) الطبري ، جامع البيان 260/4 ، والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن 41/5 - 44 ، وابن العربي ، أحكام القرآن 324/1 - 326 .
- (47) سورة آل عمران ، الآية 59 .
- (48) سورة النساء ، الآية 01 .
- (49) العجلوني ، كشف الخفاء ، وحسنه الترمذي بهذا اللفظ حديث: 2848 ، 433/2 .
- (50) سورة الحجرات ، الآية 13 .
- (51) يراجع تفسير القرطبي للآيتين 123 ، 124 من سورة النساء (2/5) وتفسير محمد رشيد رضا للآيتين .
- (52) رواه أبو داود برقم 4399 و4400 و4401 و4402 في الحدود وإسناده حسن والترمذي رقم 1423 في الحدود والنسائي في الطلاق 156/6 .
- (53) الفتح 211/5 ، صحيح مسلم بشرح النووي 65/11 .
- (54) رواه البخاري 155/5 و156 في الهبة باب الهبة للولد ، ومسلم رقم 1623 في الهبات باب كراهية تفضيل بعض الأولاد في الهبة والإمام مالك في الموطأ 751/2 في الأقضية والترمذي رقم 1367 .
- (55) صحيح البخاري رقم 2587 والفتح لابن حجر 211/5 وتفصيل الحكم - حكم التسوية في العطية بين الأبناء - ص 214 من نفس الجزء ، والإمام مسلم بشرح النووي 65/11 ، ومختصر سنن أبي داود للمنذري 191/5 وبعدها وسنن الترمذي 51/5 ، وسنن النسائي 258/6 وما بعدها ، وابن ماجه 795/2 ، والإمام أحمد في المسند 269/4 - 275 - 278 - 375 والموطأ مع المنتقى 92/6 ، ونيل الأوطار 6/6 ، السنن الكبرى للبيهقي 176/6 وما بعدها .
- (56) والذي نلاحظه في هذا المجال بأن أغلب الذين يتناولون الحديث يتناولونه على أنه يحمل الأمر بالتسوية والعدل بين الأولاد ، ولا يبنهون إلى أنه يحمل الأمر العام للولادة بالإشراف والتنفيذ ؟ .
- (57) إلا أن يوجد سبب شرعي قطعي ، وسنذكر ذلك قريباً بحول الله وقوته .
- (58) سورة المائدة الآية 49 ، وكذا الآيات 44 و45 و47 من نفس السورة .
- (59) المغني والشرح الكبير 653/2 و659 وأحكام الجصاص 461/1 و462 وإن كانت أدلة الجمهور قوية أمام أدلة المالكية فإن رأي المالكية له وجهاته : تأليفا لهم على الإسلام وتثبيتاً لمن أسلم

- منهم ، وهي مصلحة دينية - خلافا لما رجحه الأستاذ الدكتور / عبد الوهاب الشيشاني في حقوق الإنسان ص 670.
- (60) عندما عدل عن إعطاء المؤلفه قلوبهم من الغنائم بحجة أن الرسول ﷺ أعطاهم وكان المسلمون قلة وفي ضعف ، وقد كثروهم الله وأغناهم.
- (61) أ. د. لشهب أبو بكر ، حقوق الطفل بين الشريعة والقانون (أطروحة دكتوراه في الفقه وأصوله) ص 74.
- (62) سورة الأحزاب الآية 33.
- (63) ابن حجر ، فتح الباري 124/5 وابن حزم ، المحلى 142/9-145 ، وابن جزى ، القوانين الفقهية ص 372 ، والشوكاني ، نيل الأوطار 6/6 وما بعدها ، والسييل الجرار له 303/3.
- (64) المحلى 142/9.
- (65) البهوتي ، شرح منتهى الإرادات 524/2 ، وكشاف القناع 343/4.
- (66) البهوتي ، شرح منتهى الإرادات 524/2 وابن قدامة ، المغني والشرح الكبير 256/8-257 ، وابن حجر ، الفتح 214/5 ، وابن القيم ، تحفة المودود ص 158.
- (67) إلا أن الأساس في هذه الأحاديث هو حديث التعمان بن بشير السابق بمختلف ألفاظه ، ولزيادة التفصيل في أدلتهم يراجع : ابن قيم الجوزية ، التحفة ص 138 ، والبهوتي ، شرح منتهى الإرادات 524/2 ، وكشاف القناع 343/4 ، وابن حجر ، الفتح 214/5 ، ومسلم بشرح النووي 65/11 وما بعدها ، والبايجي ، المنتقى 92/6 والبغوي ، شرح السنة 296/8 ، والشوكاني ، نيل الأوطار 6/6.
- (68) 343/4 .
- (69) 343/4 .
- (70) ابن مفلح ، المبدع 373/5 ، والبهوتي ، كشاف القناع 344/4 وابن قدامة ، المغني والشرح الكبير 270/8.
- (71) المغني والشرح الكبير 256/8-258 ، كشاف القناع 344/4 والمبدع 373/5 ، وابن تيمية ، مجموع الفتاوي 295/31.
- (72) صحيح مسلم 1244/3 ، سنن أبي داود 262/2 وابن ماجه في السنن 795/2 ومالك في الموطأ 751/2 ، والإمام أحمد في المسند 269/4 ، والبيهقي في السنن 178/6.
- (73) واعتبر الإمام ابن حزم هذا الحديث صحيح ، المحلى 144/9 و148 ورواه أيضا البيهقي في السنن 178/6.
- (74) فتح الباري 214/5 ، والفتاوي الهندية 391/4.
- (75) ابن رشد ، بداية المجتهد 328/2 ، وابن جزى ، القوانين الفقهية 372 ، وابن عبد البر ، الكافي 530 ، والبايجي ، المنتقى 92/6-93 ، والنووي ، شرح صحيح مسلم 66/11-67 ، والبغوي ، شرح السنة 297/8 . ونقل ابن قدامة في المغني أن الحسن البصري كان يكره التفضيل ويميزه قضاء (المغني 256/8) .

- (76) الفتاوى الهندية 391/4، وفتاوى قاضيان 279/3، وابن عابدين في منحة الخالق على البحر الرائق 288/7 وبدائع الصنائع 127/6.
- (77) أسنى المطالب وحاشية الرملي عليه 483/2.
- (78) المنتقى 93/6، ولزيادة التفضيل ينظر الكافي لابن عبد البر ص 530 والقوانين الفقهية 372، وفتح الباري 214/5.
- (79) المنتقى للباقي 92/6، وفتح الباري 214/5، واستدل أصحاب هذا المذهب بأدلة كثيرة على مذهبهم فمن أراد الزيادة فليرجع إليها في المصادر والمراجع المذكورة مثل إعلام الموقعين لابن القيم 310/2 والتحفة 138، وابن دقيق العيد، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام 216/3.
- (80) شرح السنة للبغوي 298/8، والطحاوي في شرح معاني الآثار 87/4 و89.88/4، والبيهقي في السنن الكبرى 178/6 وفتح الباري 215/5، ونيل الأوطار 8/6، والمغني 257/8 وما بعدها وابن القيم من إغائة اللفهان 365/1.
- (81) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة 490/2 وما بعدها.
- (82) من العدل أن يشجع الصالح على صلاحه.
- (83) ابن حزم، المحلى 149.142/9، والبهوتي، شرح منتهى الإرادات 524/2.
- (84) الاختيارات الفقهية من فتاوى ابن تيمية ص 185.
- (85) الحديث أخرجه معبد بن منصور والبيهقي بإسناد حسن، انظر ابن حجر في الفتح 214/5 وكنز العمال 446/16، والمغني 259/8 ومجمع الزوائد 153/4، وذهب الحنابلة وفي قول الشافعية وآخر لبعض المالكية إلى أن العدل يقتضي أن يجعلها على قدر ميراثهم، ينظر النووي في شرح صحيح مسلم 66/11 وفتح الباري 214/5 وشرح السنة للبغوي 297/8 وشرح منتهى الإرادات 524/2 وكشاف القناع 344/4 المغني 259/8، وابن تيمية، الاختيارات الفقهية ص 184.
- (86) وضع الأطفال في العالم 1996.
- (87) سورة التكاوير، الآيتين 8 و9.
- (88) عمدة القاري 247/12.
- (89) محمد حميد الله، الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص 507، 508.
- (90) وأوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان يوم بعثه على جيش إلى الشام بعشر وصايا منها (3 و5) ولا تقتلن مولودا، ولا امرأة ولا شيئا كبيرا. يراجع: تراث الخلفاء الراشدين 554، 555، والمدونة الكبرى 7/3 والمغني والشرح الكبير 391.374/10، المحلى 7/ رقم 928.924، وبتدابة المجتهد 307.304/1، صحيح مسلم بشرح النووي 50/12، وعمدة القاري 162/12 و270/149، ونيل الأوطار 208/7.
- (91) الاتفاقية كانت أبرمت بتاريخ 4/ تشرين الثاني 1950م، وتضمنت معظم الحقوق الواردة في الاعلان العالمي لحقوق الإنسان لسنة 1948، يراجع: د.صبيحي محمصاني، أركان حقوق الإنسان ص 60، وحماية الأمومة والطفولة 75 و76 و77.

(92) أما المادة 6 من الاتفاقية فتتص على أنه: على الدول الأطراف الاعتراف بأن لكل طفل حقا أصيلا في الحياة، وفي المادة 24 الفقرة - د - تذكر بكفالة الرعاية الصحية المناسبة للأمهات قبل الولادة وبعدها.

(93) ولم تفرق بين أن يكون الطفل نتيجة رابطة شرعية أو غير شرعية لأن الطفل الغير شرعي إنسان، ولهذا اعتبره محمد عبد الجواد محمد هذا : موقف إنساني ، حماية الأمومة والطفولة ص 27 .

د.محمد أحمد سراج ، ضمان العدوان في الفقه الإسلامي ص 382، ومجمع الضمانات ص 172، وبدائع الصنائع 235/7 .

(94) وكان يفرض له 100 درهم ولكل نفس مدّ حنطة وقسطي زيت في كل شهر، وفرضوا للقيط كذلك 100 درهم وفرض عمر بن عبد العزيز عشرة دنائير. / ينظر تراث الخلفاء الراشدين ص 380 والمدونة الكبرى 28/3، وابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب ص 84.

(95) د. محمد صدقي البورنو ، الوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية ص 81.

(96) قانون العقوبات الجزائري في مواده : 314 و 316 و 320، والوجيز في شرح قانون العقوبات الجزائري ص 369، 370، 371 و 374.

(97) ابن حزم ، المحلى 159/6.

(98) د. محمد أحمد سراج ، ضمان العدوان في الفقه الإسلامي ص 203.

(99) ابن فرحون ، تبصرة الحكام ، مطبوع بهامش فتح العلي المالك 349/2.

الشروط في عقد البيع عند المالكية

بقلم :

د. سعاد سطحي

أستاذة محاضرة بقسم الفقه وأصوله
كلية الشريعة . جامعة الأمير عبد القادر . قسنطينة



الملخص

يعتبر موضوع الشروط في العقود من المسائل الهامة في الفقه الإسلامي عموما وعقد البيع خصوصا ، وذلك لكونه يترتب عليه إمضاء هذه العقود أو ردها ، مما يجعلها فيصلا في التمييز بين الصحيحة منها والباطلة .

هذا وقد ركزنا في هذا المقال على بيان نظرة فقهاء المذهب المالكي لهذه المسألة وذلك لاتخاذهم منحى يستوعب الجمع بين الأحاديث التي تطرقت للشروط ، وهذا تطبيقا للقاعدة الأصولية التي تنص على أن إعمال الدليلين أولى من إهمالهما أو إهمال أحدهما .

Résumé

TITRE : les conditions dans l'acte de vente chez les Malékites

La question des conditions dans l'acte de vente constitue une importance prépondérante dans le Fikh en Islam en général ، et dans l'acte de vente en particulier .

C'est pourquoi nous avons essayé dans cet article de démontrer quel est l'avis des Foukaha Malékites à l'égard de cette épineuse question .

المقدمة

إن موضوع الشروط في عقد البيع من المسائل الجديرة بالبحث والدراسة، وذلك لانباء صحة العقود أو بطلانها عليها، ولذا ارتأيت من الأهمية بمكان دراسة جزئياتها ودقائقها قصد الوصول إلى معرفة مدى تأثيرها على عقد البيع، موضحين ذلك كله بمعونة الله تعالى وتوفيقه من خلال ما يأتي :

أولاً : تعريف الشرط :

أ. لغة : الشرط بفتح الراء العلامة وجمعه أشراط مثل سبب وأسباب، ومنه أشراط الساعة⁽¹⁾ كما في قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [محمد : 18] .

والشرط بسكون الراء جمعه شروط وهو إلزام الشيء والتزامه في البيع ونحوه⁽²⁾ أو ما يوضع ليلتزم في بيع أو نحوه⁽³⁾.

ب. اصطلاحاً : قال الإمام القرافي (رحمه الله) : « الشروط يلزم من عدمها العدم في المشروط ولا يلزم من وجودها وجود ولا عدم »⁽⁴⁾.

ثانياً : حكم الشرط في عقود المعاوضات والتبرعات :

ذهب فقهاء المالكية إلى مشروعية الشرط في العقود إذ الأصل في الشروط الإباحة ما لم يمنعها الشرع أو تخالف نصوصه مستدلين على ذلك بما يأتي :

1 - قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة : 1] .

2 - قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ [النحل : 91] .

3 - قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ﴾ [التوبة : 175] .

لقد أمر المولى عزّ وجلّ بالوفاء بالعقود ولا شك من دخول ما ألزم الإنسان به نفسه في جملة العقود التي يجب الوفاء بها.

4 - وبما ورد أن النبي ﷺ قال : « المسلمون عند شروطهم إلا شرطاً حرم حلالاً أو أحلّ حراماً »⁽⁵⁾.

ثالثاً : تقسيم الشرط من حيث ارتباطه بالمصدر⁽⁶⁾ :

وينقسم إلى شرط شرعي ، وآخر جعلي :

أ. الشرط الشرعي : ويسمى بالشرط الحقيقي ، وهو الذي يكون مصدر اشتراطه أو واضعه هو الشارع فيتصل بإرادة الشارع لا بإرادة المتعاقدين ، مثل كون الطهارة شرطاً في صحة الصلاة.

ب. الشرط الجعلي : وهو ما كان مصدر اشتراطه إرادة المتعاقدين إذ ينشأ بإرادة العاقد فيجعل بعض عقود أو التزاماته مرتبطة به أو معلقة عليه ، بحيث إذا لم يتحقق الشرط الذي اشترطه لا تتحقق تلك العقود والالتزامات ، وذلك مثل اشتراط منفعة لأحد المتعاقدين .

رابعاً : الأحاديث الواردة في الشروط :

وهي كثيرة نورد منها ما يأتي :

1 - عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : « جاءني بريرة فقالت : كاتب أهلي على تسع أواق ، في كل عام أوقية ، فأعنيني . فقالت إن أحبوا أن أعدها لهم ويكون ولاؤك لي فعلت ، فذهبت بريرة إلى أهلها فقالت لهم فأبوا عليها ، فجاءت من عندهم ورسول الله ﷺ جالس فقالت إنني عرضت ذلك عليهم فأبوا إلا أن يكون الولاء لهم ، فسمع النبي ﷺ فأخبرت عائشة النبي ﷺ فقال خذيه واشترطي لهم الولاء فإنما الولاء لمن أعتق . ففعلت عائشة . ثم قام رسول الله ﷺ في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ما بال رجال يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله ؟ ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط ، قضاء الله أحق وشرط الله أوثق وإنما الولاء لمن أعتق »⁽⁷⁾.

2 - عن جابر بن عبد الله أنه كان يسير على جمل له أعيا ، فمر النبي ﷺ فضربه فسار سيرا ليس يسير مثله . ثم قال بعنيه بأوقية فبعته . فاستثيت حملانه إلى أهلي . فلما قدمنا أتيت به بالجمل ونقدني ثمنه ، ثم انصرفت ، فأرسل على إثري . قال ما كنت لأخذ جملك ، فخذ جملك ذلك فهو مالك » .⁽⁸⁾

3 - وعن جابر أيضا قال : « نهى رسول الله ﷺ عن المحاقلة والمزابنة والمخابرة والمعومة والثنيا ، ورخص في العرايا » .⁽⁹⁾

4 - عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل سلف وبيع ولا يجوز شرطان في بيع ولا ربح ما لم تضمن ، ولا بيع ما ليس هو عندك » .⁽¹⁰⁾

5 - عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ « نهى عن الثنيا إلا أن تعلم » .⁽¹¹⁾

6 - ما ورد أن النبي ﷺ « نهى عن بيع وشرط » .⁽¹²⁾

7 - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قالت الأنصار للنبي ﷺ أقسم بيننا وبين إخواننا النخيل قال : لا ، فقالوا : تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة قالوا : سمعنا وأطعنا .⁽¹³⁾

ولقد اختلف العلماء في اقتران البيع بالشرط وذلك لتعارض هذه الأحاديث⁽¹⁴⁾ إذ منها ما يوضح بأن الشروط جائزة في البيع ومنها ما يفيد النهي عن الشروط في البيع .

ويرى المالكية بأن مذهب الإمام مالك (رحمه الله) هو أولى المذاهب إذ بمذهبه تجتمع الأحاديث كلها ، والجمع أحسن من الترجيح .⁽¹⁵⁾

قال الإمام ابن رشد الجد : « فعرف مالك (رحمه الله) الأحاديث كلها واستعملها في مواضعها وتأولها على وجوهها » .⁽¹⁶⁾

وقال الإمام ابن رشد الحفيد : « وأما مالك فالشروط عنده تنقسم إلى ثلاثة أقسام : شروط تبطل هي والبيع معا ، وشروط تجوز هي والبيع معا ، وشروط تبطل ويثبت البيع ، وقد يظن أنه عنده قسم رابع ، وهو أن من

الشروط ما إن تمسك المشتري بشرطه بطل البيع، وإن تركه جاز البيع، وإعطاء فروق بينة في مذهبه بين هذه الأصناف الأربعة عسير، وقد رام ذلك كثير من الفقهاء، وإنما هي راجعة إلى كثرة ما يتضمن الشروط من صنف الفساد، الذي يخل بصحة البيوع، وهما الربا، والغرر، إلى قلته وإلى التوسط بين ذلك، أو إلى ما يفيد نقصا في الملك، فما كان دخول هذه الأشياء فيه كثيرا من قبل الشرط أبطله، وأبطل الشرط، وما كان قليلا أجازته، وأجاز الشرط فيها، وما كان متوسطا أبطل الشرط، وأجاز البيع»⁽¹⁷⁾.

خامسا : تقسيم الشروط من حيث الصحة والبطالان :

أولا : الشروط الصحيحة : وهي التي يقتضيها العقد، أو لا يقتضيها، ولكن لا تنافيه وفيها مصلحة لأحد المتعاقدين وورد الشرع بجوازها، وسننبسط القول فيها فيما يأتي :

1- شرط يقتضيه العقد : كشرط التقابض وذلك بتسليم السلعة للمشتري والتمن للبائع وشرط القيام بالعيب، فهذه الأمور لازمة دون شرط لاقتضاء العقد لها، فهذا الشرط لا يؤثر ذكره في العقد ووجوده كعدمه فهو بيان وتأكيد لما يقتضيه العقد⁽¹⁸⁾.

2- شرط لا يقتضيه العقد ولا ينافيه : وفيه مصلحة لأحد المتعاقدين : فهذا الشرط جائز كاشتراط بائع الدار سكنها لمدة سنة أو شهر⁽¹⁹⁾.

قال الإمام ابن عبد البر (رحمه الله) : « وجائز بيع الدابة على استثناء ركوبها اليوم ونحوه، وجائز بيع الدار واستثناء سكنها لمدة شهر أو شهرين أو سنة، ونحو ذلك لأنه شيء مأمون »⁽²⁰⁾.

ويؤيد ما ذهب إليه ابن عبد البر حديث جابر إذ فيه بأنه باع جملة للرسول ﷺ واستثنى ظهره إلى المدينة ووافقه النبي ﷺ على ذلك، فهذا يدل على جواز اشتراط شيء فيه مصلحة لأحد المتعاقدين . كما ذكر الإمام مالك

(رحمه الله) بأنه إذا اشترط البائع الركوب إلى مكان قريب جاز ذلك. وإذا كان بعيدا كره، لأن اليسير تدخله المساحة.⁽²¹⁾

قال الإمام ابن رشد (رحمه الله) : « ويجوز البيع والشرط وذلك إذا كان الشرط صحيحا ولم يؤل البيع به إلى الغرر ولا فساد في ثمن ولا مثمون ولا إلى ما أشبه ذلك من الإخلال بشرط من الشرائط المشترطة في صحة البيع وذلك مثل أن يبيع الرجل الدار ويشترط سكنها أشهرها معلومة أو يبيع الدابة ويشترط ركوبها أياما يسيرة أو إلى مكان قريب». ⁽²²⁾

ومن بين الشروط الصحيحة كذلك شرط الأجل والخيار والكفيل والرهن فهذه الأمور لا تنافي العقد ولا يقتضيها بل إن اشترطت عمل بها ولا يقضى بها دون شرط. ⁽²³⁾

ثانيا : الشروط الباطلة : وهي التي قد تبطل التصرف أصلا ، وقد يصح إذا أسقطها المشتري ، وقد تسقط ويصح العقد ، وسوف نتناولها بالتفصيل على النحو الآتي :

1- شروط باطلة تبطل التصرف : فهنا يكون الشرط حراما والبيع فاسدا ، كمن باع منزلا واشترط اتخاذه مكانا للفساد ⁽²⁴⁾. أو كاشتراط ما يجز منفعة للمقرض ⁽²⁵⁾ أو اشتراط ما فيه غرر في الثمن أو المثلن وذلك لما ورد أن رسول الله ﷺ « نهى عن بيع الغرر ». ⁽²⁶⁾

قال الإمام مالك (رحمه الله) : « من الغرر والمخاطرة أن يعمد الرجل قد ضلت دابته أو أبق غلامه وثمان الشيء من ذلك خمسون دينارا فيقول رجل أنا آخذه منك بعشرين دينارا ، فإن وجدته المبتاع ذهب من البائع ثلاثون دينارا ، وإن لم يجده ذهب البائع من المبتاع بعشرين دينارا ، قال مالك : وفي ذلك أيضا عيب آخر إن تلك الضالة إن وجدت لم يدر أزدت أم نقصت أم ما حدث بها من العيوب فهذا أعظم المخاطرة ». ⁽²⁷⁾

2- شروط باطلة تبطل التصرف إلا إذا أسقطها مشروطها : كالشرط الذي يتنافى مع المقصود من العقد مثل اشتراط ما يمنع من تصرف عام أو خاص.⁽²⁸⁾ وكاشتراط البائع على المشتري ألا يركب ما اشتراه أو ألا يلبس الثياب المشتراة أو ألا يبيع أو ألا يسكن الدار.⁽²⁹⁾

قال الإمام ابن جزيء (رحمه الله) : « فإن كان الشرط يقتضي التحجير على المشتري بطل الشرط والبيع إلا أن يسقط عن المشتري شرطه فيجوز البيع وذلك مثل أن يشترط عليه ألا يبيع ولا يهب »⁽³⁰⁾

3- شروط باطلة تسقط ويصح العقد : مثل اشتراط البراءة من العيوب ، أو اشتراط ما يخالف مقتضى العقد ، كاشتراط الضمان على المودع ، إذ الأصل في عقد الوديعة أنه عقد أمان لا عقد ضمان فلا يجوز اشتراط الضمان على المودع عنده ، ويسقط الشرط مع صحة التصرف.

ورد عن الخرخشي : « لا ضمان على المودع إذا شرط رب الوديعة عليه ضمانها إذا تلفت في محل لا ضمان عليه ، ولا يعمل بشرطه ، لأن الوديعة من الأمانات فشرط ضمانها يخرجها عن حقيقتها ويخالف ما يوجبها الحكم ».⁽³¹⁾

كما هو في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها عندما قال ﷺ : « إنما الولاء لمن أعتق » حيث أجاز التصرف وأبطل الشرط⁽³²⁾

سادسا : علاقة الشرط ببعض البيوع ومدى تأثيره فيها :

هناك بيوع كثيرة لها علاقة بالشرط نأخذ كنماذج لها ما يأتي :

1- بيع الوفاء : وهو أن يقول البائع متى جئتكَ بالثمن رددت عليّ المبيع ، فإن هذا لا يجوز وذلك لتردده بين البيع والسلف ، لأنه إن جاء بالثمن كان سلفا ، وإن لم يجيء به كان بيعا ، وقد وقع الاختلاف في المذهب : هل يجوز ذلك في الإقالة أم لا؟⁽³³⁾

وتتميمًا للفائدة ارتأينا إدراج قرار مجمع الفقه الإسلامي بشأن بيع الوفاء،
هذا القرار الحامل لرقم 7/4/68 والذي جاء فيه :

إن مجلس الفقه الإسلامي المنعقد في دورة مؤتمره السابع بمجدة في المملكة
العربية السعودية من 7 إلى 12 ذو القعدة 1412 هـ الموافق 9 إلى 14 ماي 1992م
قرر ما يلي :

- إن حقيقة هذا البيع (قرض جرّ منفعة) فهو تحايل على الربا، وبعدم
صحته قال جمهور العلماء.

- يرى المجمع أن هذا العقد غير جائز شرعاً. (*)

2 - بيع الثنيا : اتفق علماء المالكية على أنه يجوز أن يستثنى من حائط له
عدة نخلات غير معيّنات إلا بتعيين المشتري لها بعد البيع ، حاملين ما ورد عن
النبي ﷺ من نهيه عن الثنيا في البيع على ما زاد عن الثلث ، أما في الثلث وما
دونه فأرأوا الجواز. (34)

وقد ردّ عليهم محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة بقوله : « ما
لكم أن تجربوا الناس على قولكم بغيريئة، ولا برهان، فإن كان عندكم عن
النبي ﷺ في هذا أثر، أو عن أحد من أصحابه، أنه أجاز الاستثناء في الثلث،
وأبطله في أكثر من ذلك فأخبرونا ». (35)

3 - بيع وسلف (36) : وصورته تتمثل في أن يقول المشتري لبائع السلعة :
بعتي سلعتك بثمان منخفض، وأسلفك مبلغا من المال، أو العكس، بأن
يقول البائع للمشتري : اشتري مني هذه السلعة بثمان زائد على ثمنها المعتاد،
وأسلفك مبلغا من المال.

إذ شرط البيع مع السلف فيه معنى الإخلال بالثمن، لأنه يقتضي إما
كثرته، إن كان الشرط من البائع أو نقصه إذا كان الشرط من المشتري.

أما اجتماع البيع والسلف من غير شرط، فلا يمتنع على المعتمد، وقيل
يصح البيع إذا حذف شرط السلف.⁽³⁷⁾

وقد استدللّ من نهى عن بيع وسلف بما ورد عن النبي ﷺ من أنه نهى عن
بيع وسلف وذلك لكون هذا السلف يجرّ منفعة، ومعلوم أن كلّ قرض جرّ
منفعة، فهو ربا.⁽³⁸⁾

قال الإمام الدسوقي (رحمه الله) : « لأن المقترض إن كان هو المشتري
صار المقرض له، وهو البائع متفعلاً بزيادة الثمن، وإن كان المقرض هو البائع
صار المقرض له، وهو المشتري متفعلاً بنقص الثمن ».⁽³⁹⁾

وفي الأخير نحسب أننا طوّقنا بمسائل الشروط في عقد البيع عند المالكية،
وأعطنا اللثام عن الكثير من دقائقها وجزيئاتها، سائلة المولى عز وجل أن
أكون قد وفقت في عرض مسائل هذا الموضوع بما يخدم العلم عموماً،
والمذهب المالكي خصوصاً، وصلى الله على سيدنا محمد وآله، وآخر دعوانا
أن الحمد لله رب العالمين .

الهوامش :

(1) المصباح المنير مادة "شرط"، 421، ومختار الصحاح مادة "شرط"، 334، ومعجم
مقاييس اللغة، مادة "شرط"، 260/3، والقاموس المحيط مادة "شرط"، 368/2،
والمعجم الوسيط، مادة "شرط"، 479/1.

(2) القاموس المحيط، مادة "الشرط"، 368/2، ولسان العرب، 2235/4، مادة
"شرط".

(3) المعجم الوسيط، مادة "شرط"، 479/1.

(4) الفروق، 62/1.

(5) الترمذي، باب : "ما ذكر عن النبي ﷺ في الصلح بين الناس، وقال : حديث حسن
صحيح. قال فيه الألباني : "حديث صحيح". إرواء الغليل، 143/5. ط. المكتب
الإسلامي.

- (6) انظر تفصيل ذلك في : الشرط عند الأصوليين للدكتور الفاضل الأخ : سعيد فكرة . 559- 562 وهي رسالة دكتوراه نوقشت خلال السنة الدراسية 96- 97 ، وهي الآن مخطوطة بقسم الدوريات بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة . نالها صاحبها بتقدير : مشرف جدا مع التوصية بالطبع والتداول بين الجامعات .
- (7) البخاري، كتاب الشروط، باب : "الشروط في الولاء"، 326/5. بالفتح.
- (8) البخاري، كتاب الشروط، باب : "إذا اشترط البائع ظهر الدابة إلى مكان مسمى جاز"، 314/5 بالفتح وصحيح مسلم : كتاب المساقاة، باب : "بيع البعير واستثناء ركوبه"، 1221/3.
- (9) مسلم، كتاب البيوع، باب : "النهي عن المحاقلة والمزابنة وعن المخابرة، وبيع الثمرة قبل بدو صلاحها وعن بيع المعاومة" وهو بيع السنين، 1174/3، وأبو داود، كتاب البيوع، باب : "في المخابرة"، 93/2، والترمذي كتاب البيوع، باب : "ما جاء في المخابرة والمعاومة"، 388/2 وابن ماجه كتاب : التجارات، باب : "المزابنة والمحاقلة"، 762/2 والنسائي كتاب البيوع، باب : "النهي عن بيع الثنيا حتى تعلم"، 341/7.
- المحاقلة : بيع الطعام في سنبله، وقيل اشتراء الزرع بالحنطة، وقيل بيع الزرع قبل بدو صلاحه، وقيل كراء الأرض بالحنطة.
- انظر كتاب : "التعريفات"، 205، وأنيس الفقهاء، 204.
- المزابنة : في اللغة الدفع، وقيل للمشتري زبون لأنه يدفع غيره عن أخذ المبيع، وسُميت بعض الملائكة زبانية لدفعهم أهل النار إليها، ويُقصد بها هنا بيع الرطب على النخيل بتمر مجذوذ مثل كيله تقديرا.
- التعريفات، 211، وأنيس الفقهاء، 211.
- المخابرة : مزارعة الأرض على الثلث، أو الربع. التعريفات، 207.
- (10) أبو داود، كتاب البيوع، باب : "في الرجل يبيع ماله عنده"، 105/2.
- (11) أبو داود، كتاب البيوع والإجازات، باب : "في المخابرة"، 93/2، والترمذي كتاب البيوع، باب : "ما جاء في النهي عن الثنيا"، 378/2، والنسائي، كتاب الإيمان، باب : "ذكر الأحاديث المختلفة في النهي عن كراء الأرض بالثلث أو الربع، واختلاف ألفاظ الناقلين للخبر"، 47/7.
- (12) لا يوجد له أصل في كتب الحديث "ابن تيمية الفتاوى الكبرى"، 473/3 والقواعد النورانية، 188. قال ابن حجر: "وأما حديث النهي عن بيع وشرط ففي إسناده مقال وهو قابل للتأويل" الفتح، 315/5. وقد أوله المالكية بأن المقصود من ذلك الشرط

الذي يناقض مقتضى العقد أو الشرط الذي يعود بخلل في الثمن، التمهيد، 337/4. وقارن في كل هذا بالشرط عند الأصوليين للدكتور سعيد فكرة، فقد أجاد وأفاد، فجزاه الله خيرا.

(13) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب : "الشروط في المعاملة" بالفتح، 322/5.
(14) فقال قوم : البيع فاسد، والشرط فاسد، ومن قال بهذا الشافعي وأبو حنيفة، وقال قوم البيع جائز والشرط جائز ومن قال بهذا ابن أبي شبرمة، وقال قوم : البيع جائز والشرط باطل ومن قال به ابن أبي ليلى وقال أحمد : البيع جائز مع شرط واحد، وأما مع شرطين فلا. انظر بداية المجتهد، 182/2.

(15) بداية المجتهد، 283/2.

(16) المقدمات، 206/3 بهامش المدونة.

(17) بداية المجتهد، 282/2 - 283.

(18) حاشية الدسوقي، 65/3، وبلغه السالك، 33/2.

(19) القوانين الفقهية، 251، والمقدمات، 203/3 بهامش المدونة وبداية المجتهد، 183/2.

(20) الكافي، 683/2.

(21) بداية المجتهد، 184/2.

(22) المقدمات، 205/3 بهامش المدونة.

(23) بلغه السالك، 33/2 وحاشية الدسوقي، 65/3 و67.

(24) ابن عاصم : الإتيان والأحكام شرح تحفة الحكام، 280/1 - 281.

(25) الخرشبي، 231/5.

(26) الموطأ. كتاب البيوع، باب : "بيع الغرر"، 461.

(27) الموطأ، كتاب البيوع، باب : "بيع الغرر"، 461.

(28) بداية المجتهد، 183/2، والفواكه الدواني، 97/2.

(29) الشرح الصغير، 32/2، وبلغه السالك، 33/2.

(30) القوانين الفقهية، 251.

(31) الخرشبي على مختصر خليل، 112/6.

(32) بلغه السالك، 33/2.

(33) القوانين الفقهية، 251، وبداية المجتهد، 183/2.

(*) مجلة مجمع الفقه الإسلامي، العدد السابع، ج 557/3.

(34) بداية المجتهد، 186/2 - 187.

-
- (35) الحجة على أهل المدينة، 563/2.
- (36) الشرح الصغير، 32/2، وحاشية الدسوقي، 66/3 و67، وبداية المجتهد، 184/2. والمقدمات، 204/3، والفواكه الدواني، 97/2.
- (37) الفواكه الدواني، 97/2.
- (38) الشرح الكبير بحاشية الدسوقي، 67/3.
- (39) حاشية الدسوقي، 67/3.

جمعية الشباب السوفي الزيتوني

إعداد

الأستاذ : محمد السعيد عقيب

أستاذ مساعد مكلف بالدروس بقسم التاريخ

جامعة الوادي . الجزائر .



الملخص :

جمعية الشباب السوفي الزيتوني، تأسست في ماي 1937 بتونس، من طرف مجموعة من الجزائريين المنحدرين من وادي سوف، بهدف مساعدة أبناء بلدتهم من الطلبة الدارسين بالمسجد الكبير، ولتكون علاقات تعاون وتآزر بين المنخرطين فيها .

وهذا المقال يقدم مجموعة من المعلومات عن أعضاء المكتب لهذه الجمعية، والتي لم يكن لها أي صبغة سياسية.

Résumé:

-L' association " Echabeb Essoufi Ezzeitouni " à été fondée en Mai 1937 à Tunis par un groupe d' algériens originaire d' oued-souf, dans le but venir en aide à leurs compatriotes étudiants à la grande mosquée -Ezzeotouna- . est se formée des lieux d' amitié entre ses adhérents.

Cet article présente des renseignements recueillis sur les membres du bureau directeur de l' association .qui ne parait pas avoir aucun caractère politique

تمهيد :

تعد فترة الثلاثينيات من القرن العشرين فترة خصبة في تاريخ الحركة الطلابية الجزائرية ، سواء داخل الوطن أو خارجه ؛ إذ تميزت خلالها جمعية الطلبة المسلمين لشمال إفريقيا بنشاط هام وكبير ، حيث أقامت العديد من المؤتمرات بكل من فرنسا وتونس والجزائر والمغرب . عاجلت فيها عددا من أبرز القضايا المتعلقة بالتعليم ، وحتى بالسياسة في أقطار المغرب العربي .

وكان الأمر نفسه بالنسبة لجمعية الطلبة الجزائريين بالزيتونة ، فأظهر الطلبة من خلالها مدى ارتباطهم بقضايا وطنهم وشعبهم ، ودفاعهم عن مطالبهم المختلفة ، وقدرتهم على تحدي الإدارة الاستعمارية .

إضافة إلى هاتين الجمعيتين ظهرت العديد من الجمعيات الأخرى في صفوف الطلبة ، من بينها « جمعية الشباب السوفي الزيتوني » التي جمعت في صفوفها الطلبة والشباب القادمين من منطقة وادي سوف بالجنوب الشرقي الجزائري إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة.

فما هي عوامل ظهور هذه الجمعية ؟ وما هي أهدافها ؟ وما الخطوط العريضة لقانونها الداخلي ؟ ومن الأعضاء الذين قاموا بتأسيسها ؟ .

سنحاول تحليل هذه الأسئلة بالاعتماد على ما عثرنا عليه من وثائق استقيناها من مركز الأرشيف الوطني التونسي ، والتي نعتقد أنه لأول مرة يتم الكشف عنها.

أولا : عوامل ظهور الجمعية :

إن التغيرات التي كانت تعيشها الجزائر وتونس خلال فترة الثلاثينيات من القرن العشرين ، ساهمت في التحول الهام الذي شهدته الفئة الطلابية ، وهذا ما نلمسه من خلال انخراط الكثير منهم في تشكيلات الحركة الوطنية إذ شكل الطلبة الخزان المكون لها بمختلف أطيافها ، سواء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، أو حزب الشعب الجزائري أو الحزب الشيوعي وغيره.

ويعد توجه الطلبة للدراسة بتونس مظهرا من مظاهر هذا التحول ، فهؤلاء لم يكن خروجهم للدراسة في الزيتونة لتلقي العلم فحسب ، بل تجاوزوا ذلك إلى النشاط الصحفي والنقابي والاجتماعي وغيره. ومن الطبيعي أن ظهور جمعية أي كانت لم يكن بمحض الصدفة ، بل كان نتيجة لعوامل عدة ، ولذا فإن ظهور جمعية الشباب السوفي الزيتوني ليشذ عن هذه القاعدة. ومن العوامل التي أدت إلى ظهورها .

1 - تزايد الطلبة السوافة بجامع الزيتونة :

يقف وراء تواجد وتزايد الطلبة المنحدرين من منطقة وادي سوف بجامع الزيتونة أسبابا عدة ، لعل من أهمها القرب الجغرافي فهذه المنطقة منطقة حدودية مع تونس فهي على سبيل المثال لا تبعد عن مدينة توزر إلا بحوالي مائة وعشرون كيلو مترا تقريبا .

إضافة على هذا توفر الرغبة في الاستزادة من العلم ، فمن المعروف أن انتشار التعليم القرآني في وادي سوف كان ولا يزال واسع الانتشار في المساجد والزوايا ، فهو يلقي روجا واسعا واهتماما بالغاً لدى السكان وأبنائهم . أكد على ذلك الكاتبة الفرنسية - سيلي ميللي - بقولها : « ... وليس غريبا أن نجد واحدا من عشرة يحفظ القرآن كله ، بينما في باقي إفريقيا الشمالية فإن هذه المعرفة خاصة بالطلبة وبعض الخواص ن نسبة واحد في الألف.... »⁽¹⁾. وأثنى على ذلك الشيخ حمزة بوكوشة⁽²⁾ حين تحدث عن ظاهرة انتشار التعليم القرآني في وادي سوف خلال الثلاثينيات من القرن الماضي بقوله : « ... حتى لا تكاد تجد بسوف أميا ، لأن التعليم منتشرا فيها انتشارا ... » .

زيادة عما سبق فإن زيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس للمنطقة وحثه للطلبة على الذهاب على الزيتونة كان أمرا محفزا على توجه العديد منهم إلى هنالك ، وأدكت روح النهضة في المنطقة ، ونتيجة لذلك سافر العديد منهم إلى تونس

للدراسة في جامع الزيتونة ، وكان هؤلاء الشباب يعودون في صيف كل عام فيتصلون بشباب جدد ينشرون بينهم أفكارا جديدة ، فكان عددا الذاهبين يزداد في خريف كل سنة ⁽³⁾.

2. تنامي الوعي لدى الطلبة :

وجود الطلبة بجامع الزيتونة ، مع ما كان يشهده هذا الجامع من حركية علمية وفكرية ، ساهمت في تفتيق أذهان الطلبة الذين قصدوه للاستزادة من العلم فقط . لكن وجودهم إلى جانب الطلبة من الأقطار الأخرى ، واختلاف المشارب لديهم ، ثم نمو الحركة السياسية الوطنية في تونس ذاتها ، والتي لها ارتباط بالمسجد الكبير دون شك كان لها تأثير عن تطور الوعي لدى الطلبة الدارسين به. ⁽⁴⁾.

فجامع الزيتونة كان فيما يمكن أن نصفه بعنفوان قوته وتوجهه بعد تولي الشيخ محمد الطاهر بن عاشور شؤون إدارته ، والمشايخ المدرسين أصبحوا يحتلون مكانة مرموقة على الساحة السياسية والاجتماعية والثقافية بالبلاد ، فضلا عن طلبتهم الذين لا نغالي إذا قلنا إنهم يمثلون أكبر كتلة شبابية مسيسة ومؤطرة ثقافيا واجتماعيا على الساحة التونسية ، والقوة التي تحسب لها كل الأطراف السياسية ألف حساب. ⁽⁵⁾.

3. ظهور الجمعيات الممثلة للطلبة بين الزيتونيين :

عرف جامع الزيتونة العديد من الجمعيات التي تمثل الطلبة الدارسين به ، تنوعت حسب الفئات التي تمثلها ، وحسب الأهداف التي أنشأت من أجلها .

فقد ظهرت جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين سنة 1933 لتمثل كل الطلبة الجزائريين سواء من بعثات جمعية العلماء أو المنتمين إلى غيرها ⁽⁶⁾.

وإلى جانبها نجد المجمع العام لجميع الطلبة الذي تأسس يوم 15 نوفمبر 1936 بمشاركة طلبة الجامع الأعظم وفروعه : الخلدونية وتلامذة المعاهد الثانوية والمدارس

الابتدائية العليا ، ومدرسة اللغة والآداب العربية ومدرسة الحقوق التونسية ، ويتمثل دور هذه الجمعية في تجميع الأنشطة ، والدعاية الوطنية الطلابية⁽⁷⁾.

وشبية شمال إفريقيا الموحدة التي أسسها محمد العيد الجباري⁽⁸⁾ في فيفري 1938 بهدف توحيد الشباب الوطني في الأقطار المغربية الثلاثة ، وجمعية إعانة الضعفاء الطلبة ، التي ترمي على إعانة طلبة الجامع الأعظم ماديا ومعنويا ، وهناك عدد آخر من الجمعيات الزيتونية ، مثل : الوداديات التي كانت موجودة بالعاصمة وتضم طلبة الجامع الأعظم حسب المناطق التي ينتمون إليها ، ونخص بالذكر منها : الرابطة الفهرية الزيتونية ، والرابطة الثقافية لطلبة الجريد ، والجمعية الزيتونية بالكاف ، واللجنة الزيتونية الصفا قسية ، والاتحاد الثقافي لطلبة مجاز الباب ، والأمل الزيتوني السوسي ، والشبية الزيتونية بتطاوين ، والاتحاد الثقافي لعمل قابس وغيرها⁽⁹⁾.

إن وجود هذه الجمعيات بالصفة المحلية التي تحملها حسب المناطق التي ينحدر منها الطلبة ، أدت بالطلبة القادمين من وادي سوف على الانتباه لضرورة تأسيس جمعية خاصة بهم تجمع في صفوفها الشبية السوقية .

ثانيا : مبادئ وأهداف الجمعية وقانونها الداخلي :

إن الوثائق الأرشيفية التي حصلنا عليها ، تقر بأن نشأة وظهور هذه الجمعية كان وفقا للمرسوم الصادر في شهر أوت 1936 ، الخاص بالجمعيات ، وأن تاريخ ظهورها كان في شهر ماي من سنة 1937. وأن هدفها هو تكوين علاقات وطيدة وأخوية بين المنضمين إليها ، وإرساء علاقات حميمة بين الدارسين في الجامع الكبير⁽¹⁰⁾.

أما عن طبيعة الجمعية فإنها طلابية خالصة وليس لها أي ارتباط سياسي⁽¹¹⁾.

هذا ما يبين أن هذه الجمعية حاولت الابتعاد عن ما يعرقل سيرها ، خاصة وأنها ظهرت في ظرف كانت الأوضاع في القطر التونسي تشهد اضطرابا ، وكانت بؤادر الحرب العالمية الثانية بدأت تلوح في الأفق العالمي .

ومن خلال قانونها الداخلي نجد أن المادة الثالثة منه تنص على أن الأعضاء النشطين يتم اختيارهم منت بين المتدرسين ، أو من الأشخاص الراغبين في النشاط وفق ما حددته الجمعية من مبادئ وأهداف⁽¹²⁾.

وهذا ما ينطبق على التسمية التي تحمل اسم الشباب فلو كانت طلابية محضة لما حملت هذه التسمية ، ولذا يظهر أن الغرض من ذلك هوز تجنيد اكبر عدد من أهل منطقة سوف المتواجدين بتونس خاصة الشباب منهم .

ويتحدث القانون الداخلي عن ميزانية الجمعية التي تضمنتها المادة الرابعة ، والتي تقر بأن صندوق الجمعية يتكون من اشتراكات الأعضاء والمتسبين . ولقدت حددت هذه المادة مبلغ الاشتراك ب : 24 فرنك كاشتراك سنوي ، ويضاف إلى ذلك ما تتلقاه الجمعية من هبات⁽¹³⁾.

ولذا فإن هذه الجمعية التي تأسست من مجموعة من الشباب الجزائريين القادمين من منطقة وادي سوف ، الذين جاءوا لواصللة الدراسة بالانضمام على المسجد الكبير ، تكون قد حددت لنفسها جمع شمل هؤلاء الطلبة والدفاع عن مصالحهم المرتبطة بالجانب الدراسي والاجتماعي .

ويتضمن قانونها الداخلي كيفية تشكيل مكتبها والذي يتألف من المناصب الإدارية التالية :

الرئيس - نائب الرئيس - الكاتب العام - الكاتب المساعد - أمين المال - مساعد أمين المال - عددا من الأعضاء .⁽¹⁴⁾

ثالثا. نبذة عن المكتب الأول للجمعية :

تألف أول مكتب لجمعية الشباب السوفي الزيتوني من الشخصيات التالية :

1- الرئيس : عبد الرحمان بن أحمد بن لخضر : جزائري ولد بواد سوف ، عمره عند تأسيس الجمعية ثلاثون سنة ، طالبا بالمسجد الكبير ، أرسل من طرف

والديه ، درس بالمدارس القرآنية بالوادي ، عمل مع والده في الفلاحة بسوف ، في 1927 انتقل إلى تونس لمواصلة دراسته بالمسجد الكبير ، يقطن - حينها - في 49 شارع عبد الوهاب بالمدرسة الحبيبية ، حسب التقارير الفرنسية ، سيرته نظيفة وليس له أي سوابق في النشاط الوطني ن معروف لدى مصالح الأمن.⁽¹⁵⁾

2- نائب الرئيس : محمود بن محمد بن أحمد المناعي :

جزائري من وادي سوف ، ولد حوالي 1901 ، من محمد وعائشة بنت الحاج احمد ، متزوج من الشاذلية بنت الصغير ، لديه ولدين ، تاجر مقيم ب : 9 شارع سيدي الجلبيزي ، تربى عند والده حيث التحق بالمدرسة القرآنية بمقر إقامته ، ثم تابع دروسه في المدارس الفرنسية العربية ، وعندما كان عمره 17 سنة أبدى رغبة في مغادرة المدرسة ، فاشتغل نجارا حوالي ثلاث سنوات وفي مساعدة والده في الفلاحة بسوف في 23 ماي 1930 قدم إلى تونس لمواصلة دراسته في المسجد الكبير وفي 1932 عمل سائقا في الترمواي بتونس ، وحاليا هو تاجر في الزيوت ، ليس له أية نشاط وطني سابق⁽¹⁶⁾.

3- الكاتب العام : مصباح بن الطيب : جزائري ولد بالوادي عمره 25 سنة ، طالب بالمسجد الكبير ، مقيم بمدرسة الهواء ، تكون على يد والده ، تر على المدرسة القرآنية بمدينته التي ولد بها ، ثم التحق بتونس لمتابعة دروسه بالمسجد الكبير ، ليس لديه أي نشاط في المجال الوطني.⁽¹⁷⁾

4- الكاتب المساعد : العيد بن الأطرش : جزائري ولد بسوف خلال 1911 ، طالبا بالمسجد الكبير ، تكون على يد والده وتردد على الكتاب بسوف ، قدم إلى تونس منذ سنوات ، لمتابعة دروسه بالمسجد الكبير ، سيرته الذاتية جيدة .⁽¹⁸⁾

5- أمين المال : عمر باري : أصله من قالمة نشأ لدى عائلته قدم إلى تونس منذ عشرون سنة ، تردد على المسجد الكبير ، وحصل منه على شهادة التطويع ،

حاليا يشتغل تاجرا في الصوف ، مقيم ب : 9 شارع الجليزي ، غير معروف. سيرته سيئة⁽¹⁹⁾.

6- مساعد أمين المال : عبد الحق بن علي : جزائري أصلا من الوادي ، نشأ على يد والديه ، تردد على المدرسة القرآنية لمدينة ميلاده ، قدم إلى تونس منذ سنتين بهدف مواصلة دروسه في المسجد الكبير ، ومنذ الإضراب الأخير أصبح يتردد على الجامعة ، مقيم ب : 9 شارع الجليزي ، ليس عليه أية ملاحظة مرفوضة .⁽²⁰⁾

7- الأعضاء :

- يوسف بن إبراهيم : 24 سنة .
- الطاهر علالي : 23 سنة.
- بشير بن عثمان : 28 سنة .
- محمد الصالح الطيب : 29 سنة .
- عثمان بن أحمد بن إبراهيم : 24 سنة .
- بالقاسم بن حمد بن محمد : 20 سنة .

كلهم جزائريون أصلا من وادي سوف قدموا منذ حوالي سنوات إلى تونس لمتابعة دروسهم بالمسجد الكبير ، أكثرهم عاد إلى الدراسة منذ الإضراب الأخير في نفس المؤسسة⁽²¹⁾.

نلاحظ من خلال ما جاء في القانون الداخلي لهذه الجمعية أنها قد حددت أهدافها التي على رأسها مساعدة الطلبة القادمين إلى تونس من منطقة وادي سوف ، والتكفل بانشغالاتهم المختلفة بغية توطيد العلاقات بينهم ، وتقوية الروابط بينهم وبين غيرهم من الطلبة.

الخاتمة :

إن جمعية الشباب السوفي الزيتوني التي ظهرت بجامع الزيتونة بتونس ، تعتبر إطارا للم شمل الطلبة والشباب السوافة المتواجدين بتونس ، ولذا فإن الوثائق التي

استقينا منها المعلومات المتوفرة حولها ، تعطينا نظرة - ولو بسيطة - عن نشاط هذه الفئة وآفاقها . ثم الحرص الذي كان لديهم للقيام بتقديم الدعم والعون لبعضهم البعض سواء فيما يتعلق بالدراسة أو غيرها كالأمور المادية والمعنوية .

ولقد ساعد على ظهور هذه الجمعية كما بينا عددا من العوامل التي أدت لبروزها إلى الوجود ، والعوامل المذكورة لا يمكن فصل بعضها عن بعض ، فتزايد عدد الطلبة الدارسين بالزيتونة من جهة ، وتنامي الوعي لديهم من جهة أخرى ، وظهور الجمعيات وتكاثرها . كلها يعزى إليها التمهيد لميلاد هذه الجمعية .

فقد بينا القانون الداخلي المسير للجمعية ، وكيفية الانخراط في صفوفها ، وميزانيتها والأهداف التي رسمت لها ، وأعطينا نبذة مختصرة عن الأعضاء المشكلين للمكتب الأول لها .

ورغم الافتقاد للكثير من التفاصيل المكملة لمسيرة ومآل هذه الجمعية ، إلا أن هذه الوثائق أتاحت لنا الكشف عنها كجزء من نشاط الطلبة الجزائريين بتونس في المجال النقابي ، والاجتماعي .

الهوامش :

1- علي غنابزي ، مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13هـ/19م (مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر) ، جامعة الجزائر ، كلية العلوم الإنسانية : قسم التاريخ ، السنة الجامعية 2001/2000 ، ص 149 .

2- حمزة بوكوشة : ولد في شهر أكتوبر 1906 بوادي سوف ، دخل عند سن الخامسة المسجد لتعلم الكتابة والقراءة حفظ القرآن الكريم كله عند بلوغ 14 من العمر توجه بعدها إلى الزيتونة وذلك في سنة 1923 وانتظم في سلك الطلبة به . شارك في الكتابة الصحفية ، وبعد عودته صاحبه أبوه إلى الجزائر العاصمة وذلك في شهر سبتمبر 1930 وفيها تعرف على نخبة من العلماء ، وعندما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 5 ماي 1931 حضر تأسيسها وكان من أعضائها العاملين واشتغل بالتدريس وفي سنة 1936 انتدبه الشيخ عبد الحميد بن باديس للتدريس بالجامع الأخضر بقسنطينة ، ثم ترأس في جوان 1937 تحرير جريدة المغرب العربي بهران ، ثم عاد إلى قسنطينة ، وفي سنة 1944 أسندت له نيابة الكتابة العامة لجمعية العلماء ، وفي سنة 1948 عين في هيئة تحرير البصائر ، وعام 1950 باشر التدريس بفرع معهد ابن باديس ببلكور ، واعتقل من طرف السلطات الفرنسية وقضى سنتين في السجن . ولما استقلت الجزائر التحق بالتعليم الثانوي ، وسنة 1966 انتمى إلى معهد الحقوق كدارس فأحرز شهادة الليسانس وعين سنة 1972 مستشارا بالغرفة المدنية لوزارة العدل . وابتداء من 1980 اشتغل بالمهام حتى سنة 1988 عندما اعتزلها . وافته المنية ظهر يوم الجمعة 18 نوفمبر 1994 وشيع جثمانه بمقبرة القطار

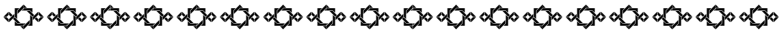
- بـالـجـزائـر العاصـمة يـوم السـبـت 19 نـوفـمـبر 1994 رـحـمـه الله. انـظـر: البـصـائر ، العـدـد 177، 02 _ 2004/02/09. والـعـدـد ، 179 ، 16. 2004/02/23.
- 3- مـحـمـد الصـالـح الجـابـري ، الأدب الجـزائـري فـي تـونس ، ط1 ، تـونس ، بـيـت الحـكـمـة ، ج1، 1991، ص 17. 18.
- وـكـذـلـك أبو القاسـم سـعـد الله ، مـتـطـلـقـات فـكـريـة ، تـونس ، الدار العـربـيـة للـكـتـاب ، 1974 ، ص44.
- 4- مـحـمـد السـعـيـد عـقـيـب ، الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجـزائـريـن ومـسـاهـمـتـه فـي الثـورـة ، (رسـالـة لـنـيـل شـهـادـة المـاجـسـتـير فـي التـارـيـخ الحـدـيـث والمـعـاصـر) ، جـامـعـة الجـزائـر ، كـليـة العـلـوم الإنـسـانيـة : قـسـم التـارـيـخ ، السـنـة الجـامـعيـة 2001/2000. ص 25 وما بعـدهـا.
- 5- عـلي زـيـدي ، دور الزيتونيين فـي الحـركـة الوطـنـيـة التـونـسيـة ، (1904- 1954) ، (أطـروـحـة دكـتـوراه فـي التـارـيـخ) ، كـليـة الأداب والعـلـوم الإنـسـانيـة ، جـامـعـة تـونس ، السـنـة الجـامـعيـة : 2001/2000، ج2 ، ص684.
- 6- مـحـمـد السـعـيـد عـقـيـب ، المـرجـع السـابـق ، ص 25.
- 7- مـخـتـار العـيـاشـي ، البـيـئـة الزيتونية (1900- 1945) ، (تعـريـب : حـمـادي السـاحـلي) ، تـونس ، دار التـركـي للنـشـر ، 1990 ، ص 137.
- 8- مـحـمـد العـيـد الجـبـاري : أصـلـه مـن وـلايـة قـسـنـطـيـنـة ولـد سـنـة 1911 ، سـاهـم مـسـاهـمـة كـبـيـرـة فـي الحـركـة الوطـنـيـة التـونـسيـة كـعـضـو مـسـؤـول عـن تـكوـيـن الشـيـبـة فـي الحـزب الحـر الدـسـتـوري التـونـسي ، مـنـذ سـنـة 1934. ولـذـلـك تـعـرض للـسـجـن والإبـعـاد سـبع مـرات ، وـكـان لـه نـشـاط وـاسـع فـي الصـحـافـة التـونـسيـة حـيـث نـشـر أشـعـاره ومـقـالـاته ، مـن مـولـفـاته : " الفـرائـد فـي العـلـم والأدب والـاجـتـماع " سـنـة 1937 ، وديـوان : " اللـهـيـب " الـذي نـشـر بـتـونس سـنـة 1974.
- 9- مـخـتـار العـيـاشـي ، المـرجـع السـابـق ، ص ص 137. 138.
- 10- مـركـز الأرشـيف الوطـني التـونـسي ، السـلـسـلـة E / ، العـلـبـة 509 ، المـلـف 252.
- 11- نـفـس المـصـدـر
- 12- نـفـس المـصـدـر
- 13- نـفـس المـصـدـر
- 14- مـركـز الأرشـيف الوطـني التـونـسي ، السـلـسـلـة E / ، العـلـبـة 509 ، المـلـف 252.
- 15- نـفـس المـصـدـر
- 16- نـفـس المـصـدـر
- 17- نـفـس المـصـدـر
- 18- نـفـس المـصـدـر.
- 19- نـفـس المـصـدـر.
- 20- نـفـس المـصـدـر.
- 21- نـفـس المـصـدـر.

دور عائلة الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف في الحركة الوطنية الجزائرية

بقلم

عاشوري قمعون

أستاذ مساعد مكلف بالدروس بقسم التاريخ
جامعة الوادي - الجزائر .



المخلص :

لعبت شخصية الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف دورا فعالا في مقاومة الاستعمار الفرنسي، كما اقتدى به ابنه محمد الهاشمي، شيخ الطريقة القادرية بسوف، وحفيده الشيخ عبد العزيز الشريف في دور مزدوج : في الحركة الإصلاحية، وفي الحركة الوطنية، وتنازل عن جميع أملاكه في البلاد التونسية لفائدة الثورة الجزائرية.

Résumé :

La personnalité du Cheikh Brahim Ben Ahmed Chérif a joué un rôle efficace dans la résistance contre le colonisateur français El-Hachemi, chef de ainsi que son fils M^{ed} la confrérie Kaderie dans le Souf , et Son petit fils Cheikh Abdelaziz dans un rôle bilatéral: dans le Mouvement Réformiste, Et Mouvement Nationaliste, et s'est désisté De tous ses biens sis en Tunisie, en faveur De la Révolution Algérienne.

مقدمة :

لعبت جل الطرق الصوفية دورا رائدا في نشر العلم والأخلاق الفاضلة في أوساط المجتمعات التي تنتشر بين أفرادها، كما قام البعض منها بدور سياسي حيال الاستعمار الفرنسي. والسؤال المطروح هو: هل وقف زعماء هذه الطرق الصوفية موقف المحاييد غير الآبه بما يجري في بلده من استعباد وظلم ناتج عن الوجود الاستعماري؟ أم أن هناك من هؤلاء الزعماء من حمل السلاح ووقف إلى جانب وطنه غير مهتم بما تدره عليه مكانته الدينية في أوساط أتباعه من أموال وعقار وأراض زراعية وأوقاف مختلفة ومتعددة؟ إن الشيخ إبراهيم الشريف - شيخ الطريقة القادرية في نفطة والوادي - قد اتصل به الأمير عبد القادر باعتبار أنهما ينتميان إلى نفس الطريقة الصوفية، والتمس منه أن يعمل على تجنيد أتباعه ومريديه في الناحية الجنوبية الشرقية من الوطن الجزائري، فقام الشيخ إبراهيم بهذه المهمة أحسن قيام، بل قد أقحم كل عائلته في الحركة الوطنية الشاملة. فمن هو الشيخ إبراهيم هذا؟ وما الدور الذي قام به شخصيا، وكذلك دور أبنائه وأحفاده؟

نسيبه :

هو الشيخ إبراهيم بن أحمد بن محمد بن عطية بن إبراهيم بن محمد بن إسماعيل بن عيسى ابن أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الله بن أحمد بن سيدي أحمد الغماري بن عبد الوهاب بن عبد السلام بن مشيش بن أبي بكر بن علي بن عيسى بن مزور بن حضير بن ضرار بن محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن أبي محمد الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب زوج فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ (1).

أصله :

يعود أصله الجزائري إلى قبيلة البوازيد العربية الهلالية المنتشرة بين فوغاله وبسكرة (2). ولد بنفطة عام 1229هـ/1813م (3). تركه والده صغيرا فتربى في أحضان جده من الأم وهو الولي الصالح سيدي بن ضيف الله فورث عليه الصلاح (4). وعندما كبر تلمذ على يد الشيخ أبي بكر الشريف دفين زاوية توزر القادرية. أسس زاوية نفطة عام 1251هـ/1835م، كما أنشأ زاوية المنعة بباتنة عام 1280هـ/1863م والمعروفة بزاوية بلعباس. ثم ذهب إلى البياضة جنوب الوادي والتي كانت بها زاوية

قادرية قديمة أسسها والده الشيخ أحمد بن محمد، وذلك من أجل وضع قواعد زاوية أخرى أمّها ابنه الشيخ محمد الهاشمي فيما بعد⁽⁵⁾.

تحالفه مع الأمير عبد القادر:

اتفق مع الأمير عبد القادر على عقد أحلاف مع القبائل المجاورة للحدود الجزائرية التونسية، حيث اتصل بجميع القبائل وتزوج من بعضها. لذا نرى أن عائلة الشيخ إبراهيم تنتمي لعدة مناطق مثل سوف وتبسه وسوق أهراس وعنابه والقصور وقبلي وقفصة وتوزر ونفطه وقابس وتونس وتغرة وكلها مرتبطة بنفس العائلة الشريفة. ولهذا ساعد الأمير عبد القادر في ثورته بناحية سوف وأمد المقاومة بقطع اللوز الذهبية⁽⁶⁾. كما كان يجتمع بقبائل سوف تحضيراً للمعركة في القبة التي بناها الشيخ البكري في حي الزاوية بالرياح. وهكذا أرسل القائد بن ناصر ابن شهرة والشريف محمد بن عبد الله إلى الأغواط للانضمام للقبائل المنتشرة بين الأغواط وسيدي مخلوف⁽⁷⁾.

وقد قيل أن تأثير الشيخ إبراهيم قد وصل عام 1315هـ/1897م إلى غدامس وغات والجزائر وعين صالح وتوات وتيديكالت، وله أتباع في بلاد الطوارق وعلى رأسهم الشيخ عابدين الذي صار فيما بعد مقدم الشيخ محمد الكبير بن إبراهيم⁽⁸⁾. توفي عام 1292هـ/1875م بنفطة وضريحه مشهور بناحية رأس العين⁽⁹⁾.

أبناءؤه وأحفاده:

ترك الشيخ إبراهيم عددا كبيرا من الأولاد بلغ عددهم 13 ولدا ذكرا. كما خلف فاطمة وسكينة ومسعودة وهي أكبرهن، سماها باسم أمه، وقيل ماتت وعمرها 115 سنة⁽¹⁰⁾.

تقاسم الأولاد بركة أبيهم على النحو التالي:

1) الأكبر منهم وهو محمد تولى تسيير شؤون الزاوية الأم بنفطة. وأخذ المشيخة القادرية بالقطرين الجزائري والتونسي. وكانت حياته مشهورة بكرم الضيافة وإطعام الطعام والحث على أداء الصلاة وضرب تاركها من الطلبة والعائلة وحتى الجيران. كما كان يحث على حفظ القرآن الكريم والعلم. وكان مهابا محترما لدى أوساط السلطة الاستعمارية، تجول بتونس وبالجنوب الجزائري ووصل إلى سوف وورقلة.

ترك ثلاثة أبناء : المكي وهو الأكبر ، وإبراهيم الذي تولى أمر الزاوية وشؤون الطلبة ، وظهرت على يديه كرامات بالرغم من إدمانه على شرب الخمر. بالإضافة إلى الرشيد.

ترك المكي أبناء عاشوا عيشة مرضية ، كما خلف الرشيد ابنا واحدا اسمه محمد المكي الشيخ الحالي لزاوية نفطة.

(2) والابن الثاني هو الشيخ محمد العربي الذي ورث الصلاح على والده ، وقد نازع أخاه محمد الكبير لإصلاح الزاوية ، وعندما أصلحت حسم النزاع. وقد ترك ابنا اسمه أبو القاسم ورث الصلاح عنه ، بالإضافة إلى كونه شاعرا عالما كريما.

ذهب الشيخ محمد العربي إلى قفصه وأسس بها زاوية بالعسالة ، وهو مدفون فيها.

وترك أبو القاسم ابنين هما : علي والجيلاني ، وقد عمرا بسيدي بوزيد وسارا سيرة مرضية مشهورة بكرم الضيافة. وعائلتهما تحظى باحترام كبير⁽¹¹⁾.

(3) أما الشيخ محمد الحسين فقد أسس أولا زاوية بقمار شمال الوادي ، وأسلمت على يديه الكاتبة الشهيرة إيزابيل إيبيرار Esabelle Eberhardt ، ولما اختلف مع العالم الإصلاحية عمار الأزعر انتقل إلى قبلي بتونس وأنشأ زاوية أخرى هناك وأنجب أولادا ما زال أحفادهم موجودين. مات بقبلي ودفن بزاوية سوق الأحد⁽¹²⁾.

(4) أما الشيخ محمد الأزهر فقد عمر الزاوية التي بناها والده الشيخ إبراهيم بأبه قصور قرب مدينة الدهماني بوسط الإيالة التونسية. ترك أولادا وتوفي بالزاوية ودفن بها. كما دفن معه إخوته الثلاثة : الكيلاني وهو عالم وشاعر بالفصحى والعامية ، وترك بنتين. أما النوري والمداني فلم يعقبا⁽¹³⁾.

(5) أما سيدي علي فقد عمر زاوية الدير برأس العيون بولاية تبسة وكان واقعا ومتصلبا مع قول الحق ، كما كان يحفظ شيئا من القرآن. ترك ابنا اسمه بشير ولد عام 1898م وتوفي عام 1990م ، كما ترك ابنا آخر اسمه الطاهر. توفي سيدي علي عام 1934م ، ودفن بضريحه بالدير. ومن أحفاده الحاليين الشيخ الأزهر بن بشير وهو معلم متقاعد برأس العيون. وعبد الجليل بن الطاهر وهو مجاهد ومحام بمدينة

قسنطينة. بالإضافة إلى احمد بن محمد بن علي ، وهو مدير إكمالية طريق عنابة بتبسة⁽¹⁴⁾ .

6) والشيخ الحاج أحمد - وأمه أمة سوداء⁽¹⁵⁾ - ، فقد عمر زاوية بقابس ثم انتقل إلى تبسة وأسس زاوية أكس بالحمامات. ترك أولادا منهم الشيخ الإمام ، وكلفتهم الحكومة الفرنسية العامة بمهمة في غدامس. وهو الآن مدفون بضريحه بأكس الواقع جنوب شرق البلدة⁽¹⁶⁾ .

7) وأسس الشيخ محمد الإمام زاوية بالرياح جنوب الوادي ولكنه لم يشتهر بسبب قوة شخصية أخيه محمد الهاشمي من جهة ولكونه مات في سن الأربعين(1904) من جهة أخرى.

ترك أولادا منهم محمد الأمين وإبراهيم ومحمد الأخضر⁽¹⁷⁾ .

8) أما الشيخ محمد الطيب فإن أمه من شعانة متليلي لهذا نلاحظ أنه جاء إلى ورقلة وأسس زاوية بالرويسات⁽¹⁸⁾ . وقد رافق بعض الرحلات الاستكشافية لجنوب الصحراء ومنها رحلة بول سوليه Paul Soleillet عام 1873 انطلاقا من متليلي نحو عين صالح.

وقد قام الشيخ محمد الطيب برحلة في نحو عام 1885 من ورقلة إلى غدامس وكتب وصفا لرحلته وتركه عند أخيه محمد الكبير بزاوية نقطة ، وهذا المخطوط الصغير هو الذي ترجمه أحد الفرنسيين من العربية عام 1898 حيث يقول إنها - أي الرحلة - هامة جدا ، فهي بالإضافة إلى حديثه فيها عن المراحل التي سذكرها ، يتحدث أيضا عن الكتابات اللوية أو اللبية القديمة والآثار الرومانية على طول الطريق. أما المراحل فهي : حاسي الغنامي ، فحاسي أولاد صالح ، فحاسي الدوي ، فالحاسي الأخضر. وقد باتوا في زاوية مسجد سيدي ماهد(كذا) غير البعيد عن غدامس. وقد وصف غدامس وأبوابها السبعة والآثار الرومانية فيها. ومكثوا فيها ثمانية عشر يوما وقطعوا بعد ذلك جبال أقبو والهامل وعبروا بثرأ وشجرة تسمى الطابية ، ثم زريمة وبعد حوالي ثمانية عشر يوما في السير وصلوا غات وكانت تضم 300 ساكن حضري و250 من الطوارق يسكنون حولها. وقد جاء في الرحلة وصف حي للآثار والطريق والجبال والرمال والحيوانات والمياه. ثم توجهوا من غات إلى حدود تونس ، وبالذات في تطاوين ، وهناك وجدوا ضابطا فرنسيا فسلمه الشيخ

محمد الطيب المقبوض عليهم في مسألة دي مورييس. والجزء المترجم من الرحلة لا يعدو عشر صفحات، ولا يعرف إن كان ذلك هو كل ما كتبه محمد الطيب أو أن المترجم جورج باري Barry قد اختصر المخطوط⁽¹⁹⁾.

كما شارك في رحلة أخرى في خريف عام 1899م بقيادة الأستاذ فلامون Flumand بهدف اكتشاف منطقة تادمايت والتعرف على أحوالها الجيولوجية والنباتية وإمكانيات مياهها الجوفية وغيرها، غير أنها تحولت في الأخير إلى حملة عسكرية شرسة. وكان مع الشيخ محمد الطيب أربعون مهريا. غادرت البعثة مدينة ورقلة يوم 1899/11/28 متوجهة نحو عين صالح، ولما تفتن سكان عين صالح إلى نوايا هذه البعثة استعدوا للمقاومة، وقتل الشيخ محمد الطيب في قرية شروين القريبة من تيميمون عام 1901م ونقل جثمانه إلى مدينة ورقلة حيث دفن بالرويسات بزاويته المشهورة بالكرم وإطعام الطعام وتدريس الطلبة القرآن الكريم ومبادئ الفقه الإسلامي⁽²⁰⁾.

(9) كما كان للشيخ إبراهيم ابن آخر اسمه عبد القادر ذهب إلى تلمسان وتوفي هناك⁽²¹⁾.

(10) أما أشهر أبناء الشيخ إبراهيم فهو بلا منازع الشيخ محمد الهاشمي الذي ولد بنفطة عام 1853م من أم جزائرية من عميش جنوب الوادي اسمها أم هاني بنت الحم التي تزوج أخوه محمد الكبير أختها وتدعى مسعودة⁽²²⁾.

(23) حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة وتعلم أصول وقواعد الفقه بتونس، جاء صغيرا إلى سوف وترى في أحضان أمه بالبياضة حيث تزوجت محمد عبادي وأنجبت منه الطاهر وغيره. أسس زاوية البياضة في حوالي عام 1298هـ/1880م. وعند وفاة أخيه محمد الطيب عام 1901م، ذهب إلى الرويسات لتنظيم شؤون العائلة ولتعمير الزاوية هناك، فوجد السكان في حالة مجاعة بسبب السياسة الاستعمارية التي كانت تشجع الفساد بفتح دور البغاء وابتعد الشباب عن القيام بأمور دينهم، كما يتوجب عليهم التجنيد في الجيش الفرنسي لضمان لقمة العيش. وهكذا نلاحظ أن الشيخ أمر بنصب أباريق الشاي وتقديم خبزة مع الشاي لكل مصل يأتي لصلاة الصبح، وبذلك صار الناس يقبلون على الصلاة ويدخلون الطريقة القادرية وامتنعوا عن التجنيد، فاجتمع القياذ السبعة بورقلة مع الحاكم

وطلبوا منه طرده فاستدعاه العقيد الفرنسي وأعطاه مهلة 24 ساعة لمغادرة ورقلة ،
وبذلك رجع الشيخ إلى الوادي بعد قضاء ثمانية أشهر هناك⁽²⁴⁾ .

أعطى للطريقة القادرية اتساعا مضطردا في الصحراء ، فوصل نفوذها حتى
توات وتيميمون وغات وغدامس⁽²⁵⁾ .

كان الشيخ محمد الهاشمي ذكيا جدا وسخيا جدا ، يحترم أهل العلم ، وقد
اعتبره الفرنسيون بأنه شخصية جذابة ولكنها « متعبة » لهم لطموحه وتقلباته في
نظرهم.

كما كان للشيخ الهاشمي مراسلات مع الزعيم الليبي سليمان الباروني باشا
أثناء حرب طرابلس 1911-1912 والذي كان قد اتصل به في زاويته وطلب منه «
الفاخرة » أي البركة ، والإجابة السريعة عما طلبه منه⁽²⁶⁾ . وفعلًا جهز الشيخ
الهاشمي حملة عسكرية على نفقته الخاصة مؤلفة من حوالي 300 فارس بقيادة ابن
أخيه محمد الأمين بن الشيخ محمد الإمام ، وتوجهت الحملة نحو ليبيا لمقاومة
الاحتلال الإيطالي⁽²⁷⁾ ، حيث كان يقود المقاومة عبد الرحمان عزام باشا إلى
جانب أنور باشا والأمير علي بن الأمير عبد القادر.

ومن الملاحظ أن الشيخ الهاشمي كان معدودا عند سليمان الباروني من أنصار
الدولة العثمانية المتحمسين ، ومعنى ذلك أنه كان في نظر الفرنسيين من أنصار
حركة الجامعة الإسلامية.

وتظهر الأبحاث الجديدة أن الشيخ محمد الهاشمي قد استطاع أن يجند كثيرا من
الأتباع لطريقته خلال الحرب العالمية الأولى ، وسبب نجاحه يعزى إلى معارضته منع
الفرنسيين المتاجرة مع غدامس⁽²⁸⁾ .

رأي الشيخ ابن باديس في الشيخ الهاشمي :

« كان الشيخ الهاشمي شيخ الطريقة القادرية - رحمه الله - رجلا ذكيا ، واسع
الحيلة ، بعيد النظر. أدرك بثاقب فكره أن ما عليه الطريقة من الجهل والجمود لا
يمكن أن يستمر طويلا ، وأن المستقبل للعلم لا محالة ، فولى وجهه شطر العلم ،
وقدم أبناءه لجامع الزيتونة المعمور ، وحبس أملاكه كلها على العلم ، واشترط في
حبسه أن تعمر زواياه بأهل العلم من أئمة ومدرسين ومتعلمين. واشترط في أبنائه

أن لا حظ لأحد في الحبس إلا إذا حصل على شهادة التطويع من جامع الزيتونة. وجعل الإشراف على الحبس لنظارة جامع الزيتونة. وبنى عمله هذا على أن أملاكه هي أول للمسلمين فلتعد بالنفع على المسلمين، فكان عمله هذا لم يسبقه إليه أحد من أمثاله. انتهى أمر الحبس إلى الشيخ عبد العزيز بمقتضى شرط الحبس، وتولى مشيخة القادرية⁽²⁹⁾ .

انتفاضة الشيخ الهاشمي في 1918/11/15 :

احتاجت فرنسا في أواخر الحرب العالمية الأولى لليد العاملة لمصانعها لأن أغلب رجالها كانوا في واجهة الحرب. فطلبت الحكومة من القياد بأن يجمعوا لها كل من هو صالح للعمل من الكهول والشباب. وكان قانون التجنيد الإجباري لا يشمل سكان الجنوب. وعندما جاء هذا الخبر إلى القياد وباشروا تنفيذه ضج الناس من ذلك. وبدا لهم أن هذا تجنيد لجبهة القتال. واتصل أحد الأعيان بالشيخ الهاشمي وأطلعه على رسالة من الحاكم العسكري موجهة إلى كافة القياد تلزمهم بإرسال الشباب والكهول إلى بيرو عرب (المكتب العربي) ليسجلوا أنفسهم في قائمة الزاهبين إلى فرنسا لأن الدولة في حاجة إلى اليد العاملة، فنزل هذا الخبر كالصاعقة على الشيخ ومن معه، ورفض الناس أو أغلبهم هذا الطلب، وزج بالبعض منهم في السجن. ووقعت ضجة في الوادي وضواحيها، واتصل الشيوخ والعجائز بالشيخ الهاشمي الذي ذهب إلى الحاكم وحذره من العواقب الوخيمة لأن السكان في الجنوب معفون من التجنيد، ولما لم يجد أذنا صاغية من الحاكم، أوعز إلى مقاديمه بالقيام بمظاهرة شعبية تنطلق من عميش ليلا وتتوجه إلى مقر الحاكم. ووقعت المظاهرة وشارك فيها الجميع وصار الهتاف الجماهيري « لا نموت لفرنسا، نموت هنا⁽³⁰⁾ ». وهناك من هتف للجهاد واسمه فرجاني محمد بن بالقاسم (حمه إياسه⁽³¹⁾). كما راسل الشيخ الهاشمي السلطان العثماني في تركيا باعتبار أن سوف جزء من الخلافة الإسلامية⁽³²⁾ .

استيقظ الحاكم على هذا الهتاف واتصل بالشيخ الهاشمي طالبا منه تهدئة الجماهير، واتجه الشيخ صحبة الحاكم النقيب « بواز » لما يسمى بغوط الغاوي حيث وصلت الجماهير إلى هناك باتجاه السجن لإطلاق سراح المعتقلين، واتفق الشيخ مع الحاكم على أن يطلق سراح المعتقلين. وفي اليوم الموالي استدعي الشيخ إلى تقرت

بواسطة رئيس ملحقة الوادي « بواز » وعندما وصل أشعره الكومنده رئيس دائرة تقرت بأن القبطان بواز يجزم بما ثبت لديه أن المظاهرة وقعت بوجي منه ، فأنكر الشيخ فأخبره الكومنده بأن الأمر يتجاوزوه وهو الآن مستدعى إلى الولاية العامة بالجزائر⁽³³⁾.

ذهب الشيخ إلى الجزائر وألزم بالإقامة الجبرية بالجزائر العاصمة لينقل بعد ذلك إلى سجن بسكرة ومنه إلى سجن الكدية بقسنطينة. ريثما يقف أمام المحكمة العسكرية التي أصدرت ضده فيما بعد الحكم بالنفي من الوادي لمدة سنتين⁽³⁴⁾. وبعد المحاكمة تم نقله إلى سكيكدة فكون فيها زاوية ومسجدا مازال موجودا تحت اسم "مسجد 20 أوت 1955". وبعد ثمانية أشهر حكم عليه بالخروج من سكيكدة وأرسل إلى الأغواط فكون فيها زاوية أيضا. وبعد أربعة أشهر كاملة تم نقله إلى تقرت فكون الزاوية الهاشمية بها عام 1920. وفي هذه الفترة رأى الحاكم العام الفرنسي في الجزائر أنه من الحكمة حصر نشاط هذا الرجل في مدينته، فأمر بإعادته إلى الوادي حتى لا تتوسع عملية إنشاء الزوايا الهاشمية التابعة للطريقة القادرية⁽³⁵⁾. وكانت هذه العودة في شهر جويلية 1920. وقد خرج يومها سكان المنطقة لاستقباله وخصوه باحتفال منقطع النظر. غير أن المنية عاجلته فتوفى يوم 1923/09/23 ودفن بالبياضة. وخلفه أذكى أبنائه وأشجعهم. وهو الشيخ عبد العزيز الشريف⁽³⁶⁾. والغريب في الأمر أن التاريخ أهمل حادثة الشيخ الهاشمي التي تسمى في المنطقة بـ "هدة عميش" أو "هدة الشيخ معمر" غير أن شاعر الثورة مفدي زكرياء قد خلدها في إلياذته حيث قال :

ويا وادي سوف العرين الأمين ومعقل أبطالنا الثائرين

ودرب السلاح لأوراسنا وقد ضاقت السبل بالسالكين

وضرغامها الهاشمي الشريف يذيق « بواز » العذاب المهين

وكم كان سوف لضم الصفوف وجمع الشتات الحريص الضمين⁽³⁷⁾

ترك الشيخ محمد الهاشمي عددا من الأبناء منهم : إبراهيم ، الطيب ، عبد الرزاق (تولى المشيخة مدة ستة أشهر ثم مات) ، عبد العزيز ، عبد القادر ، محمد الصالح⁽³⁸⁾.

الشيخ عبد العزيز الشريف :

ولد عام 1898م بزاوية والده بالبياضة ، وكان توأما لأخته ، كما أنه الابن الثالث للشيخ الهاشمي ، يتصف بالفطنة وسرعة البدهة ، حيث حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة حفظا جيدا ، ثم غادر الوادي ليلتحق بجامعة الزيتونة عام 1913. وكان أول الناجحين من بين أقرانه ، إذ تحصل على شهادة التطويع بامتياز ، وعاد إلى الوادي عام 1923 فأستخلف أخاه بعد وفاته وصار شيخا للطريقة القادرية في سوف مع ملحقاتها في كل من تقرت وبسكرة وسكيكدة والجزائر العاصمة.

كما كان يقوم بالإشراف على شؤون العائلة وعلى إخوته الذين يزاولون تعليمهم بجامعة الزيتونة⁽³⁹⁾.

قال الشيخ ابن باديس في عبد العزيز ما يلي : « وفي السنة الماضية (1937) قبل الاجتماع العام كاتبني يرغب مني الانخراط في جمعية العلماء ، فأجبتة بأن الجمعية مفتحة الأبواب لجميع المسلمين ، وأن الجمعية تأسست ، وفي المؤسسين لها جمع كثير من شيوخ الطرق ، وأن القانون الأساسي الذي وضع باتفاق الجميع ما زال معتمدا هو نفسه. فلما كان الاجتماع العام رشح للمجلس الإداري بصفته عالما وشيخا للطريقة القادرية ، فانتخب بما يقرب الإجماع⁽⁴⁰⁾ . »

طلب الشيخ ابن باديس من الشيخ الطيب العقبي أن يقدم الشيخ عبد العزيز إلى الحاضرين في المؤتمر السنوي العام لجمعية العلماء المنعقد يوم 1937/09/24م ، فقال : « الشيخ عبد العزيز كان من شيوخ الطرق ، أما اليوم فيجب أن تعرفوه بأنه جندي من جنود الإصلاح ، ومن أعضاء جمعية العلماء . »

ثم أحييت الكلمة إلى الشيخ عبد العزيز الذي أبدى تأسفه لتأخره عن الانضواء تحت لواء الجمعية ، ووعد بأنه سيبدل كل مجهوداته في خدمة الإصلاح ، وتبرع لهم بمبلغ 25000 فرنك وهو مبلغ هام في ذلك الوقت⁽⁴¹⁾ .

وقال الشيخ عبد العزيز : « إن الطرق بدعة ، لا أصل لها في الدين ، فحسبكم التمسك بالكتاب والسنة . » وقال أيضا : « أنظروا أيها الإخوان إلى الفرق بين العلماء وشيوخ الطرق ، العلماء أتوكم مجتمعين لتبليغ العظات ، وشيوخ الطرق يأتونكم متفرقين للسباق لأخذ الزيارات. الطرق شتتكم وأضرت بكم في دينكم

ودنياكم، والعلماء يريدون إرجاعكم إلى الكتاب والسنة وتعليمكم العلم الصحيح⁽⁴²⁾»

لقد رتب الشيخ عبد العزيز زيارة لوفد من جمعية العلماء بقيادة الإمام ابن باديس في ديسمبر 1937 لتدعيم نشاطه وتكريس أفكار الحركة الإصلاحية في المنطقة، وكان من ضمن أعضاء الوفد: الشيوخ محمد خير الدين، والعربي التبسي، ومبارك الملي، وحمزة بوكوشة⁽⁴³⁾. وقد كان لهذه الزيارة الأثر العميق عند الشيخ عبد العزيز دفعته لتكثيف نشاطه وتنقلاته عبر القرى والمداشر شمالا وجنوبا.

كما نظم الشيخ عبد العزيز زيارة للشيخ الفضيل الورتلاني إلى الوادي في آخر شهر جانفي من عام 1938، وكان هذا الشيخ يتقد حماسا بمواقفه الصريحة ونقده اللاذع، مما أغضب الحاكم الفرنسي رئيس ملحقة الوادي القبطان روبير تيريه Robert Thiriet وهو صاحب كتاب:

(Les Populations Musulmanes du Souf et leur évolution politique)

حيث بدأ يترصد خطوات الشيخ عبد العزيز ويضمّر له الشر، ولكن الشيخ لم يبال بملاحظات الإدارة المحلية، وزاد من تحركاته، وعقد عدة اجتماعات لفضح أعمال القياد وأعوان الإدارة الاستعمارية والمرابطين الذين يستغلون الشعب⁽⁴⁴⁾، وهذا ما دفع الحاكم إلى دعوة الشيخ عبد العزيز وطلب منه الرخصة، ورد الشيخ بأن الزوايا منذ القديم تعلم بدون رخصة، وتكرر الأخذ والرد في الأمر حتى كانت الكارثة كما سنرى لاحقا⁽⁴⁵⁾.

ومن جهة أخرى نلاحظ إعلان الشيخ عبد العزيز في نادي الترقّي بالجزائر يوم 1938/02/03 وذلك عندما انعقد مكتب جمعية العلماء، أنه مستعد للتبرع بمبلغ 300000 فرنك على الأقل في مشروع بناء جامعة إسلامية، أو معهد إسلامي يكون مقره مدينة بسكرة، وقد ارتاح كل من جمعية العلماء وبعض الصحف الوطنية، غير أن الإدارة الفرنسية لم ترتح لهذه المبادرة⁽⁴⁶⁾.

كما اهتم الشيخ عبد العزيز بتأسيس المدارس لنشر العلم والتعليم وفق مناهج جمعية العلماء، فحول جزءا من زاوية البياضة إلى أقسام للتعليم العصري، وفي شهر مارس 1938، وبعد بيع محصول التمر، وظف نقود هذه العملية في تهئية

زاوية الوادي التي شرع فيها أبوه منذ سنوات خلت ، لجعلها جامعة تستوعب أكثر من 500 طالب ، جزء منهم يخضع للنظام الداخلي. ولهذا الغرض جهزت قاعتان كبيرتان للمحاضرات ، و 20 غرفة فردية ، كما خزن لهم التمر والأرز. واستقدم لها أساتذة أكفاء من أمثال العلامة الشيخ محمد بن حمد من نفطة ، وجعله مدرسا بزاويته بالوادي. وكذلك جاء بالشيخ عبد القادر الياجوري ، والشيخ علي بن سعد خرن (من قمار). وقد استعان بهما في التدريس والدعاية إلى الإصلاح فازدهرت الحركة العلمية وقتذاك بالوادي ونواحيها مما أثار مخاوف السلطات الفرنسية⁽⁴⁷⁾.

موقف الإدارة الفرنسية من الشيخ عبد العزيز : (كارثة الوادي عام 1938)

تمكن الشيخ عبد العزيز يوم 1938/04/12 من جمع حوالي 12000 متظاهر أمام مقر الحاكم العسكري وذلك للتعبير عن استيائهم وتذمرهم لمدير الشؤون الأهلية الذي قدم إلى الوادي ، مما جعله يستقبل الشيخ لمدة ثلاث ساعات ، قدم الشيخ خلالها مطالب تدور حول :

- 1 - تدخل الإدارة الفرنسية في الشؤون الدينية للأهالي.
- غلق المدارس العربية الحرة والمساجد بدون مبرر.
- الاضطهاد الاستعماري الذي يئن الأهالي من وطأته.
- مسألة مراعاة الإرساليات التبشيرية من طرف الحكومة الفرنسية وتسهيل مهامها.
- عدم التكافؤ بين أجور الأئمة والأهالي الموظفين في السلك الديني ، وأجور الآباء البيض والقساوسة الذين يعملون في الجزائر.
- 2 - مطالب أخرى حول سلوك القياد وأعوان الإدارة وخاصة من الناحيتين : الاقتصادية والاجتماعية.
- 3 - الحالة الاقتصادية المتدهورة للمواطنين⁽⁴⁸⁾.

ألقي القبض على الشيخ عبد العزيز ورفقائه يوم 1938/04/18. وقد وصف الشيخ ابن باديس وقائع الكارثة في جريدة البصائر عدد 121 بتاريخ 1938/07/08 كما يلي :

« عج وادي سوف يوم 18 أفريل بالجنود والعتاد ، ورصعت رباه بالمدافع الرشاشة وأرعدت أجواؤه بأزيز الطائرات ، فأوشك أهله ونساؤه وأطفاله وبيوته ونخيله أن تنسفهم قنابل الأرض أو تمحقهم صواعق السماء. فأذهلت المراضع ووضعت نحو الثلاثين امرأة حملها. أصبح الوادي على حين بغتة وقد عطلت أسواقه وسدت طرقاته ، ومنع عنه الداخل والخارج ، وضرب عليه نطاق شديد محكم الحصار. ألقى القبض على الشيخ عبد العزيز الهاشمي والشيخ علي بن سعد والشيخ عبد القادر الياجوري والسيد عبد الكامل بن الحاج عبد الله (أمين مال شعبة الوادي). وسيقوا إلى السجن بقسنطينة. وحشرت جماعات من الناس إلى المركز الإداري ، وزج بهم في سجن الإيقاف هناك. ثم حكم على عدد وفير منهم بالنفي والسخرة ، كل هذا والناس معتصمون بالصبر ومنتظرون للفرج... ثلاثة أسابيع ذاق فيها أهل الوادي ما ذاقوا ، وطافت فيها الجنود شرقا وغربا وشمالا وجنوبا⁽⁴⁹⁾ ».

وقد عالج ابن باديس هذا الموضوع في عدة مناسبات ، حيث قال في إحدى جرائد البصائر : « إن هؤلاء الشيوخ دخلوا السجن ضحية عقيدتهم الإسلامية وقيامهم بواجبهم الديني نحو إخوانهم المسلمين أهل ديار سوف⁽⁵⁰⁾ ».

مكث الشيخ مع رفاقه بالسجن حوالي أربع سنوات⁽⁵¹⁾. وفي أوائل عام 1942 صاحب إطلاق سراحه قرار إبعاده إلى سكيكدة فبنى بها مدرسة لتعليم البنين والبنات ، ومنها إلى شرشال التي بنى بها مسجدا ومدرسة الرشيدية أشرف على تسييرها بنفسه وتخرج منها كثير من العلماء. ومنها نفي إلى أزفون بولاية تيزي وزو التي بنى بها مسجدا. وأخيرا إلى الجزائر العاصمة فبنى بها مدرسة لتعليم العربية في المدنية (صالبي) ساهمت في نشر الثقافة العربية بين أبناء الوطن⁽⁵²⁾.

مع العلم بأنه اشترى قصر الداوي عام 1940 بثمانية⁽⁵³⁾ ملايين فرنك وأصلحه ، وجعله مدرسة وكان من بين تلاميذها الوزير السابق الدكتور بوعلام بن حمودة غير أن الإدارة الاستعمارية استرجعته عام 1947 وعوضت له نفس المبلغ⁽⁵⁴⁾.

وفي عام 1953 أبعد إلى تونس ، ونزعت منه المواطنة الجزائرية. حاول بعدها الرجوع إلى الوادي بدون جدوى. وعند اندلاع الثورة أيدها ماديا ومعنويا بحيث

وضع أمامها محلات ودكاكين من أملاكه تستعملها الجبهة في أغراض الثورة كإيواء المجاهدين وأبناء الشهداء وإسعاف المرضى، ومكاتب إدارية وغيرها. واستمر الشيخ في تدعيم الثورة حتى تحصلت الجزائر على استقلالها، ففتح من جديد زاويته بالوادي لتكون أول معهد إسلامي تدرس فيه مناهج وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، غير أن الشيخ لم يعد إلى أرض الوطن بسبب مرضه، ووفاه الأجل المحتوم في 1965/06/01م، ودفن بتونس⁽⁵⁵⁾.

أما الشيخ عبد القادر أخوه، فقد اشترى هو بدوره قصر منوبة عام 1946 بتونس، وتنازل عنه لفائدة الحكومة الجزائرية المؤقتة حيث رفع عليه أول علم جزائري ونصبت فيه أول حكومة جزائرية مما كلفه ستة أشهر سجنًا من الحكومة التونسية⁽⁵⁶⁾.

ومما سبق نستنتج أن عائلة الشيخ محمد الهاشمي قدمت كل ما في وسعها لفائدة الوطن، غير أن التاريخ الموجه تنكر لها ولم ينصفها حقها، فهل من مؤرخ نزيه يعيد الاعتبار المعنوي لعائلة الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف ويضعها في موقعها التاريخي الصحيح؟.

الهوامش :

- 1- صلاح الدين الشريف، المجاهد الشيخ محمد الهاشمي بن الشيخ إبراهيم الشريف (1853 - 1923)، محاضرة غير منشورة، ص 27 - 29. ارجع أيضا إلى :
G.P.J.(André): Confréries Religieuses Musulmanes, édition la aison de livre, Alger, 1956, P.41.
- 2- د/ إبراهيم مياشي، « جهاد الشيخ عبد العزيز الشريف »، الثقافة، رقم 109، يوليو- أغسطس 1995، ص 164.
- 3- انظر: G.P.J.(André): OP. Cit., P.41.
- 4- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.
- 5- انظر: G.P.J.(André): OP. Cit., PP.42-43.
- 6- باديس قدارة، « الشريف الهاشمي ». الشروق. 141 من 18 إلى 25 جانفي 1994، ص 1.
- 7- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.
- 8- انظر: G.P.J.(André):OP.Cit., PP.43-44; Depont et Cappolani: Les Confréries Religieuses, Alger 1897,P 307.
- 9- مقابلة مع الشيخ عبد الوهاب حليم، إمام، نفطة، تونس، جويلية 1999.
- 10- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.

- 11- مقابلة مع الشيخ عبد الوهاب حليم، إمام، نفطة، تونس، جويلية 1999.
- 12- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.
- 13- مقابلة مع الشيخ عبد الوهاب حليم، إمام، نفطة، تونس، جويلية 1999.
- 14- مقابلة مع الشيخ الأزهر الشريف، معلم متقاعد، رأس العين، تبسة، جويلية 2001.
- 15- مقابلة مع الشيخ عبد الوهاب حليم، إمام، نفطة، تونس، جويلية 1999
- 16- انظر: G.P.J.(André): OP. Cit., P. 45.
- 17- مقابلة مع الشيخ عبد الوهاب حليم، إمام، نفطة، تونس، جويلية 1999
- 18- مقابلة مع الشيخ محمد بن إبراهيم حساني، شيخ الزاوية القادرية، الرويسات، ورقلة، 2000.
- 19- د/ أبو القاسم سعد الله، « محمد الطيب بن إبراهيم ». الثقافة، 113، 1996، ص 64؛ جورج باري، محلة روكاي، 1915.
- 20- د/ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج4، طبعة بيروت 1998، ص 49.
- 21- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.
- 22- مقابلة مع الشيخ عبد الوهاب حليم، إمام، نفطة، تونس، جويلية 1999.
- 23- صلاح الدين الشريف: المرجع السابق ص1.
- 24- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.
- 25- انظر: G.P.J.(André): OP. Cit., P. 41.
- 26- د/ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق ص 53-54.
- 27- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.
- 28- د/ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق ص 54-55.
- 29- البصائر عدد 95.
- 30- حمزة شنوف، الشيخ الهاشمي الشريف وانتفاضة وادي سوف 1918. محاضرة مرقونة أقيمت بورقلة بثانوية ملاح بمناسبة الموسم الثقافي، أفريل 1987.
- 31- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.
- 32- د/ أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق ص 54.
- 33- حمزة شنوف: المرجع السابق.
- 34- د/ عمار هلال « الشيخ عبد العزيز بن محمد الهاشمي، مواقف من السياسة الاستعمارية وحركة الإصلاح بمناطق وادي سوف » محاضرة الندوة الفكرية السادسة محمد الأمين العمودي، ماي 1993، ص 43.
- 35- صلاح الدين الشريف: المرجع السابق ص 16.
- 36- د/ إبراهيم مياشي: المرجع السابق ص 164.
- 37- مفدي زكرياء: إلياذة الجزائر. طبعة الجزائر 1998، ص 76.
- 38- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.
- 39- د/ إبراهيم مياشي: المرجع السابق ص 163-165.
- 40- الشهاب، الجزء الثامن من العدد 13، شعبان 1356، أكتوبر 1937، ص 344.
- 41- د/ إبراهيم مياشي: المرجع السابق ص 169.
- 42- البصائر، عدد 95.

- 43- د/ إبراهيم مياشي: المرجع السابق ص 169.
- 44- المرجع السابق ص 174.
- 45- المرجع السابق، ص 174-175، 177.
- 46- د/ عمار هلال: المرجع السابق ص 46.
- 47- د/ إبراهيم مياشي: المرجع السابق ص 175-176.
- 48- د/ عمار هلال: المرجع السابق ص 48.
- 49- البصائر، عدد 121 بتاريخ 1938/7/8.
- 50- البصائر، عدد 134 بتاريخ 1938/10/7.
- 51- د/ إبراهيم مياشي: المرجع السابق ص 181.
- 52- د/ عمار هلال: المرجع السابق ص 50.
- 53- بوصبيع العايش علي، « الشيخ الشريف عبد العزيز المصلح الثائر »، محاضرات الندوة الفكرية السادسة محمد الأمين العمودي، ماي، 1993، ص 38.
- 54- د/ إبراهيم مياشي: المرجع السابق ص 29.
- 55- بوصبيع العايش علي: المرجع السابق ص 40.
- 56- مقابلة مع الإمام الشريف، مجاهد متقاعد، الوادي، أكتوبر 2000.

أدب الأطفال في ضوء المنهج الإسلامي

بقلم

د. محمد عبد الهادي

قسم الأدب العربي . كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد خيضر بسكرة . الجزائر .



الملخص:

يتناول هذا المقال تبيان أهمية أدب الأطفال من منظور إسلامي، مع ذكر ماهيته وأهم خصائصه التي تميزه عن الآخر، وتم الحديث عن أهم مميزات أدب الأطفال الإسلامي و التي يتصف بها ويعبر من خلالها كإطار "فكري ومعرفي"، مؤكدين على أن عملية الإبداع و الكتابة للطفل المسلم لها خصوصياتها و متطلباتها، وهذا أمر غاية في الأهمية ، وتم الحديث أيضا في نهاية المقال عن الأهداف المرجوة من أدب الأطفال الإسلامي، وأهمها تنمية التفكير الإبداعي لدى الأطفال من خلال تصور حضاري.

Résumé:

Cet article contient la littérature d'enfant dans un coté islamique, sans oublier sa définition et ces caractéristiques qui donne ça précision par rapport aux autres .La discussion nous montre les principaux caractéristiques de la littérature islamique d'enfant qui contient sa forme et exprimé dans le domaine « esprit et connaissance » doit être sûrement avec l'opération d'intelligence et l'écriture islamique de l'enfant qui sa propriété et sa demande , sa c'et un chose très important .a la fin de cet article on parle aux objectives de la littérature islamique de l'enfant avec l'importance de développement et de la création de l'enfant a partir d'imagination civilisé.

كان الإسلام سباقا في الاهتمام بالطفل قبل تكوينه وبعده، وقد وردت آيات وأحاديث نبوية عن شروط اختيار الأم الصالحة وصفاتها، وقد حفظت نصوص الشريعة للطفل حقه الأساس في الحياة بكرامة وأمن وسلامة، وأعطته مكاناً مرموقاً داخل أسرته، ومجتمعاً، بدءاً بالحضانة، ومروراً بالتربية والإنفاق والتعليم، وانتهاء بإعداده للاندماج في حياة كريمة، وتبعاً لذلك ألزم الإسلام الأبوين والدولة الاهتمام بالطفولة، وكذلك بتربيته من باب الفرض والمسؤولية المحاسب عليها الإنسان⁽¹⁾. فقال الرسول ﷺ «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته...»⁽²⁾.

إذ أن المكانة التي أولاها الإسلام للطفل لم يُولها له «دين من الأديان (...)، حيث كرم الطفل ونظر إليه كجوهرة نفيسة يجب العناية بها، والمحافظة عليها، ولعل أول مظهر من مظاهر ذلك التكريم هو حقه في الحياة، كما قرر الإسلام حقوقاً وواجبات، كالإنفاق عليه من قبل والديه، والعناية بتربيته ورعايته. كما دعا النبي ﷺ إلى تأديب الأطفال، وغرس الأخلاق الكريمة في نفوسهم، وتعويدهم التحلي بالصدق واحترام الإسلام»⁽³⁾.

ويعود اهتمام الإسلام بالطفولة إلى بداية الدعوة الإسلامية، «إذ عُني الإسلام بالطفولة، ووضع أول أساس لحقوقه ورعايته في التاريخ، وتبدأ هذه الحقوق قبل أن يكون جنيناً، إذ يحث الإسلام على انتقاء واختيار الزوجة الصالحة، ويضع لها صفات خاصة، لتكون أمّاً مثالية للأطفال، تُحسن رعايتهم وتربيته. ثم تأتي بعد ذلك حقوق الرضاعة والتعليم والتأديب، والتربية وحقوق الثقافة، والتدريب على المهارات النافعة والمثمرة، للارتفاع بمستوى قدراته العقلية والجسمية وتنميتها. وكان للفكر الإسلامي في مجال التربية دور كبير في تربية الطفل واحتياجاته والعناية به، وفق أسس سليمة سبقت ما توصل إليه علماء التربية وعلم النفس بقرون عديدة»⁽⁴⁾. فعناية الإسلام بالنشء تتوجه إلى تربيته وحسن تنشئته، «ذلك أنهم

شباب المستقبل، ورجال الغد، وهم امتداد الحاضر ودعاة المستقبل، وحملة الإسلام إلى البشرية، ومن حقهم على الأمة أن تؤمّن لهم الرعاية الكاملة، والتوجيه السليم، القائم على أساس راسخ من الإيمان⁽⁵⁾. وهنا نجد العديد من العلماء المسلمين ألفوا كتباً حول الطفل وتربيته وتعليمه وحقوقه، منهم "إخوان الصفا"، و"أبو الحسن علي القاسبي"، و"ابن مسكويه"، و"ابن سينا" و"أبو حامد الغزالي"، و"ابن عبد البر"، و"ابن القيم الجوزية"، و"ابن ظفر المغربي المكي"، و"ابن عبد ربه"، و"ابن سحنون"، و"ابن خلدون"، و"جلال الدين السيوطي"، و"ابن العديم الحلبي"⁽⁶⁾. وسوف نتطرق في هذا المقال لأدب الطفل في ضوء الشريعة الإسلامية وصفات هذا الأدب وضوابطه، ومن ثم الخصائص التي يجب أن يتسم بها، وفيه أيضاً تم الحديث عن غايات وأهداف أدب الأطفال وعن المسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتق مبدعي أدب الطفل الإسلامي.

"إن ثقافة أولاد الأمة، لاسيما أديهم تتعرض لمحاولات هيمنة - الآخر، (فالآخر) يستخدم أكثر الأسلحة الثقافية تأثيراً وقد دخلت بيت المسلم، ووقف إزاءها مذهولاً يحاول أن يستفيق من ذهوله ليواجهها بوسائله، وقد يستسلم في نهاية الأمر لضعفه، لتصبح الأمة فريسة للتغريب، ويؤتي هذا التغريب أكله مع الأطفال بكافة مراحلهم العمرية لأنهم الأكثر تأثراً".

فأدب الأطفال الإسلامي هو ذلك الأدب المؤثر الصادق في إيماءاته ودلالاته، وهو التعبير الأدبي الجميل الذي يستلهم قيم الإسلام ومبادئه وعقيدته، ويعمل منها أساساً لبناء كيان الطفل عقلياً ونفسياً، ووجدانياً وسلوكياً وبدنياً، ويساهم في تنمية مدارك الطفل وإطلاق مواهبه الفكرية، وقدراته المختلفة وفق الأصول التربوية الإسلامية، وبذلك ينمو ويتدرج بصورة صحيحة، تؤهله لأداء الرسالة المنوطة به في الأرض، فيسعد في حياته، على أن يراعي ذلك الأدب وضوح الرؤية، وقوة الإقناع والمنطق⁽⁷⁾.

إن كلمة إسلامي التي تلي أدب الأطفال ، هي صفة تحدد بدقة شكل ومضمون تقديم هذا الأدب ، لأبناء المسلمين على وجه الخصوص ، فأدب الأطفال الإسلامي هو تقديم أدب الأطفال المسلمين خصوصاً ، وأطفال العالم عامة بصورة إسلامية ، تجسد حياة المسلمين وشعرائهم ، وعاداتهم وأوامرهم ونواهيهم ، وبطولات رجاله وسيرة النبي "ص" ، وقصص وأمثال القرآن الكريم ، وكذا يعرف أدب الأطفال الإسلامي ، بأنه «الأدب الذي يجسد الصورة الحقيقية للإسلام والمسلمين ، كما أنه نوع من الأدب الإسلامي ولكنه أدب متخصص وموجه إلى فئة معينة من فئات المسلمين ، وهذه الفئة لها خصائصها الخاصة وهم أطفال المسلمين»⁽⁸⁾.

وهو حسب "محمد لغريسي الأسيفي" الأدب الذي يبرز القيم الإسلامية الرشيدة ، ويعكس خفايا الأنفس المتعطشة إلى حب الخير ، والمعاني المشرقة ، ويوقظ فيهم حس المسؤولية ، ويجب ألا يستعصى على مستواهم العلمي أو اللغوي ، ولا يعلو على قدراتهم وخبراتهم في الحياة ، حتى لا يتحرك في الفراغ ويفقد قيمه وتوجهه. ويجب أن يُكتب بلغة فصيحة سليمة ، تواكب عمر الطفل ، بأسلوب جذاب مشرق ، يُشوق الطفل ويجذبه نحو القراءة ، وما هو مطروح من أفكار⁽⁹⁾ . وبهذه التعريفات نرى أن أدب الأطفال الإسلامي ، سيسهم بشدة في إحياء لغة القرآن في نفوس الأجيال الجديدة ، التي هي أساس آمال ومستقبل الأمة ، وحب اللغة العربية وإتقانها ، هو الأساس الحقيقي لازدهار أدبنا العرب الإسلامي⁽¹⁰⁾.

وقد يتبادر إلى ذهن البعض أن إدخال الأدب ضمن الإطار الإسلامي ، يقيده ويشلُّ من حركته الإبداعية والتعبيرية والجمالية ، ويكبِّل الجانب الوجداني فيه ، ويحوّله إلى مواظ وأوامر ونواهي وإرشادات⁽¹¹⁾ ، وواقع الحال أن الأمر عكس ذلك ، فإن الذين يكتبون أدباً للطفل المسلم ، يستطيعون أن يفعلوا الكثير ، بالتزامهم بقواعد الكتابة الأدبية من جوانب فنية عديدة ، وعلى مبدعي أدب الأطفال أن يستفيدوا من كل ما توصل إليه علماء النفس والتربية والاجتماع ، وأن

يحاولوا جاهدين أن يكتشفوا عالم الطفولة من قرب أملا في معرفة العوامل المختلفة. والمؤثرات العديدة التي تؤثر في عقل الطفل ونفسيته ووجدانه، رغم أن هذه المحاولات الجادة تجيد عن الصواب في بعضها، إلا أنها جديرة بالتأمل والاستفادة منها، طالما أنها لا تتعارض مع الإسلام⁽¹²⁾.

ولأدب الأطفال حسب "لطيفة عثمانى" أسلوبه الخاص، ومن أهم مميزاته:
- أن يتفق مستوى الطفل ودرجة نموه من النواحي النفسية واللغوية.
- أن يتخير الكاتب الألفاظ السهلة الواضحة، والعبارات التي تؤدي المعنى دون قيد.

- أن تُثير بالفاظه المعاني الحسية والصور البصرية.
- على الكاتب أن يولي عنصر التشويق اهتماما خاصا باعتباره عاملا هاما لجذب انتباه الطفل رغم قدرته المحدودة على التركيز.
- على الأديب أن يبتعد قدر المستطاع عن أسلوب الوعظ المباشر، والنصح والإرشاد⁽¹³⁾.

وأكد "محمد عبد الرحمن وزميله" على أهمية التزام مبدعي أدب الأطفال الإسلامي بالكتاب والسنة، ومنفعته بفهم علماء الأمة في جميع الأصول والفروع، وعليهم واجب النهوض من خلال التأليف الملتزم بالإسلام وأهدافه، وأن يمدوا مكتبة الطفل بالزاد الأدبي، من خلال القصة الهادفة، التي تغرس الفضيلة والتسامح والتعاون في نفوس الأطفال، وعليهم أيضا واجب التصدي للغزوات الفكرية الوافدة، فليجأوا إلى المصادر الموثوق بها، ليستعينوا بها على تقديم رؤيتهم الإسلامية المعاصرة، المرتكزة على ثوابت الأصالة والتفرد والشمول⁽¹⁴⁾.

وبناءً على ما سبق، نرى أن الإسلام ينظر إلى أدب الأطفال، من خلال التزامه بالعقيدة المرتبطة بمنهج تربوي، مبني على أسس أخلاقية سوية، وأن هذا الأدب تشكيل لوجدانهم وصقل لمشاعرهم، وتنشئتهم نشأة صالحة، إذ يألفون الحق

والجمال والخير، وهذا أفضل أساس لحياتهم وواقعهم المعيش. وأن يكون ذلك بعيدا عن الخرافات وتعطيل التفكير العقلي المتميز، ومن ثمَّ فإن أدب الأطفال الإسلامي عليه واجب الدعوة إلى الإسلام كعقيدة ومنهج حياة، وعلى هذا الأدب أن يُنمِّي خيالهم ويطلق تفكيرهم وتصوراتهم بصورة بناءة، وليس مجرد تهويم وأوهام من خلال استقرار نفسي، بما يقدمه لهم من قصص وشعر ومسرحيات، ذات بناء فني متميز يحقق المتعة ويثري العقول⁽¹⁵⁾. ومن الأهمية الإشارة إلى مسألة اهتمام الإسلام المبكر بالطفولة تربية وتعلما...الخ.

ومن الأهمية التأكيد كذلك على أن المهمة الملقة على كاهل مبدعي أدب الطفل المسلم، الاختيار الواعي للمعلومات والمفردات، وأن لا ننقله وندخله في دوامة الخلافات التاريخية والثقافية والأدبية، والعيش كذلك من خلال ما يكتب مع هموم الطفل ومشاكله وتطلعاته، ومثل هذه التجربة تستوجب كما أسلفنا معرفة نفسية الطفل، في كل المراحل العمرية، وهذه المعرفة يجب أن تكون على أساس فهم الطبيعة الإنسانية، ومكوناتها التي خلقها الله، ومعرفة سماتها ومنازعها، ودوافعها وغرائزها، والمؤثرات التي تترك بصماتها عليها⁽¹⁶⁾. لقد سال مداد كثير حول أدب الأطفال وماهيته وخصائصه ومجالاته، وعليه وجب على الأديب و الشاعر والمبدع أن يبتعدوا في إنتاجهم الفكري للطفل عن دائرة الاجترار للقول، لكي لا تضيق الجهود المبذولة في هذا الباب سدا، ونؤكد على أهمية (الزام) المؤلف والمبدع في أدب الأطفال (شعرا، قصة، مسرحية، سمعي بصري...) بمراعاة المستوى المعرفي واللغوي والأدبي للمادة الإبداعية المنتجة، لكي تتلاءم ومستواه، وهذا ما أكدده "أحمد زلط" بقوله "يجب أن يراعي المبدع المستويات اللغوية والإدراكية عندما يقوم بالتأليف أو المعالجة للطفل في سائر ألوان التعبير الأدبي له، ومن ثم يرقى بلغتهم وخيالاتهم ومعارفهم واندماجهم في الحياة، بهدف التعلق بالأدب وفنونه لتحقيق الوظائف التربوية والأخلاقية والفنية والجمالية"⁽¹⁷⁾.

والفن الإسلامي الذي يعد أدب الأطفال جزء أساسي منه، لا يرسم صورة مزورة للبشرية، بل صورة واقعية عميقة الجذور، تشمل الإنسان كله في جميع

حالاته وجميع آفاقه⁽¹⁸⁾. ويمكننا تحديد أهم غايات أدب الأطفال الإسلامي، في حثّه الأطفال على الخلق القويم من صدق وبر وعدل، ورحمة وحلم وحياء، وصبر وشجاعة وعزة وتواضع، وشفقة ووفاء وعفة وصلّة رحم، ورعاية حق الجار وعبادة المريض، وإغاثة الملهوف ورعاية الفقراء، والشهامة والمروءة وطلب العلم⁽¹⁹⁾.

ويؤكد أدب الأطفال الإسلامي على مبدأ المساواة في المجتمع الإسلامي، من خلال تلقي العلم النظامي لكل أفراد المجتمع، والعناية كذلك بذوي الاحتياجات الخاصة باعتبارهم جزءاً من المجتمع، وعليه وجب تهيئة الجو المناسب لهم لتلقيهم العلم، كما بحث على الاعتناء بالأطفال المتفوقين والموهوبين⁽²⁰⁾. ويُعتبر اللعب كأداة تعليمية، وإحدى الوسائل التي يهتم بها أدب الأطفال الإسلامي، لأنه لا يتعارض مع الإسلام، ولأنه ينمي طاقات الطفل الإبداعية، باعتباره تحرير سليم للطاقة الحيوية الفائضة عند الطفل، وباعتباره أيضاً من أبرز المقومات التربوية في سنوات الطفولة، وأنه وسيط تربوي فعال في تشكيل شخصيته⁽²¹⁾. ويُعتبر أدب الأطفال الإسلامي الطفل أمل المستقبل، وطوق النجاة من الانعتاق والتخلف والتبعية، فلا بد من تحصينه بعقيدة الأمة وأخلاقها وقيمها، لكي لا يضيع ويذوب في هذا الكم الهائل من الأفكار والأيدلوجيات، وعلى ذلك لا بد أن تبدأ الطفولة بداية صحيحة وممتنة، حتى لا تُشَبَّ مُعَوَّجَةً ومُشوّهة، وذلك معناه أنها تمتلك حقوقاً ما على المجتمع⁽²²⁾.

ومن الأمور التي لا بد لأدب الأطفال الاهتمام بها، ولكن بوعي كامل، هي تربية الطفل على تحمل المسؤولية "ليس بالمفهوم المادي"، شريطة ذلك إلا تكلفه ما لا طاقة له به، ولكن ندره على تحمل المسؤوليات التي تتماشى مع قدراته، وأن يتم ذلك بتدرج، حتى يشب إنساناً قادراً على تحمل المسؤولية في المجتمع الخارجي⁽²³⁾. والتربية والتعليم للطفل من وجه نظر أدب الأطفال الإسلامي، تكون بالقُدوة والتقليد، أكثر ما يكونان بالنصح والتلقين⁽²⁴⁾. ويجب أن تقدم للطفل الحقائق من خلال المقاومة، فنطرح الواقع عليه من خلال التصادم والتجربة، والخطأ والصراع

والحركة لشحذ فاعلية الطفل ، وذلك بدلا من طرح الواقع كمسلمات وبديهاات
تطرحنا على أرض التسليم والاستسلام ، وبهذا يعود الطفل البحث عن عالم
أفضل ، وهو غريزة من أهم غرائز الحياة⁽²⁵⁾.

ويبقى أدب الأطفال هو العمود الفقري لثقافة الطفل⁽²⁶⁾. وتنميتها والرقى بها
على جميع الأصعدة "ثقافيا وتربويا واجتماعيا وتعليميا".

أهدافه :

لأدب الأطفال أهداف معينة ، تتقاطع مع أهداف الأدب عموما ، إلا أنها تمتاز
بخصوصية الشريحة المقدم لها هذا الأدب وطبيعتها ، وحددها "محمد حسن بريغيش"
في أربعة أهداف :

الأهداف الاعتقادية :

وهذا الهدف لا يعني بأي حال من الأحوال ، أن يتحول أدب الطفل إلى درس
وعظ محض ، بل يعني الوضوح في الهدف عند الأديب ، ومن المهم أن يتصل أدب
الطفل بمنبع التوحيد ، الذي يحرر الطفل من كل العبوديات ، ويربطه بالخالق ، عن
طريق التفكير الحر المبدع ، ولبناء العقيدة الصحيحة في نفس الطفل أركان عدة
وهي :

- تلقين الطفل كلمة التوحيد.

- ترسيخ حب الله تعالى في نفس الطفل ، وحب الرسول ﷺ .

- تعليم الطفل القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة.

- تنمية قدرات الطفل ، وتفتيح وعيه لثباته على العقيدة ، واستعداده للتضحية
من أجلها.

- بيان حقيقة الإنسان ومكانته في هذا الكون ، وعلاقته بربه ، وبالكون من
حوله ، وعلاقته بأخيه الإنسان⁽²⁷⁾.

ومن الأهمية الإشارة إلى أن هذا الهدف متميز عن الأهداف الأخرى ، لأنه يحمي الإسلام والمجتمع والأمة من الفكر المتطرف ، الذي قدر يتسلل إلى أطفالنا عبر الأدب ، وغيره من البرامج التعليمية والتربوية.

الأهداف التربوية :

وهذه الأهداف تقوم أصلا على المسؤولية المنوطة بالوالدين ، والمربين والمختصين في المؤسسات المجتمعة المرتبطة بالطفل ، ونلاحظ حديثا عدم حصر المسؤولية في الأسرة ، بل تطور الأمر إلى شرائح المجتمع المختلفة من الروضة إلى المدرسة إلى الإعلام ولا سيما التلفزيون لما له من أثر كبير وبالع على الأطفال ، والهدف التربوي يعني أمرين هما البناء والحماية⁽²⁸⁾.

الأهداف التعليمية :

ومن أهمها تنمية مهارات القراءة والكتابة عند الأطفال ، وتزويدهم بثروة لغوية فصيحة ، تزيد من خبراتهم الخاصة ، وتنمو هذه الثروة والخبرات مع نمو أعمارهم ومراحلهم وقراءتهم ، لذلك يحتاج الأدبي الجاد المتعمرس إلى فهم القاموس اللغوي للأطفال ، في كل مرحلة من مراحلهم ، ليكون استخدامه للألفاظ مناسبة ومفهوما⁽²⁹⁾.

الأهداف الجمالية :

وهذه الأهداف هي حصيلة توافق بيت التربية وعلم الجمال ، والتربية الجمالية للطفل ليست منفصلة عن التربية الإسلامية الشاملة ، بل هي جزء أساسي منها ، وسمه من سماتها المتميزة ، وخاصة من خصائصها ، لأن الجمال لا يقوم بنفسه بل يقوم بغيره ، وعلى هذا فكل تربية إسلامية هي تربية جمالية⁽³⁰⁾. تهدف أساسا إلى الرقي بذوق الطفل ، والسمو بأحاسيسه وعواطفه ووجدانه. ومن أهم أهداف أدب الأطفال ، حسب " كافي رمضان " إمتاعهم ، وإشباع ميلهم إلى المغامرة ، والمساهمة في تكوين العلاقات الاجتماعية⁽³¹⁾.

وحصرها "محمد السيد حلاوة" في أهداف ترفيهية، تُمتّع الطفل وتُسعده، وأهداف فنية وثقافية تعلم الطفل من الحياة، وتساعد على بناء شخصيته المترنة الواعية، المعتمدة على الذات المتعاونة مع المحيط، وأهداف نمائية، ومرتبطة بالنمو اللغوي⁽³²⁾. وأدب الطفل حسب د. "نجيب الكيلاني" يجب أن يحقق أمرين:

- مساعدة الطفل على وعي معنى الحياة.

- مساعدته على وعي ذاته وعلاقته بالآخرين، والمقصود بتوعيته بمعنى الحياة، الإحساس بها بقيمتها، وبأنها جديرة بأن تُعاش، وفق مقاييس العطاء والسعادة.

وفي إطار قيم بناء إيجابية. ومن البديهي أن هذا الوعي لا ينبثق تلقائياً، كما لا يتولد مكتملاً، بل يحتاج إلى تفاعلات وتجارب وخبرات، ويسير في عمليات متطورة مستمرة⁽³³⁾. وهي بالنسبة لـ "أحمد زلط" مرتبطة في تدعيم البناء الروحي، والمادي المتوازن في شخصية الطفل، وتلقيه القيم والسلوكيات والأداب العامة، وتكوين المواطن الصالح، والحفاظ على اللغة العربية فوق ألسنة النشء، وكذلك التنفيس الانفعالي وتخفيف حدة القلق، وتشجيع الطفل على حرية التعبير وأساليب التفكير، ورعاية الطفل الموهوب وحفزّه وتشجيعه⁽³⁴⁾.

ونرى أن الهدف الأساس لأدب الطفل، بالإضافة إلى ما ذكرنا، جعل الطفل جزءاً متميزاً ذا شخصية جلية في المجتمع، من خلال شبكة علاقات اجتماعية جيدة مع أبناء جيله، ومحيطه من الكبار. بالإضافة إلى تعليمه وتوجيهه وإشعاره بالأمن، وتلبية رغباته سواء كانت أدبية أم ثقافية أم روحية. وقد أشار "علي الحديدي" إلى مسألة غاية في الأهمية متعلقة بأهم أهداف أدب الأطفال وثقافته، وهو هدف سام يتم فيه توجيه النشء إلى نوع معين من التعليم، تحتاجه الأمة في تخطيطها، كالتعليم الصناعي والزراعي والمعلوماتي، بإظهار مزايا هذه الأنواع في قصص وحكايات، تصور من سلك هذا الطريق، تصويراً يُحبّب الأطفال فيه، وفيما واصل إليه⁽³⁵⁾. ومن أهم أهداف أدب الأطفال المنشودة، اكتشاف مواهب الطفل، ومواقع الخير في ذاته، وإكسابه بطريقة علمية منهجية تربية، القيم الاجتماعية

والأخلاقية، وكيفية التخاطب مع الآخرين، من خلال وعي وتصور حضاري⁽³⁶⁾. ومن الأهداف السامية لأدب الأطفال تنمية التفكير الإبداعي لدى الأطفال، والتي تتطلب مجموعة من الأهداف الإجرائية، نذكر منها:

- أن تنمي لديهم القدرة على التطلع إلى آفاق جديدة وبعيدة.
- أن تنمي لديهم الاستعداد للتعامل مع الوضعيات المتوقعة، والمصاعب المحتملة والمشكلات الناشئة، عن تأثير الجديد على القديم.
- أن تنمي لديهم القدرة على التفكير، في نسق مفتوح واضح، مع تنمية القدرة على الدافعية، والرغبة في تحقيق الإنجاز والتفوق⁽³⁷⁾.

خاتمة:

من نتائج البحث المتوصل إليها نذكر:

- 1- الاحتفاظ بالخصوصية الثقافية الإسلامية كملجأ أساس للإبداع الطفولي، مع الانفتاح الواعي والاستفادة من تجارب الآخرين، وخصوصا في الإنتاج السمعي البصري المتعلق بالأطفال.
- 2- من الأهمية أن نؤكد على أن النوايا الحسنة وحدها لا تصنع أدبا أصيلا مؤثرا صادقا للأطفال، ولا بد من عمل منهج دءوب، مبني على أسس علمية سليمة، أخذا في الاعتبار المراحل العمرية للأطفال ومتطلباتها.
- 3- أدب الأطفال الإسلامي أدب واقعي استشرافي، يعكس صورة عصره، يسعى جاهدا لتفعيل مسألة القيم في المجتمع، دعوة منه لتماسكه ونموه، وبعث مكارم الثقافة الاجتماعية وخاصة التي تلاشت منها، وعليه تصور صعوبات ومشاكل الحياة المستقبلية، والسعي لتلافيها والحد منها.
- 4- الحاجة المسيئة إلى تجديد واقعنا الثقافي عموما، والمتعلق بأدب الأطفال وثقافتهم على وجه الخصوص.

5- الحاجة المسييسة إلى أدباء مخلصين للطفل ومؤهلين تأهيلا علميا وأديبا صحيفا.

6- إن الإبداع للأطفال مسؤولية جسيمة وعمل شاق ، تلقى على عاتق الأديب ، وعليه أن يأخذ في الاعتبار الأصول الشرعية والتربوية والسيكولوجية للطفل ، والاستفادة قدر المستطاع من العلوم الأخرى وآخر ما توصلت إليه.

وخلاصة القول إن ما يتم إنتاجه للأطفال في عالمنا العربي والإسلامي ، لا بد وان يكون منسجما مع ثوابت وقيم الإسلام ، لكي تؤدي تلك الإبداعات هدفها المنشود في الرقي والتقدم وحب الانتماء والعطاء.

الهوامش :

* محمد بسام ملص : في أدب الأطفال " رؤية الحاضر بصرية المستقبل " ، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية ، (كتاب الأمة) ، الدوحة ، قطر ، (رمضان) 1426هـ ، (أكتوبر نوفمبر) 2005م. ص 44.

1- ينظر د.محمد عبد العليم مرسي : الطفل المسلم بين منافع التلفزيون ومضاره ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، السعودية ، 1418هـ ، 1997م. ص 7 وما بعدها.

2- الحافظ بن إسماعيل البخاري : صحيح البخاري ، مطابع الشعب ، القاهرة ، مصر ، [د.ت.]. ج2 ، ص 6.

3- د.سالم محمد السالم : "احتياجات الطفل في مجال المعلومات مع دراسة لواقع بعض مكتبات الأطفال في المملكة العربية السعودية" - مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، السعودية ، (جمادي الاخرة) 1416هـ ، (نوفمبر) 1995م. ع14 ، ص 290 ، 291.

4- د.سالم محمد السالم : المرجع نفسه ، ص 292.

5- محمد بسام ملص : فتح الأندلس في أدب الأطفال "دراسة نقدية" ، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، السعودية ، 1415هـ ، 1994م. ص 3.

6- للاستزادة ينظر : د.سالم محمد السالم : مكتبات الأطفال في دول الخليج العربية واقعها وسبل تطويرها ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض ، السعودية ، 1418هـ ، 1997م. ص 80 ، محمد حسن بريغش : أدب الأطفال أهدافه وسماته ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، 1418هـ ، 1997م. ص 23 ، 24.

7- د. نجيب الكيلاني : أدب الأطفال في ضوء الإسلام ، مؤسسة الإسراء ، قسنطينة ، الجزائر ، [د.ت.]. ص 14 .

8- د. إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي : "ما هو أدب الأطفال الإسلامي" ، الوعي الإسلامي ، وزارة الأوقاف ، الكويت ، (ذو الحجة) 1415 هـ ، (مايو) 1995م. ع 552 ، ص 123.

- 9- محمد لغريسي: "نحو أدب إسلامي للأطفال"، الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، قطر، (محرم) 1405 هـ. ع 49، ص 64.
- 10- د. إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: المرجع السابق، ص 52.
- 11- ينظر للاستزادة: عبد السلام البقالي: تقنية الكتابة للأطفال، (ندوة ثقافة الطفل العربي)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1992م. ص 123.
- 12- ينظر د. نجيب الكيلاني: المرجع السابق- ص 18.
- 13- لطيفة عثمانى: "الأدبية الإسلامية وأدب الأطفال"، المشكاة، وجدة، المغرب، 1421هـ، 2000م، ع 23، ص 8.
- 14- د. محمد بن عبد الرحمان الربيع، د. أحمد علي زلط: أدب الأطفال وثقافته وبحوثه في جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، 1418هـ، 1998م. ص 151.
- 15- د. محمد سعد أبو الرضا: النص الأدبي للأطفال أهدافه ومصادره وسماته، دار البشير للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، [د.ت.ا]، ص 25.
- 16- محمد حسن بريغش: المرجع السابق، ص 242، 243، وينظر أدب الأطفال في ضوء الإسلام- ص 107 وما بعدها.
- 17- أحمد زلط: أدب الأطفال بين أحمد شوقي وعثمان جلال، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، مصر، 1415هـ، 1999م. ص 16.
- 18- د. محمد قطب: منهج الفن الإسلامي، دار الشروق، بيروت، لبنان، 1393هـ، 1993م. ص 92.
- 19- د. إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي: "أدب الأطفال الإسلامي ما مفهومه وأهدافه والمقصود منه"، منار الإسلام، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، (صفر) 1416هـ، (يوليو) 1995م. ع 2 ص 52.
- 20- للاستزادة ينظر: حواس محمود: "ثقافة الطفل العربي إلى أين"، أحوال المعرفة، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، السعودية، (ربيع الآخر) 1422هـ، (يوليو) 2001م. ع 21. ص 77.
- 21- د. حسن إبراهيم عبد العال: "أصول تربية الطفل في الإسلام"، بيادر، نادي أبها الأدبي، أبها، السعودية، (رجب) 1414هـ. ع 11، ص 113.
- 22- وردة بغورة: "الطفولة بين الاهتمام والإهمال". الرسالة، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، (ذو القعدة) 1407هـ، (جويلية) 1987م. ع 7، ص 36، 37.
- 23- د. عبد الرحمن عيسوي: التوجيه والإرشاد الإسلامي والعلمي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1992م. ص 102.
- 24- عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، دار الكتاب، بيروت، لبنان، [د.ت.ا]. ص 147.
- 25- "مجلات الأطفال بين الواقع والمأمول"، الفصيل، الرياض، السعودية، ع 291. ص 68.
- 26- رابع خدوسي: "ثقافة الطفل في الجزائر"، المعلم، دار الحضارة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2001م. ع 8. ص 20.
- 27- محمد حسن بريغش: المرجع السابق، ص 114.

- 28- المرجع نفسه، ص : 129 ، 130 ، 131 ، وينظر الموقف الأدبي ، "ندوة أدب الأطفال.بتونس".
الموقف الأدبي ، إتحاد الكتاب العرب. دمشق ، سوريا ، 1986م. ع 184 ، ص 164 ، 165 .
29- المرجع نفسه ، ص 141 وما بعدها.
30- المرجع نفسه ، ص 149.
31- علي حمد الله : "ندوة أدب الأطفال بتونس". الموقف الأدبي ، ع 184. ص 167 .
32- ينظر محمد السيد حلاوة: مدخل إلى أدب الأطفال ، مؤسسة حورس الدولية ، الإسكندرية ، مصر ، 2000م. ص 70 وما بعدها .
33- د. نجيب الكيلاني: أدب الأطفال في ضوء الإسلام ، ص 42.
34- د. أحمد زلط: أدب الطفل العربي ، دراسة معاصرة في التأصيل والتحليل ، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، ط2 ، الإسكندرية مصر ، 1998م. ص 230 وما بعدها ، وينظر حواس محمود "ثقافة الطفل العربي إلى أين" ، أحوال المعرفة ، ع 21. ص 77 .
35- على الحديدي: في أدب الأطفال ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط3 ، القاهرة ، مصر ، 1982م. ص 114.
36- محمد ياسين: "مدخل إلى أدب الطفل" ، رسالة الأطلس ، باتنة ، الجزائر ، 18 (ماي) 1998م. ع 189 ، ص 16.
37- محمود مدحت: "تنمية التفكير الإبداعي لدى الأطفال (المرحلة العمرية 11-17 عاما)". الطفولة والتنمية ، المجلس العربي للطفولة والتنمية ، القاهرة ، مصر ، 2002م. ع 7 ، ص 213.

الtnاص في سجنيات مفدي زكرياء نموذجاً

إعداد

د. محمد زغبنة

قسم اللغة العربية وآدابها . كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة باتنة. الجزائر.



المخلص

يتناول المقال : تقنية التناص التي ظهرت كرد فعل في الأدب على البنيويين على يد Kristiva julia كريستفا يوليا؛ هذه التقنية لها امتداد وتواصل في الأدب والنقد العربيين في القديم وبخاصة الدراسات التي اهتمت بالأخذ والاحتذاء، والإعارة والتخطي بالحذف، والتوارد والاختصاص الخ.

يحاول هذا المقال أن يبين بأن التناص محاولة للتقريب بين الواقعي والأسطوري . والتاريخي والخيالي ، وإيفال في الوجود بحثاً عن التوازن والتواصل، والتماثل بأصالة شعرية، ورؤية إنسانية وهذا ما نراه في سجنيات مفدي زكرياء إبان الثورة التحريرية بالجزائر: 62 / 54 .

إذ استطاع الشاعر أن يحلق في أجواء إيمانية ويستدعي تجارب الأنبياء عليهم السلام . ويوظف الزمن الكوني توظيفاً أزهياً وبذلك يحول الزمن إلى دورة واحدة عبر الأمكنة والأزمنة بروح تلفها الثورة وتشع منها النار ؛ فكان مفدي زكرياء بهذا يحلق بين الأصالة والمعاصرة لأنه يغرف من منابع النور ويحترق بنار الله ، فكان الله المقدس .

وكيف أن النصوص الغائبة تعانق النص الحاضر مما ولد دلالات جديدة في سياق النص الشعري وفقاً لآليات البناء وما اقتضته هذه التداعيات والتراسلات ليصبح النص فضاء تعبيرياً ، لأن الشاعر استطاع أن يستبطن النصوص السابقة استبطاناً دلالياً متميزاً فكانت نارية الرؤية ، وكانت الهواجس المستقبلية وكان الفكر الإنساني حاضراً في النص ، لأن الموقف فرض على الشاعر أن يعيش هذه الرؤية الشعرية البعيدة الأغوار

Abstract

This article treats the techniques of intertextuality , it's concept , it's etymology and it's relationship with Arab literature , old and modern, this is because this technique has a historical aesthetic value from uscontribution to Arab crévicism in particular.

This on one side , on this other , the article attempts to present an illustrative text of the Algerian author MUFDY ZAKARIYA

المفهوم والمصطلح:

أ. لغة: نص، نصا الشيء: رفعه وأظهره، وفلان نص: أي استقصى مسأله عن الشيء حتى استخرج ما عنده.

والنص مصدر، وأصله أقصى الشيء الدال على غايته، أو الرفع والظهور، والتناص: ازدحام القوم⁽¹⁾ و "التناص" مصدر الفعل على زنة تفاعل⁽²⁾، أي المشاركة، والمفاعلة، والتعدية ومنه نصبت إذا جعلت بعضه على بعض، ومنها ينصهم أي يستخرج رأيهم ويظهره، ومنه قول الفقهاء: نص القرآن ونص السنة، أي ما دل ظاهر لفظها عليه من الأحكام⁽³⁾.

وبذلك يكون التناص في اللغة: الرفع، والإظهار، والمفاعلة في الشيء، مع المشاركة؛ والدلالة الواضحة، والاستقصاء.

ب. اصطلاحاً:

فهو قراءة أقوال متعددة في خطاب أدبي واحد، نحيلنا إلى خطابات أخرى متعددة يمكن أن تطابق مع النص الأدبي المتعين، لأن الشفرة الشعرية لا يمكن أن تكون رهينة شفرة وحيدة، بل تتقاطع فيها عدة شفرات وكل منها ينفي الآخر⁽⁴⁾.

ويعنى آخر: فالتناص هو « استبطان نص سابق في سياق نص لاحق بحيث تتولد من هذه العملية دلالات متعددة لا يمكن استكشافها في النص الأسبق، وقد يكون لها في النص اللاحق حضور دلالي متميز »⁽⁵⁾ بإعادة حياة عدد من النصوص في النص الجديد والالتقاء بها في أفق القصيدة⁽⁶⁾ الجديدة، أو كما يقول M. Riffaterre "ريفاتير": « إن التناص هو مجموعة النصوص التي نجد بينها وبين النص الذي نحن بصدد قراءته قرابة؛ وهو مجموع النصوص التي نستحضرها من ذاكرتنا عند قراءة مقطع معين »⁽⁷⁾.

فالتناص: « حضور النصوص الغائبة التي تتناص مع النص المقروء »⁽⁸⁾؛ فهو دراسة النص الحاضر من خلال علاقته بنصوص سابقة لأن الشاعر يوظف المخزون التراثي اثتلافا واختلافا ويمتص نصه عددا من النصوص المختلفة المصادر مع الزيادة والنقصان والتغيير والتحوير ليعطي لنصه نوعا من التفرد يلائم تصوره، ويولد دلالات جديدة في سياق خاص به وفقا لآليات البناء الفني لنصه الإبداعي وما يقتضيه من تداعيات وتراسلات ليصبح بذلك النص فضاء تعبيريا خاصا أو كما قال بارت (النص ليس فضاء تعبيريا وإنما فضاء افتتان "Action Writing")⁽⁹⁾ وكل ذلك لأن الإنسان يتطور ويسير الحياة أخذا وعطاء وكلما توغل في الماضي وعاش بيئته كلما استطاع أن يبدع لنفسه إبداعا متفردا خاصا به.

ثانيا. سجنيات مفدي زكرياء وتجليات التناص فيها:

إن شعر السجون إبان الثورة التحريرية الكبرى يمثل حلقة هامة من تاريخ الشعر الجزائري الحديث، والشعر العربي عموما؛ بل يمثل صورة من صور المقاومة الجادة بالقلم والبدن، ومعلما من معالم الأصالة والعبقرية في ليالي الاستعمار؛ لأنه شعر التزم بقضايا الوطن، والأمة، ودافع عن مقوماتها وناصح عنها في سبيل التحرر، بروح إيمانية وتصور إسلامي، وبسالة استشهادية.

إنه الشعر الذي مثل واقعه أحسن تمثيل، فكان وثيقة تاريخية لصدقه، وعفويته، وموضوعيته، وأهم شاعر جزائري مثل ذلك هو الأديب الشاعر مفدي زكرياء؛ هذا الشاعر الذي آمن منذ نعومة أظفاره بأن الشعر رسالة إنسانية سامية، بما يحمل من عظمة، وجلال، وما يمكن له من عقيدة ووحدة اللغة، والتزام الشعر، وتجديد في التعبير والتفكير، مما يجعله شعرا صادقا متجاوبا مع مشاعر العروبة الزاحفة⁽¹⁰⁾. هذه الروح الجهادية هي التي طبعت هذا الشعر وخلدته، ولعل أهم التناصات في سجنيات مفدي زكرياء:

1. التناص اللونى: نارية⁽¹¹⁾ الرؤية والفكر:

إن المتصفح لديوان "اللهب المقدس" يحس بالاحتراق بدءاً من العنوان الموحى، والمنعكس على الموضوع، والعاكس للهب الثورة الذاتية والموضوعية؛ ثورة الشاعر، وثورة الأمة، ولذلك توزعت "النار" على ديوانه تسعا وعشرين مرة⁽¹²⁾، وتوالت بصفتها، وإشاراتها أكثر من أربعين مرة مما جعل الشاعر ماردا بشعره، الذي تحول إلى رجوم لشياطين الاستعمار ولكل من بغى.

فاستخدام الشاعر للنار يعود إلى إحساسه الجمالي الفعال بهذا اللون "النوراني"، ليشكل به صور الرعب من جهة، ويبرز مشاهد التضحية من جهة ثانية، وضراوة هذا اللهب من جهة ثالثة؛ ويحيلنا إلى حقيقة النار التي يُسفر منها الصبح بعد الظلام، وهذا إحساس فطري بقيمة التأثيرات النورانية، والضوئية في التعبير عن جمال الأشياء، فالشمس تحيي موات الأشياء، والنار تبعث الدفء في الأحياء، وبذلك تكون الرؤية النارية في اللهب المقدس امتداداً للزمن الروحي، زمن الكون المترامي الأطراف؛ حيث النار التي تحيط بكل شيء، وتتسلط على الحيز المكاني لتكون "لهباً مقدساً" من جهتين؛ (نار الإحراق ونار البرد والسلام)، لأن الشاعر ينطلق من ذاته المحترقة، من لحظة الألم من لحظة معانقة الموت، من لحظة الصفر التي تتولد منها روائع الحياة وتنبعث البذرة من ترايتها الحارقة كانبعاث طائر الفينيق^(*) من رماده ولذلك يقول⁽¹³⁾ :

وَتُسَوِّنُنَا الْأَحْجَارَ نَقْضُ صَخْرَهَا وَنَبْلَعُ إِنْ جَعْنَا شَعَالِيلَ نِيرَانِ

فهذه النار هي نار الوجد التي ترسم صورة الجحيم يوم القيامة حين يتساوى الإنسان مع الحجارة ويصبح معها وقوداً لنار جهنم، إلا أن الشاعر عكسَ هذا المعنى فإذا بها نار لا قيمة لها لأنه لا يحس بها، لأنها من مخلوق متجبر متسلط وبذلك فإن الشاعر سيقاوم وسينبثق من رماد هذه النار لينطلق بروحه في رؤى

صوفية مثقلة بالأحلام، حاملة بالبعث، باللحظات الضوئية التي تنير المكان المغلق (14) :

يا سجن ما أنت لا أخشاك تعرفني من يحذق البحر لا يحذق به الغرق
أنام ملء عيوني غبطة ورضا على صياصيك لا هم ولا قلق
طوع الكرى وأناشيدي تهددني وظلمة الليل تغريني فأنتلق
والروح تهزأ بالسجان ساخرة هيهات يدركها أيان تنزلق

هكذا نرى الشاعر يرحل بروحه إلى حيث منابع النور لأنه يستدعي حالة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - حين « قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ » (15) ؛ فتحوّلت تلك النار المقدسة من الإحراق إلى الإشراق، ومن الإمامة إلى الإضاءة، ومن التنكيل إلى التحرر، ومن الاستعباد إلى الانعتاق، لأن هذه النار خاضعة للأقوى، للذي قال لها: « يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا » (16).

ولذا فلا عجب أن يتحدث الشاعر أيضا هذه النار قائلا (17) :

يا فرنسا امطري حديدا ونارا واملئي الأرض والسماء جنودا
واضرميها عرض البلاد شعاليل فتغدولها الضعاف وقودا

هكذا ينتشي الشاعر باللحظات النارية لأن المقدس صار مثالا أعلى في ذهنه في تلك اللحظة، وأصبح لا يخاف شيئا، وآمن بأن النور لا يكون إلا بعد الاحتراق المادي أو المعنوي، ولعله في تلك اللحظة تذكر ما ذكره الألويسي في تفسيره روح المعاني: إن سيدنا إبراهيم عليه السلام «حين أوثقوه ليلقوه في النار قال: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد، ولك الملك لا شريك لك، فأناه جبريل عليه السلام فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال أما إليك فلا؛ قال جبريل عليه السلام: فاسأل ربك؛ فقال حسبي من سؤالي علمه بحالي» (18).

هذه الصورة كانت حاضرة، ونار اللهب تلهب جسد الشاعر الغائب عن
الوعي المادي، والجلاد يتفنن في تعذيبه (بأساليب نمرودية)، ولذا قال الشاعر:

سيان عندي مفتوح ومنغلق يا سجن بابك أم شدت به الحلق
أم السياط بها الجلاد يلهيني أم خازن النار يكويني فأصطفق
والخوض حوض وإن شتى منابعه ألقى إلى القعر أم أسقى فأنشرق

هكذا ينعدم الإحساس (بالنار) حين يكون المؤمن تحت تأثير الإيمان القوي،
حيث الدفقات الضوئية التي تفتح كل الأماكن المغلقة، فيكون الثبات وتكون القوة
التي لا يمكن أن توقفها قوة أخرى، ولا يمكن أن توقف نهر النور المتدفق بالحياة،
ولذلك هيئات تدرك هذه النار روح الشاعر المسافرة في منابع النور كصوفي يعتق
من تراثه عارجا إلى حبيبه ولذا كانت صورة سلوى الحبيب وكانت الذكرى وكان
الحلم الدافئ⁽¹⁹⁾.

سلوى أناديك سلوى هل تجاويني سلوى فإن لساني باسمها ذلق
ردي عليّ أهازيجي موقعة فقد أعارك وزنا قلبي الخفق
ورتلها تسايحا مقدسة في معبد الحب يسجد عندها الأفق

فبالاكتواء والنار يصل الشاعر إلى الحبيب؛ فالنار براق للمعراج ومطية للسفر
والقرب، ولذا يستجيب لهذه النار المقدسة "سيدي بومدين الغوث"⁽²⁰⁾ حارس
تلمسان ووليها الرابض على أفقها الغربي يحرسها من كل ظلام آت من هذا
الغرب؛ يقول الشاعر⁽²¹⁾:

مضت كالشهب وانحدرت شظايا تلَهَّبُ في دجنتها التهابا
وشبت من ذرى وهران نار رآها برج مدين فاستجابا

تلکم النار الأولى ذات الدلالة الروحية التي تنبعث منها الحياة، أما النار الثانية فهي نار الإنذار والوعيد، النار التي حركها الأزل وضغط بها القدر الرابض على زناد البعث لتطلق القذيفة المسحورة في دروب الجزائر الحاملة، وأحراشها السكرى، ورمالها العطشى، وجبالها الغضبي⁽²²⁾.

نار الحجة والبرهان، نار الصدق التي تنبعث من نار الباطل من ليل الظلم، يقول الشاعر⁽²³⁾:

والنار أصدق حجة فاكذب بها ما شئت تصعق عندها الأحلام
ولوافح النيران خير لوائح رفعت لمن في ناظره رُكام

إن الرؤية النارية في اللهب المقدس تتجاوز حدود المادية لتكشف عن حالات روحية ومجالات نفسية بحثا عن الجوهر الذي يغذي النفس ويريح الروح، ولذلك ماجت فيها الظلال وتعانقت مع الرؤى، فشح الديوان بالنور، وتسامت ناره، وتساوقت فيه الحياة بالموت لأن الشاعر كان يغرف من معين صاف لا تعكره الأهواء، ولذا امتدت رؤيته إلى مناخات السماء مشعة بالوقفات الروحية.

وبذلك يبدو مقدي زكرياء في هذه اللحظات النارية المتألقة في ذلك الحيز السجني منجذبا إلى النار مشدودا إلى النور، مفتونا بهذا اللون إلى حد الهوس ملونا خارطة المكان باللون الأحمر؛ بفعالية إيقاعية متجانسة وانتشاء متناغم مما ولد حرارة نارية في قصائده وأناشيده ولذا كان ديوانه "اللهب المقدس" المارج الناري في ثورة التحرير.

2 - (التناص الزمني) : ونقصد به استبطان الزمن الماضي من الحاضر، والذاتي الآني بالزمن الذاتي الماضي وإحياء الماضي في الآن وهو لون من ألوان الهروب إلى الماضي يوم كان حرا طليقا وهذا الاستحضار محاولة داخلية لتجاوز المكان المغلق قهرا للذلة وطلبا للأمن والراحة ولذلك يكون هذا التناص أمنيات تعشش في ذهنه كما أنها توحى بالعودة إلى زمن الحرية بل إنها ترسم اتجاهها فسيحا

نحو العالم الزاخر بالذكريات وهكذا يعيش الشاعر الزمن الحاضر بالزمن الماضي كالتالي :

أ- إيصال الزمن الديني بالزمن الذاتي : (24)

إن مفدي زكرياء في سجنياته مولع باستحضار الزمن الديني بدلالات آنية، أو إسقاط الموقف الزمني الحاضر على الموقف الزمني القرآني مما حول بعض سجنياته إلى رمز مشحون بالدلالات، دلالة نفسية ودلالة روحية، وشعرية؛ لأن الذاكرة ثرية بالموثوث الديني الذي ينسجم مع الوسط الآني، ومن ذلك قول مفدي زكرياء (25) :

دعا التاريخ ليلك فاستجابا نوفمبر هل وفيت لنا النصابا؟

وهل سمع الحبيب نداء شعب فكانت ليلة القدر الجوابا؟

تبارك ليلك الميمون نجما وجل جلاله هتك الحجابا

زكت وثباته عن ألف شهر قضاها الشعب يلتحف السرابا

فالموقف الديني لم يحّ من الذاكرة، إذ ما يزال مدا روحيا للذات الشاعرة؛ لأنه يصلها بالحياة، ويمدها بالقوة المعنوية لتنجلي أوجاع الشاعر، وكأن ما حدث في ليلة أول نوفمبر بالجزائر هو قيام ليل، وصيام نهاره، استعدادا لليلة التجلي، ليلة القدر التي يستجاب فيها الدعاء، فالزمن الحالي متعلق بالزمن الديني، والحدث الحالي هو الحدث القرآني نفسه، ولذلك تتنابه الأحلام وكأنني به في جنة من جنات الله؛ حيث السحر والجمال. يقول الشاعر (26) :

وفي واحاتنا ظل ظليل تفور به نواعيرها حبابا

وفوق سمائها قمر منير نطارحه الأحاديث العذابا

وتحت خيامها انحبست عيون لها "هاروت" قد سجد احتسابا

كل هذه السرحات هي لون من ألوان استحضار الزمن الماضي بحثا عن السعادة، وآمال المستضعفين، ولذلك تومض الصور والأفكار محرقة، فتتكاثف المشاعر حول قطب واحد هو الألم بأطياف انفعالية، ونفس تتضرم بنار البعاد والاتكاء على الداخل والانصراف إلى التهويم، فيتعاقب المستحيل مع المحتمل، والخيالي مع المقدس، والواقعي مع الأسطوري، ويتحول الذاتي إلى رغبة روحية تتعاقب فيها المتناقضات مما ينمي الصراع ويبرز التمزق النفسي؛ حتى أننا نشعر بعقدة الاضطهاد، وبالزمن التراثي حاضرا في الزمن الحالي لأن «الوقائع تمكث في الذاكرة بفضل محاور فكرية، وتتميز بعمق فريد ثابت»⁽²⁷⁾، ولذلك يرسل الشاعر مستحث الخطى، حائما حول منابع النور مستحضرا "الزمن السحري" كما ورد في القرآن الكريم في قصة "هاروت وماروت"⁽²⁸⁾ بحثا عن لحظة الوئام مع الكون والحياة، رفعا لضباب النفس، ونفضا لغبار السجن ووحدته وغرته، ولذا تندمج اللحظتان المقدسة والذاتية ولا عجب فقد صرح الشاعر بذلك قائلا⁽²⁹⁾:

والذكريات وإن تقادم عهدها في أمة، أشباهها تتكرر
يوم الزمان كأمره، وغداته وحوادث الأيام، لا تتغير

لأن الزمن عند مفدي زكرياء لا يخضع للسببية، فهو مطلق في ذهنه، ولم يبق منه سوى اللحظات الجميلة التي ما يزال متعلقا بها، وهي موزعة على دورة الحياة؛ فكانت التهويمات الروحية؛ وقد أثبت علم النفس الحديث كيفية تخزين الزمن سواء في مستوى الذاكرة الواعية أم في مستوى اللاوعي؛ "فيونغ" و"فرويد" يعتقدان أن المدى الأقصى لجنة الطفولة الضائعة يتجاوز الطفولة ليصبح حيننا إلى عالم ما قبل الولادة أي لحظة الأبدية⁽³⁰⁾.

فالزمن الماضي في شعر مفدي زكرياء وبخاصة سجنياته كان لحظة تنوير، ولحظة إشعاع تواصل، ولحظة نورانية، لحظة الاتصال بالسماء، لحظة الفيض

المقدس، مما يجعل سجنه يعبق بكل ألوان الحياة، فيتوحد الذاتي بالموضوعي، والواقع بالمقدس وهذه من أجمل التناصات في شعره.

ب- التناص مع الزمن الطبيعي⁽³¹⁾:

إن المتأمل في سجنيات مفدي زكرياء يحس بتظافر الداخلي والخارجي، حين يتلاحم الزمن الكوني مع الزمن الآني ليصيرا زمنا واحدا، مما يجعل الدلالة عميقة: والصورة الفكرية الكلية تتشابك، فيبدو المقدس في جلاله صورة نابضة بالحياة والفرج، باعثا لأنواره من كل المسافات، وعبر الأزمنة ووفق تلك الأحداث الإعجازية التي تفرد بها المرسلون، أو غيرهم من بقية المخلوقات؛ هذا الاستحضار للحظات الكونية وإدماجها في الآني، أو إسقاط الآني عليها؛ لون من ألوان الروح الإيمانية الضاربة بجذورها في أعماق التاريخ الإيماني، والصراع بين الحق والباطل، مما ينقل إلينا أجواء الآني بظلاله، وأبعاده بشحنة تتألف فيها الأبعاد وتتناسق فيها مفردات الوجود، وهذا ما نراه حين يستدعي مفدي زكرياء الليل بوصفه زمنا كونيا لا يتغير؛ هذا الزمن الأولي السابق لكل الأزمان⁽³²⁾، زمن الظلمة والعتمة الكبرى، والذي تبلورت فيه مأساة الشاعر في سجن بربروس في 18 جويلية 1956 ليلة إعدام أول شهيد جزائري بالمقصلة (أحمد زبانا)، فاستدعى الشاعر حادثة محاولة صلب المسيح ليلا، مستلهما قوله تعالى: «وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه، وما صلبوه ولكن شبه لهم...»⁽³³⁾، كما يستدعي الزمن الليلي الذي بعث فيه موسى - عليه السلام - كما ورد في قوله تعالى: «فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون»⁽³⁴⁾، إضافة إلى حادثة المعراج ليلا للرسول محمد عليه الصلاة والسلام والتي يقول فيها تعالى: «سبحن الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير»⁽³⁵⁾.

فهؤلاء الأنبياء حدثت لهم المعجزات ليلا فكان الجامع لأحاديثهم هذا الزمن الكوني، لأن الليل تتوارى فيه أسرار الحياة لأنه ستر مستور من جهة، ومن جهة أخرى فهو مقدمة لصبح آت لا محالة، فبعده الفرج والضياء والحرية.

ولم يكتف بهذه الصور المستمدة من حياة الأنبياء، بل استدعى ليلة القدر وكيف تسامى (الروح) عليه السلام فيها، قارنا ذلك أيضا بمؤذن صلاة الصبح (في آخر الليل) - وهو زمن تنفيذ حكم الإعدام في الشهيد -، وبالطفل وهو يستقبل الصباح بكل براءة، لأن الجامع للكل هو "الليل"، هذا الزمن الكوني الذي حدثت فيه تلك الأحداث فهاهو يعيد نفسه ويحدث في هذه الليلة في بربروس، لأنه زمن مستمر، وحدث متواصل وإنما تغيرت أبطاله - المخلوقات -، ولعل هذا الاستدعاء يعود إلى حب الانعتاق من سوداوية السجن والواقع، فلم يجد "مفدي" أفضل من هذا الزمن الكوني ليعيش فيه حلما دافئا دافقا باللحظات النورانية حيث تتلاحم وشائج إيمانية وتتلاحق تلك الصور عبر الزمن الكوني بتلقائية موحية بالظلال والمعاني وانسيابية هادئة، وانتشاء بالموقف رغم ما فيه من رهبة من جهة ومن رغبة من جهة أخرى، رهبة ترابية، ورغبة روحية، حين تشدنا الترابية إليها رغبة في الحياة، وحين تجتاحنا الروح السامية سارية بنا في ملكوت الله، ولذلك فلا عجب أن يكون عنوان القصيدة "الذبيح الصاعد" لأنه استحضّر قوله - صلى الله عليه وسلم - «أنا ابن الذبيحين»⁽³⁶⁾.

ولذلك فاستدعاء الزمن الكوني يجعل التجربة تستمر، لأن المسلم لا تبدأ حياته منذ وعائها، ولا تنتهي بانتهاء عمره المحدود، وإنما تمتد حياته بامتداد البشرية ولا تنتهي بانتهائه كما يذهب "سيد قطب" - رحمه الله -⁽³⁷⁾.

فكان الليل هو المركز وقطب الرحي، للأحداث التي تتوالى، فما "أحمد زيانا" إلا واحدا من هؤلاء، لأن الكون ما تزال دورته طويلة، ونهاره يلي هذا الليل، يقول مفدي زكرياء⁽³⁸⁾:

قام يختال كالسيح وثيدا يتهاذى نشوان يتلو الشيدا
باسم الثغر، كالملاك، أو كالطـ فل يستقبل الصباح الجديد
شامخاً أنفه، جلالاً وتيها رافع رأسه يناجي الخلودا
رافلا في خلاخل، زغردت تمـ لأمن لحنها الفضاء البعيدا
حالما، كالكليم، كلمه المجـ دفشد الحبال يغني الصعودا
وتسامى كالروح في ليلة القدر سلاما يشع في الكون عيدا
وامتطى مذبج البطولة معـ راجا ووافى السماء يرجو المزيد
وتعالى مثل المؤذن يتلو... كلمات الهدى ويدعو الرقودا
هكذا يصبح الليل، هذا الزمن السرمدي، يحيا في كل المواقف، ونحيا فيه
كل المواقف، ليل يسدل ستائره على المؤمنين بعقيدة واحدة، عقيدة لا تبدل ولا
تتغير، تدافع الليل بحثاً عن إشراقة دائمة، ولذا يقول الشاعر⁽³⁹⁾ :

زعموا قتله وما صلبوه ليس في الخالدين عيسى الوحيدا

وبذلك يصبح الزمن الليلي رمزا للفداء والتحرر لأن ليلة أول نوفمبر فرضت
نفسها فكان كل ما يوحي بالليل دليلا على النهار، ولذلك راح الشاعر يجمع هذا
الزمن التقني الموضوعي ليكون دائرة كبرى تتواصل فيها كل الدوائر الأخرى ؛
دوائر الفداء والافتداء والابتلاء لأكرم الناس ممن حملوا تاريخ أهمهم أو حُمِّلوا
رسالات السماء أو براءة الحياة، وفطرة الانتماء ؛ بكل صفائها ونقائها وروحانياتها
وسماحة المثل العليا ؛ لأن "مفدي زكرياء" كان في محراب الإيمان وكان التاريخ مرآة
يستل منها ما يشاء من تلك الصور التي كانت في هذا الزمن الكوني أو حدثت فيه
لأن الرجل كان يعانق حياة أخرى وكان أقرب ما يكون بين الكاف والنون ولذا
كان ذلك الهمس وكانت تلك السكينة وكان الحلم الهادئ الواصل بين الأرض
والسماء لأن الرجل كان بين يدي خالقه ؛ فكانت صور الإنسان المظلوم المقهور

تحت أيدي جلاديه أقوى من هذا الجلاد الملثم الخائف ؛ فكان الشاعر إنساني الرؤيا ، رسالي المبدأ ، فكان كل شيء يعلو ولا يتسافل ؛ لأن الحق يعلو ولا يعلو عليه وبذلك كانت الصورة هي صورة الحق الذي يخرج من هذه الظلمات ، صورة الفجر الذي يتنفس غب كل ليل ؛ لأن الشدائد محك الرجال ؛ ومدار كل ذلك حسبما يتبادر إلى ذهني هو انطلاق "مفدي زكرياء" من ليلة القدر ، وليلة أول نوفمبر لأنهما في شعره شيء واحد ؛ الأولى من المولى العلي القدير والثانية من الأصفياء ؛ ففي الأولى تنزل الملائكة والروح فيها يأذن ربهم من كل أمر ، سلام هي حتى مطلع الفجر⁽⁴⁰⁾ ، والثانية جهاد وتضحية عبر تاريخ البشرية إلى يوم الناس هذا ؛ كلما كان الليل بزغ منه الفجر.

3- التناسل الإنساني (المعاناة الإنسانية)⁽⁴¹⁾ :

إن المتأمل في شعر مفدي زكرياء يحس بتلك المعاناة الكبرى ، ويتلمس تلك المشاعر الإنسانية النبيلة التي انتابته وهو تحت السياط ؛ فجاء شعره خواطر ، مناسبة الحركة ، متحرية للحق ، ناقلة للألم ، باثة للعذاب ؛ نقلا صريحا في ألفاظه ومشاهده بعيدا عن كل تهويل ومبالغة.

ولذلك تراه يقول⁽⁴²⁾ :

واخْشُرِي فِي غِيَاهِبِ السَّجْنِ شَعْبَا سَيِّمَ خَسَفًا فَعَادَ شَعْبَا عَنِيْدَا

واجعلي بربروس⁽⁴³⁾ مَثْوَى الضَّحَايَا إِنْ فِي بَرْبُرُوسٍ مَجْدَا تَلِيْدَا

إن الشاعر يكشف لنا ما في عمق بربروس من مآسي ، حيث العسف ، والخسف ، والإجرام في حق الضحايا. كما يكشف لنا من جهة أخرى عن الصمود والتحدي. وعن تلك الروح المؤمنة التي لا تؤثر فيها المصائب ولا تلين شوكتها أمام العواصف الهوجاء ، روح المؤمنين الذين يتعالون عن النكبة ، ولا يولون اهتماما للجسد الفاني ؛ لأن الروح في منأى عن الجلاد ، الباطش ؛ يقول مفدي زكرياء⁽⁴³⁾ :

سيان عندي مفتوح ومنغلق يا سجن بابك أم شدت به الحلق
أم السياط بها الجلاد يلهبني أم خازن النار يكويني فاصطفق
والحوض حوض وإن شتى منابعه ألقى إلى القعر أم أسقى فانشرق

فالشاعر مفدي زكرياء أنكر كل إحساس بالألم وانطلق في أجواء إنسانية من
غير هبوط أو انتكاس على ما في الموقف من الرهبة؛ لأن الشاعر مؤمن لا
يتصاغر، فهو في موقف المواجهة والتحدي ولذلك يبدو جسيم السجن المتلاطم
بالألم والعذاب لونا من ألوان "النيرفانا" التي لا تزيد الشاعر إلا إصرارا وسموا،
وتعال؛ أن هذا الأمل يجعله يغادر الزنزانة بروحه، فيحلق في أجواء حرة،
وطليقة، تلك الأجواء التي يهفو إليها، ويصبو إلى مرابعها؛ أجواء رومانسية
روحية؛ فإذا به يتبتل بتبتل النساك، فَتَسْلَسُ لغته، وترق حواشيها، وتتهامس
أصواتها؛ فيكون الانسياب، وتتألف الأفعال وتتوالد الصور متعرجة؛ صاعدة في
سياق سنفوني، وإيقاع نفسي جميل منعش، بوميض اللمحة الخاطفة، والطرف
الكليل، وإشراقة الوجود، فإذا بها لغة حية بعلاقات إنسانية، وليست لغة سقوط
ذهني على الأشياء⁽⁴⁴⁾. يقول مفدي زكرياء⁽⁴⁵⁾:

ورب نجوى كدنيا الحب دافئة قد نام عنها رقيبى ليس يسترف
عادت بها الروح من سلوى معطرة فالسجن من ذكر سلوى عبق

.....

هل تذكرين إذا ما الحظ حالفنا إليك أهتف سلوى فتفق

فالشاعر مفدي زكرياء ييوح لنا بمشاعره الإنسانية في زنزانة العذاب وهو تحت
السياط جسديا، وروحيا كان بعيدا، فهو في زمن الطفولة، والشباب، إذ إن روحه
في رحلة أشبه ما تكون برحلات ألف ليلة وليلة، إنها رحلة إلى شاطئ البحر على
ضوء القمر في إحدى الليالي القمرية؛ حيث البناء، والصفاء، والسعادة على

كرسي الوجود تتجلى بكل معانيها، فإذا لغته سهلة مناسبة للحلم، تتألف فيها الأفعال المضارعة « تهدهدني، تغريني، تنزلق، يغشيها، تنساب، نعتق، تلتحق، نسابق، تغرب »⁽⁴⁶⁾.

فكانت بذلك موحية بالواقع السجني، وبالأمل الذي ينشده الشاعر، والرجاء الذي يعيش به متحملاً للألم بسببه، وبخاصة حين استعمل الفعل المضارع الذي يعني استمرارية الحدث، وتواصله، وهو تعبير وفق فيه الشاعر وبعث الحياة في قصيدته التي بدورها بعثت فيه الحياة، وما زالت حية تشع بمعاني السمو الروحي، بل إن الكلمات التي عاضدت هذه الأفعال كانت أكثر دلالة على هذا الجو الإنساني المفعم بالرؤى، والأحلام، والأطياف، فإذا بنا أمام « سلوى، عبق، الغسق، الموج، سرين، الشفق، رفق، فتنة الروح، نفترش، الرمل، ملاة السمن، تطوي سرين »⁽⁴⁷⁾.

إن هذه اللغة تفوح بحروف الهمس « ت، ح، س، ش، ف، ك، هـ... الخ »؛ حيث نحس بتجربة الشاعر ومعاناته، ونشتم رائحة المناجاة ونتخيل أطياف الانعتاق من الواقع المرير، ونسرح مع الشاعر، وبخاصة حين نتأمل الجمل التالية: « نجوى كدنيا الحب، يا فتنة الروح، لحن الموج يطربنا، نفترش الرمل، الموج ينقل في أصدائه قبلا، نغزو الشمس بزورقنا، يسخر المرج منا كيف نلتحق... الخ »⁽⁴⁸⁾.

فهذه اللغة تتساقق فيها المفردة، والفعل، والعبارة، والكل يتساقق مع دقائق الشعور، وسبحات الخيال مما يوحى بالمعاناة، كما أنها ترتبط بالحياة، بالوجود، بالأمال، إنها لغة الخاطرة الشعرية السامية ولذلك استطاعت قصيدة مفدي زكرياء أن تغرس جذورها في واقع الشعب الجزائري، وأن تجد لها قراء أوفياء لأنها كانت وليدة الظلام، وانبعثت من الذات المتألمة تحت السياط؛ ولأنها ترسّمت خطى الحياة في إيقاعها، وغنائيتها فكانت نابضة بالرؤى الجميلة، طافحة بالعواطف النبيلة؛ إنها قصيدة الصراع مع الحوائل؛ تحمل في ظاهرها صوت الذكرى، صوت الحق، صوت الخير، وفي باطنها تحمل صوت الألم، والعذاب، ولذلك تدفقت في

حرم الحياة بصورة متكاملة، متسلسلة لتكوّن الصورة الكلية أو الفكرة الخزينة، فكانت بذلك القصيدة السجنية عنده: إنسانية تعبر بالصورة عن وعي الشاعر في أتون اللهب المقدس وفيافي الحياة، وزننات العذاب، تتأزر فيها الخطوط والألوان؛ إنها القصيدة « المتعاطفة مع آلام الإنسان وأحزانه، الباحثة له عن مرائي السعادة »⁽⁴⁹⁾ وكل ذلك استدعاء للحس المأسوي في الشعر الرومانسي⁽⁵⁰⁾ العربي عموما والإنساني خصوصا.

إنها قصيدة المعاناة الحقيقية ولذلك تتهادى فيها الروح، وتشف عن بارق الاحتراق، وواقع الآلام، ودفع الأحلام؛ فكان فيها المحدود، واللامحدود، فاقترن فيها الألم باللذة؛ إمتاعا للمشاعر، وإدهاشا للعقل ببثها، ونجواها، موحية بالحس المأسوي الإنساني؛ بطاقة إيجابية مما عمق الرؤية.

4. التناسخ الثوري الوطني (الروح الوطنية):

لقد كان البعد الوطني في سجنيات مفدي زكرياء ينسكب في الروح ويجري في الدم؛ بحسب سام مرتبط بالرافد الأول؛ الرافد الذي يرتبط بالسماء، بالحق، بالعدل، بالإخاء، بالتححرر من عبودية الإنسان، ولذلك كانت صورة الوطن، أو الموطن لا تفارق الشاعر في يقظته ومنامه، في ليله ونهاره، حيث انغرس هذا الوطن في كل كيانه لا تمحو الآلام صورته من ذاكرته ولا تستلها من وجدانه، مما ضخم هذا الحب إلى حد العبادة؛ لأن الوطنية إطلالة علوية ترسم اتجاهها فسيحا نحو العالم الحر؛ العالم الذي يريده السجين ويصبو إليه، ولذلك كان مفدي زكرياء في سجنه يعرج على مواقع الذكريات ويستحضر صورها، فنكاد نشتم رائحة هذه الأرض في أشعاره⁽⁵¹⁾، فإذا للهب المقدس نار، ونور، ورائحة دماء، ودخان حرائق، ودمار، وكل ما ارتكبه العدو من وحشية لا تضاهيها وحشية إلا ما حدث للمسلمين بالأندلس في مكاتب التفتيش، أو ما وقع للهنود الحمر في أمريكا، ولذلك فلا عجب أن يصرخ قائلاً⁽⁵²⁾:

أحبها مثل حب الله أعبدها آمنت بالله لا كفر ولا نزق
أرض الجزائر في إفريقيا قدس رحابها من رحاب الخلد إن صدقوا
إن هذه الصرخة تكشف لنا عن وطنية عميقة الجذور، أصيلة في النفوس،
لأنها صادرة من الاكتواء بنار العبودية، ولوعة البعاد، ووحشة السجن، ومحنة
الأم، وهذا الموقف مشهور في شعر السجون⁽⁵³⁾.

وبذلك يصبح التعلق بالوطن ضربا من الصوفية، بل هو ضرب من الجنون
«إطلالة علوية لا تخطئها المبالغة»⁽⁵⁴⁾، فتكون الصور الحاملة التي ترسخ هذا
الحب في الوجدان، وتوصل الشاعر بالأهل، وإذا هو لون من التواصل الحي بين
الأنا والآخر، بين العذاب والهناء، بين السعادة والشقاء، ولذلك يغادر الشاعر
زنزائته إلى مسقط رأسه، ويروح محلقا في الأجواء راسما تلك المناظر الخلابة بلغة
تأثيرية بعيدة كل البعد عن تلك اللغة المباشرة، الخطابية المججلة، فإذا قصيدته
تندفق بالمشاعر، وتنسكب بالأحلام، وتتماوج فيها الصور، يقول مفدي
زكرياء: (55)

وفي صحرائنا تبر وتمر كلا الذهبين راق بها وطابا
عراض كالحجرة مشرقات عسالجها انسكبن بها انسكابا
يدغدغ تحتها الغنام نايا فينطق من فم الغنم الربابا
يدلي في الغدير الحلو ساقا وبالكفين يغترف الشرابا
ويستلقي بحافته يناجي إله العرش يسأله متابا

إنها صورة الموطن الحاملة التي لا تزيد الشاعر السجين إلا تعلقا بوطنه، ومرايح
أهله، وذكريات قومه، إنها لوحة من لوحات الرومانسيين الذين يصبح الوطن
عندهم رمزا للحب، حيث تتماثل فيه الأشياء، وتساوق الأفكار، وتعتزج
المعنويات بالماديات لتكون هذا الوطن العظيم كما يقول⁽⁵⁶⁾:

وقل الجزائر واصنع إن ذكر اسمها تجد الجبابر ساجدين وركعا

إن الجزائر في الوجود رسالة الشعب حررها وربك وقعا

هكذا تتجاوز قصائد الحس الوطني في سجنات مفدي زكرياء اللحظة الراهنة، والحس الذاتي، واللحظة العابرة إلى الأرجاء الفسيحة، حيث المبادئ الإنسانية السامية، والحب الصوفي، حيث التعلق الكبير بهذا التراب، وتلك المقومات الأساسية من دين، ولغة، وتاريخ، ووحدة مصير ومآل، ومما لا يمكن حصره في هذا المجال.

5- التناص المستقبلي (الهواجس⁽⁵⁶⁾ المستقبلية):

إننا حين نتأمل سجنات مفدي زكرياء نلمس تلك الهواجس الحارة المنبعثة من ثابا قصائده؛ لأن الكون الشعري في شعر السجون يكافئ في صورته الرمزية الكون الطبيعي لأن الشاعر السجين يعيش في دوائر مغلقة تحتوي كل دائرة دائرة أكبر منها، وهذه الدوائر هي ذات الشاعر السجين التي تعيش فيها المخاوف ويكتنفها القلق؛ هذه الدائرة تسع دائرة أخرى هي دائرة الألم والعذاب والتي ينتج عنها الشوق والحنين حين يصطدم الشاعر بالحوائل أي بدائرة الحبس المغلق، فيختلج القلب بالشوق وتعتلج الجوارح بالحنين فيرسل آهاته، ويصعد زفراته في أنغام شجية حزينة لاختراق الأسوار وبخاصة في المناسبات والأعياد، وحين تطغى الدفقات الشعورية، والعاطفية مما يمدد التجربة لتشمل الأمة قاطبة، فتكون بذلك رسائل الشوق على رنين السلاسل، وأنغام البطولة على توقيع السياط، حينها يتسامى الشاعر ويعيش أحلام اليقظة، ويسرح في الماضي برؤى نكوصية⁽⁵⁷⁾ إلى عهد الطفولة؛ فنعيش إعصاراته، وندخل إلى عالمه الذاتي الداخلي، وإحساسه بالزمان والمكان، حين تستبد بذهنه مشاعر الاضطهاد، وتستولي على خياله حقيقة الحبس، فإذا بنا أمام «خازن النار، والجلاد، والأصفاد، وأحواض الماء، والكي بالنار، والسياط... الخ».

ولعل ما يوسع هذه الدائرة اختلاء الشاعر بنفسه ليلا فتلفه سياط الغربة، ومشاعر الألم، وهواجس الخوف والقلق، فيروح مغنيا آلامه، باثا أحزانه، موقعا شعوره على رنين السلاسل، وجراح الحياة. يقول في رسالة من رسائله⁽⁵⁸⁾ :

أسرى بها من بربروس خياله وهفت به لحماكم الأحلام
غنى بها في الليل يعزف لحنها وقع السلاسل...والرفاق نيام
والقلب بالأنات يقطع بحرها دقائه: الأوزان والأنغام

ولا عجب في ذلك حيث « لم يكتم الرجال الأشداء الذين عرفوا بسمو المطلب، والمنزلة، وبمعاناة الأخطار؛ لم يكتموا عندما هالهم ظلام الحبس الوهن الذي تملك نفوسهم في عزلتهم بين الذل والخوف »⁽⁵⁹⁾ وبخاصة حين يشاهد الشاعر مظاهر الإعدام، ويحس بالفاجعة، فيسيطر عليه القلق، وتحفه المخاوف، وهو لا يستطيع أن يفعل شيئا، ومن ذلك قوله⁽⁶⁰⁾ :

وإن جفاني ذووقرى، فلا عجب إن النبوة في أوطانها خرق
لا زلت أرعى لهم عهدا، وإن بقيت مثل المدى، من جفاهم في الحشى حرق
حسبي، وحسب أناسي أن غدوت لهم عودا يعطهم ذكري واحترق

ففي السجن - حين يخلو الشاعر بنفسه - تستيقظ الذات الداخلية، وتنشط نشاطا عظيما، وبخاصة في الليل، وأوقات السكينة، وفي المناسبات والأعياد، أو بعد العذاب الجسدي أو المعنوي، حيث تتجسد أمامه المأساة، ويحس بالزمن، وهذا ما نحسه من خلال هواجسه؛ إذ إن الشاعر بعد أن حلل الأوضاع، اختلطت عليه التصورات، وتزاحمت صور الألم، والحزن عليه، وانحسر الرجاء، وطفئت الموجات العاطفية فإذا به يحس بتخلي أهله عنه، وهذه حالة إنسانية كبرى عاشها معظم الشعراء والسجناء، ومن هؤلاء أبو فراس الحمداني⁽⁶¹⁾ الذي استدعى

الشاعر معانيه لأن الموقف هنا كالموقف هناك، والسجين هنا من أجل قضية كالسجين هنالك أيضا.

ولعل هذا ما جعل الدكتور محمد ناصر يقول: « وقد تمر به لحظة الضعف النفسي حين تعصره وحشة السجن، حين تتيقظ مشاعر الاغتراب في أعماقه حادة شائكة قد تصل به لحظة اليأس أحيانا »⁽⁶²⁾.

وفي مثل هذه الهواجس يمزج السجين بين الحقيقة والخيال مما يؤدي إلى حالة إحباط كلية تجاه العالم الخارجي »⁽⁶³⁾، ولكنه في الوقت نفسه كان يستشرف المستقبل وكأنه يقرأ كف الزمن الآتي ولعل ما نحن فيه الآن من عطر شعره وروائع آلامه التي نسمعها - الآن - خير ما يدلنا على ما كان يقوله الشاعر:⁽⁶⁴⁾

وإن جفاني ذوو قربي، فلا عجب إن النبوة في أوطانها خرق
لا زلت أرعى لهم عهدا، وإن بقيت مثل المدى، من جفاهم في الحشى حرق
حسبي، وحسب أناسي أن غدوت لهم عودا يعطرهم ذكري واحترق
فهذه الهواجس ولدت التعبير العفوي المثل بالطلاق، دون تمويه للحقيقة النفسية التي يحياها الشاعر، ويعيشها صباح مساء لأنها الحقيقة الإنسانية في ساعات الخوف، وليالي القلق بسبب انطواء السجين على نفسه مما يؤدي إلى تعدد الوسواس واثتال الهواجس، مما أدى به في أكثر الحالات إلى استشراف الواقع في كثير من سجنياته مما لا يسمح به المقام في مثل هذه العجالة.

وعلى العموم تلك بعض اللمسات التأملية التي حاولنا استلالتها من هذا الشعر الذي يبقى خاضعا لسياقه التاريخي، والبيئي لأن بيئة السجون ليست كبقية البيئات الأخرى، ولذا تلونت خارطة اللمس المقدس بمظاهر الكون والحياة، وثنائيات الألم والفرح، والشكوى والحنين، وما إلى ذلك من أهم خصائص هذا الشعر السجني كالقوة، وثنائية الخير والشر، وصراعهما في الحياة، واستمرارية الخط

الجهادي عبر الأزمنة متشابها متصلا بالنبع الأول؛ نتيجة لابتناء ابن آدم منذ الأزل، ونزوله إلى هذه الأرض التي سفكت فوقها الدماء ورفعت رايات السماء.

كل هذه الخواطر يمكن استلالها بسهولة تامة من لهب مفدي زكرياء لما فيها من تداخل داخلي وخارجي بصلات إنسانية، إبداعا وصورة وتعبيرا وتشكيلا لأنها تعلن عن نفسها من حيث الإيقاع والتناغم والاستجابات الحداثيّة؛ وهذا التناص يكشف لنا الظاهرة الفكرية والفنية المعتمدة على استدعاء الماضي بخاصة عند مفدي زكرياء وعن كيفية توظيفه وتشكيله جماليا حين يندمج بالموقف فإذا النص السابق طافيا في النص اللاحق وكل ذلك لنضع أمام القراء بعض تأملات في شعر مفدي زكرياء الذي شاع عنه أنه شعر كلاسيكي مباشر خطابي أني مناسباتي.

الهوامش والمراجع :

- (1) أحمد رضا، معجم متن اللغة، منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت 1960، ص 472.
- (2) أنظر، د/ عبد الواحد لؤلؤة، من قضايا الشعر العربي المعاصر، التناص مع الشعر الغربي، مجلة الوحدة، السنة السادسة العدد 83/82، يوليو أغسطس 1991، ص 14.
- (3) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق مجموعة من الأساتذة، دار المعارف، مصر ج 6، دون تاريخ، ص 4442.
- (4) Kristena Julia, Sémiotica, Trad, Madrid, 1981, page 66.
- (5) يوسف زيدان، الشعر الصوفي المعاصر، مجلة فصول، الفصل الخامس عشر، العدد الثاني صيف 1996، ص 154.
- (6) حاتم الصكر، قصيدة النثر والشعرية العربية الحديثة، مجلة فصول، المجلد الخامس عشر، العدد الثاني صيف 1996 ص 85.
- (7) و (8) حسن محمد حماد، تداخل النصوص في الرواية العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب/ مصر 1998، ص 17.
- (9) أنظر عمر أوكان، مدخل إلى دراسة النص والسلطة، إفريقية الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1991، ص 50- 51.
- (10) أنظر: مفدي زكرياء، اللهب المقدس، المكتب التجاري، بيروت، 1961، ص: 5.

- (11) نظر، تعاريف النار، غاستون باشلار، النار في التحليل النفسي، ترجمة نهى خياطة، دار الأندلس بيروت، ط1، 1984.
- (12) انظر: حواس بري، شعر مفدي زكرياء، دراسة وتقويم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1، 1994، ص: 360.
- (*) طائر أسطوري تروي الأسطورة أنه حين يحترق ينبعث من رماده.
- (13) مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص: 326.
- (14) المصدر نفسه، ص: 26.
- (15) لأنبياء/69.
- (16) الأنبياء/70.
- (17) مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص: 17.
- (18) الألوسي، روح المعاني، 68/17، وانظر الحديث في صحيح البخاري عن أبي بن كعب، وانظر: د/فضل حسن عباس، القصص القرآني، شركة الشهاب، باتنة، الجزائر، د. ت، ص: 161.
- (19) مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص: 25.
- (20) انظر: حياته في: د/عبد الحليم محمود شيخ الشيوخ، أبو مدين الغوث، حياته ومعراجه، دار المعارف مصر، ط2، 1993.
- (21) مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص: 31.
- (22) المصدر السابق، ص: 3.
- (23) المصدر السابق، ص: 43-44.
- (24) انظر: إشكالية الزمن، غاستون باشلار؛ جدلية الزمن، ترجمة خليل أحمد خليل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.
- (25) مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص: 30.
- (26) مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص: 34.
- (27) غاستون باشلار، جدلية الزمن، ص: 65.
- (28) البقرة/106.
- (29) مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص: 137.

(30) انظر: عبد الصمد زايد، مفهوم الزمن ودلالته، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، 1988، ص 17، 18.

(31) أنظر محمد بابا عمي، الزمن في القرآن رسالة ماجستير جامعة الجزائر 1999.

(32) انظر: يس/40، «ولا الليل سابق النهار».

(33) آل عمران/55، وانظر: النساء/157-158.

(34) القصص/29.

(35) الإسراء/1.

(36) انظر قصة ذبح عبد الله أبي الرسول ﷺ في ابن هشام السيرة النبوية، دار إحياء التراث العربي - لبنان، ص: 164.

(37) انظر: سيد قطب، رسالة إلى أخته من السجن.

(38) مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص: 10، 09.

(39) مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص: 11.

(40) سورة القدر.

(41) أنظر مفيد محمد قميحة، الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، منشورات دار الآفاق

بيروت، ط 1، 1981، ص 479 وما بعدها

(42) مفدي زكرياء، اللهب المقدس، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشئون الدينية،

الجزائر، ط 1، 1973، ص: 18.

(43) من أكبر السجنون الذي خصصته فرنسا لمعتقلي الثورة الجزائرية وقد تحول إلى متحف بعد الاستقلال.

(43) مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص: 18.

(44) انظر: د/أنس داود، الهلال، عدد 8، السنة 84، 1976، ص: 127.

(45) مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص: 22.

(46) نظر: مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص: 23، 22.

(47) انظر: المصدر نفسه، ص: 23، 22.

(48) انظر: مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص: 23، 22.

(49) أنظر: د/عبد الكريم بليغ، حركة التجديد في شعر المهجر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1980، ص: 208.

- (50) أنظر، د/أنس داود، التجديد في شعر المهجر، ص 354- 355.
- (51) أنظر: د/صالح الخرفي، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص: 255.
- (52) أنظر: د/صالح الخرفي، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص: 255.
- (53) أنظر، أحمد مختار البزرة، الأسر والسجن في شعر العرب، مؤسسة علوم القرآن، دمشق بيروت ط1، 1985، ص 23 ... إلخ.
- (54) د/صالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، ص: 255.
- (55) مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص: 33.
- (56) المصدر السابق، ص: 58.
- (*) هي مجموعة أفكار وتصورات تفرض نفسها على ذهن بشكل مضائق ولا يستطيع الفرد طردها أو هي تدخل فكرة في الفكر الواعي مما يؤدي إلى القلق،
- (57) أنظر: أمين طليح، التقمص، منشورات دار عويدات - باريس، 1980، ص: 125.
- (58) مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص: 52.
- (59) د/أحمد مختار البزرة، الأسر والسجن في شعر العرب، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، بيروت، ط1، 1985، ص: 473.
- (60) مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص: 29.
- (61) أنظر: أبا فراس الحمداني، الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، 1979، ص:
- (62) د/محمد ناصر، الأصالة، عدد 89، 90، الجزائر، ص: 122.
- (63) أنظر: د/عباس محمود عوض، في علم النفس الاجتماعي، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ص: 61.
- (64) مفدي زكرياء، اللهب المقدس، ص: 29.

تحولات النص الشعري المغاربي المعاصر

إعداد

د. عبد الحميد هيمّة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية . جامعة ورقلة . الجزائر



ملخص

يتناول هذا المقال عرضا للمشهد الشعري المغاربي المعاصر (بتونس والجزائر والمغرب) ، يسعى لإبراز أهم الملامح الفنية المميزة لهذه التجربة التي شهدت انفتاحا كبيرا على مستوى التجريب نقل الكتابة الشعرية إلى آفاق إبداعية متعددة.

Résumé

Cet article est une exposition de la saine poésie contemporaine en Tunisie , Algerie, Maroc. et vise à éclaircir les signes esthétique de cette experience qui a connu une large ouverture au niveau experimental soit, transmetre la redaction poétique à des perspectives créatives diverses

يكفي أن نقرأ « مقدمة المشهد الشعري في المغرب »⁽¹⁾ حتى نقف على نزعة التمرد على الشعر السبعيني من طرف جيل الثمانينيات ، وهذا التمرد لم يقتصر على الشعر المغربي ، بل تجاوزه إلى الشعر الجزائري ، والتونسي ؛ إن « التمرد والثورة ، والإحساس العميق ، والسير دوماً إلى محبة المثل العليا هي طبيعة الفنان ، وهدفه ؛ الفنان دوماً ينفذ إلى أعماق الأعماق ، ويشعر دوماً بمحبة أكيدة لكل ما في الطبيعة ، والوجود ، فيحميها من الأذى ، ويحتويها كلها في قلبه لتحيا خالدة »⁽²⁾.

فإذا كان الاشتغال على اللغة في مرحلة السبعينيات محدود جداً ، بسبب التركيز على العروض ، وظهور الهاجس السياسي ، فإن مرحلة الثمانينيات ، والتسعينيات شهدت انفتاحاً كبيراً على مستوى التجريب ، "وبدل الخوض في مسألة الالتزام أو

إغناء الشعر بالأسطورة وهما مسألتان شغلنا العديد من الشعراء في المشرق العربي، تمكن الشاعر المغربي من نقل السؤال إلى قضايا الكتابة ومضيقها، وكيفيات الخروج من الصنعة، والإنشاء لتحويل الممارسة الشعرية إلى كتابة، وفعل وجود⁽³⁾.

وهكذا استطاع الشاعر أن يطور ثقافته ويعمق زاده المعرفي، وهذا فتح الممارسة الشعرية على أصقاع جديدة كان من نتائجها تحول الشعر من مجال الموهبة إلى فضاء التقنية والمعرفة، ومن أحادية الأسلوب إلى تعدد الأساليب.

إن الشاعر المعاصر "لا يستظل بظل الشعر، بل يهبه من معارفه ما يفتح قدام الممارسة الشعرية أكثر من أفق معرفي، والمعرفة في هذه الحال لا تدخل الضيم على الشعرية بل تعضدها، ولا تفضح عجز منتج الخطاب بل تدل على اقتداره، وهي لا تجسد الارتجال بل تجسد الصبر على مجاهدة الكلام، ومغالته حتى يفهم بمقاصد مبدعه، بل إن الوعي المعرفي الذي يصدر عنه الشاعر يحمل في تلاوينه ما يجعل منه طاقة محرّكة تكشف أن الإبداع إنما يطلع في جانب كبير منه من الكد ورشح الجبين"⁽⁴⁾.

إن هؤلاء الشعراء يجمعون بين الموهبة، والمعرفة بمفهومها الواسع، مما يجعل منهم أصواتا متفردة ذات مميزات خاصة بكل واحد منهم، فأنت عندما تقرأ على سبيل المثال لمحمد بنيس، أو محمد الخالدي، أو عثمان لوصيف، أو محمد علي الرباوي تشعر بأنك تقرأ لتجارب جديدة غير مكررة بل إن لكل تجربة فرادتها، وخصوصيتها خاصة على صعيد اللغة، وإن كانت هذه الإبداعات تشترك "في هاجس موحد يعود لحس الفجعية، وفضاعة الواقع الموبوء، وعظمة الأزمة التي امتد لهيبتها، فالشاعر إما مخمور بكأسه، وإما محتّمياً بظل امرأة، وإما هارباً إلى فوضاه، أو إلى جحيم عراه يستوقف الذكرى، ويسترجع أيام الطفولة بحيث يستأنس بمداعبات ظلالها والاستغراق في حلاوة أيامها"⁽⁵⁾.

وقد نتج عن ذلك بروز ظاهرة الاغتراب لدى شعراء ما بعد السبعينيات، وهو ناتج عن إحساس بالتناقض، وعدم الترابط بين الشاعر، والواقع العربي الذي يعاني منذ هزيمة 1967 انتكاسة حضارية عامة، وهنا يقع الشاعر في محنة الانفصال عن الواقع المعيش، والرغبة في الاتصال بواقع مغاير، "بحيث تتجلى الهوية عميقة بين إحساسات مرهفة تغرق بفيض عواملها الشفافة، وبين واقع أرضي جحيمي فتعلن الذات - بوعيها الحاد - انفصالها المؤقت، والبحث عن البديل اليوتوبي"،⁽⁶⁾ وهنا تبرز المفارقة بين طموح الذات إلى عالم المثالي، وواقع مأساوي سوداوي ينبئ بالدمار والهلاك، فينفصل الشاعر عن العالم المادي ويهرب إلى العالم الأمثل، عالم التوحد بالمطلق.

ولا غرو أن تتلون نصوص ما بعد السبعينيات أو الشعر الجديد بلون الحزن، والتزق، والضيق، والضياع، والرؤيا المشائمة. "فلم يتحقق [في الجزائر] طموح الكادحين والفقراء والفلاحين كما كان يحلم به أحمد حمدي وعبد العالي رزاق وحمري بحري ... ولم يكن هؤلاء البسطاء الذين كانوا خاماً لحلم الشعراء إلا التعاسة مما كانوا يأملونه من ثوراتهم الثلاث (الزراعية والصناعية والثقافية)، فلم يخفف الظلم الاجتماعي، ولم تسقط الإمبريالية، بل تهاوت الأوهام الشيوعية، والاشتراكية كجلمود حطه نظام العولمة من عل"⁽⁷⁾ وازدادت شراسة الهجمة الصهيونية على فلسطين، وجبروت الطغيان والهيمنة الأمريكية، وانتشار الاستبداد السياسي، وانعدام الحرية والتعفن السياسي.

ولسنا هنا بصدد تقديم مقارنة سوسيو تاريخية، ولذلك نكتفي بهذه الإشارات السريعة للواقع العربي، ونرجع لمساءلة المتن الشعري، ومحاولة الاقتراب من هذا النص الشعري المختلف فمن سمات هذا النص الشعري المختلف عدم وجود هوية موحدة، فهو منفتح متعدد الجذور لا تشرف عليه أبوة متسلطة، ولا مرجعية محددة، تحد من جموح مغامراته الإبداعية⁽⁸⁾، وإنما هو نص مثله في المغرب أصوات شعرية جديدة، وهو ما يعبر عنه منذ 1987 بـ "التجربة الشعرية الجديدة"⁽⁹⁾ وهي أصوات تؤرخ لزوال السياسي، وتراجع الكثير من القيم،

والمعتقدات السالفة، وتؤسس لمرحلة جديدة⁽¹⁰⁾ في فهم الشعر يتجلى في تغيير مساره، وإحداثه لخلخلة في جسد اللغة، فلم يعد الشعر "أدباً بالمعنى المصطلح عليه؛ وإنما أصبح تساوياً حول جوهر الإنسان والوجود، ورغبة في تغيير صورة العالم؛ إنه باختصار، إعادة صياغة للإنسان وللوجود"⁽¹¹⁾.

وفي تونس كما في المغرب نجد أن "الممارسة الشعرية الجديدة لا تعدو أن تكون حركة أفراد يتفاوتون موهبة، وثقافة، ومعرفة باللغة ونواميسها، وحقها لآليات هذا الجنس الأدبي"⁽¹²⁾.

وتستوقفنا في هذا المجال أسماء كثيرة نذكر منها: محمد الخالدي الذي يعد واحداً من أهم الأصوات الشعرية المغاربية، وأكثرها تفرّداً خاصة على صعيد اللغة، "فهو يحتفي بها أيما احتفاء حتى لتتحول إلى غاية تطلب فلا تكاد تدرك لصعوبتها وتمنعها، وقد افتتن بها منذ نشأته، وربما كان ذلك بسبب قراءاته المبكرة، فهو يذكر بأنه لم يتأثر في مراهقته لا بالشابي ولا بجبران وغيره من شعراء المهجر كغيره من أتريابه، بل كان يعجب أكثر ما يعجب بشعراء المدرسة الرمزية اللبنانية مثل: الأخطل الصغير، وأمين نخلة، وفؤاد سليمان، وإلياس أبو شبكه بصورة خاصة"⁽¹³⁾.

من هنا جاء احتفاء (محمد الخالدي)⁽¹⁴⁾ وافتتانه باللغة إلى حد جعلها وطناً بديلاً بعد الإحباط الذي أصاب الأمة العربية جراء انهيار جميع قلاعها، وإفلاس كل خطاباتها "ولم يبق من صرح قائم سوى صرح اللغة فلاذ به الشاعر، وهكذا أصبح للغة وظيفة أخرى غير وظيفتها الأصلية؛ إذ تحولت إلى شكل من أشكال المقاومة بعد سقوط جميع الجبهات الأخرى"⁽¹⁵⁾.

يقول الخالدي في حوار أجراه معه (محسن بن أحمد) في جريدة الصباح الأسبوعي: "إن الكتابة كانت وستظل بالنسبة إليّ شكلاً من أشكال المقاومة، إنها النسخ الذي يمدني بالطاقة لمواجهة هذا العالم بكل ما فيه من قسوة وبشاعة وهي إلى ذلك عالمي البديل أقيم فيه ممالك بعيداً عن كل رقابة"⁽¹⁶⁾، وديوان "المرائي

والمراقبي " خير دليل على احتفاء الشاعر باللغة ، فهو يشيد بها ويشيد بتفوقه في ميدانها :

مَدَّد .. مَدَّد .. مَدَّد
سبحاني لم يبلغ شأوي أحدُ
مَدَّد .. مَدَّد .. مَدَّد
لغة ما فك مغالقتها أحدُ
وسماء لم يرق مراقبيها أحدُ
وطواف ما بين الأرض
وبين سماء رفعت
لم يدرب به أحدُ
مَدَّد .. مَدَّد .. مَدَّد
أبد من نور
وتخوم شاسعة
ما طاف بها أبداً أحدُ
مَدَّد .. مَدَّد .. مَدَّد
حق لمثلي أن يشمخ
ليس كمثلي أحدُ (17)

ولكن هذه اللغة تعجز أحياناً عن استيعاب رؤيا الشاعر ، وارتداد العوالم التي يحلو للشاعر أن يبحر فيها :

لغتي تضيق
ماذا لو اتسعت حروف الأبجدية
فأقول معراجي ورؤياي النية
ماذا لو اتسعت فيهدأ في دمي هذا الحريق
أتوسل اللغة العصية تنثني

مالي وللرؤيا النبية تصطفيك فلا أطيعُ
أنى لهذي الأجدية أن تروّد مجاهلاً
من لألّ ألقٍ فلا يجتاحها هذا البريقُ
لغتي تضيق
وكلمًا راوڈئها جفَلتُ
لتركني وفي دمي الحريق (18)

إن المراتبي والمراقي ليست تجربة لغوية فحسب، وإنما هي تجربة روحية تستمد مناخها من التصوف الإسلامي، بل هي "مشروع شعري" (19) كما يقول الشاعر نفسه، تتميز "بالعمق الروحاني الذي يسعى إلى تمجيد كل ما هو طهراني نازع إلى البراءات في عرفانية شفيفة تتراقى إلى الجليل من المعاني المتعارف عليها عند المتصوفة" (20)، ولكنها لا تقف عند المعاني الصوفية القديمة، وإنما تنخرط في أسئلة الواقع، وهمومه اليومية، وهي معادلة من الصعب أن يحققها كل الشعراء، ولكنها تحققت عند بعضهم، ومن هؤلاء نجد في الجزائر الشاعر (عثمان لوصيف) (21) الذي يعد من أكثر الشعراء امتلاءً بالفيض الصوفي، ولعل ما يميز شعره هو بروز ظاهرة الاغتراب، والقلق، والرغبة في الانسحاب من الوجود لأنه مصدر ما يعانیه من شقاء، وتشتت، وجفاف روحي، ولذلك نجده يبحث عن واقع أسمى، عن ملاذ روحي، عن وطن جديد، عن الجوهر المفقود، ويسعى لخلق وجود مواز في هذا العالم الشعري، يقول عن نزعتة الصوفية: "النزعة الصوفية متجذرة في حياتي منذ الأزل، وهي عندي رؤية ومعاناة ورسالة سامية لإنقاذ البشرية، لقد انتهى عصر النبوات وعلى الشاعر أن يكون نبيّ العصر، والصوفية عندي ليست شطحاً أو دروشة، وليست انزواءً أو انطواءً بل هي ثورة شعرية لتغيير الواقع والسمو بالإنسان إلى منابع روحه الأولى، إنها فيوضات المحبة والخلاص، وإنني أحاول أن أسس لصوفية جديدة" (22).

وفي هذا الصدد يرى أحد النقاد أن الخلاص من محنة الغربة التي تحدثنا عنها "إنما هي رهينة بتنمية ملكة الرؤى، والكشف الصوفية، وأن وصول الإنسان إلى

لحظات الكشف هذه تحرره من التفكير العقلي المجرد الذي أثبت أنه غير قادر وحده على إدراك أي معنى حقيقي" (23)، وهنا تكمن المفارقة بين طموح الذات إلى العالم المثالي، والواقع المأساوي الذي تحيا فيه، والذي ينشئ بالدمار والهلاك، فلا تملك هذه الذات إلا الهروب إلى العالم المطلق إلى مملكة الله:

هابطاً أرضك المستكنة في رعدة السهر

أفتح في روضة الأبدية دربي

وأدخل مملكة الله ..

أخلع نعليّ

أمشي على التوت والأقحوان السماويّ

أوغل في غبش الصلوات وأهتف باسمك

أدنو من العرش

ألفاك .. يا امرأتي المستحمة بالنور

أطلق عصفورة الناي

أقرأ تعويذة العشق

أرفع عن وجهك القدسي الحجاب

وأسجد عند التجليّ (24)

يقدم الشاعر هنا رؤية كشفية تصدر عن حس سوربالي ما ورائي عميق يسعى إلى تجريد العالم من ماديته، ووصل الكيان الإنساني بالعالم الكلي (المطلق) بحثاً عن مخرج لتعاسته في هذا العالم الضيق الذي لا يتسع له واجسه، ورغباته في التوحد، ومعاينة المطلق، ولذلك فهو يوغل في الفناء، ويدنو من ينايع التجلي ليرى أنوار المشاهدة، ويستمر (عثمان لوصيف) في رحلته الصوفية مفجراً حينه إلى رؤية النور، وهذه الرؤية لا تتحقق إلا بالسجود، ولا تتم إلا في حالة الغياب عن الحس أي في حالة السكر:

في السجود أراك

فأغمض عيني من نشوة الخوف
أغمض كي أتأمل وجهك أكثر
ياخذني سحر عينيك
أغرق من دفقات الجمال وأغرق في الفيض ..
(25) أسكر

وهذا النص كما نرى دعوة لمجافة الواقع بما هو مرئي ثابت، ومعاينة الباطن بما هو سري وغير ثابت، ولعل هذه هي نقطة التقاطع بين الصوفية والسوربالية⁽²⁶⁾ والتي تكمن في اعتمادهما مبدأ الرفض للواقع، والبحث الدائم عن (الواقع الأسمى)، وهنا يلتقي عثمان لوصيف مع الخطاب الأفلوطيني، الذي جاء فيه: "من أراد أن يدرك النفس والعقل والآنية الأولى، فينبغي أن ينكمش إلى ذاته، ويهجر عالم الحس ويغيب عنه بقدر إمكانه، ويرفض الحواس، ويستعمل القوى الباطنية، فحينئذ يبصر من داخل إبصاراً حقيقياً، وينظر قوى ونور مضيء، ويمتد نظره الباطن أضعاف ما كان يمتد بصره الظاهر"⁽²⁷⁾، وعثمان لوصيف - كما رأينا - في النص السابق يتقاطع مع الخطاب الأفلوطيني في توجهه وإشراقه بالأنوار، وانتشائه بفيوضات السكر، فالشاعر يبدو صوفياً متعطشاً إلى الفناء في حضن الألوهية، ولذلك فهو يهجر عالم الحواس، ويستعمل قواه الباطنية، ويجعل من الحب طريقاً لتحقيق الفناء الذي هو غاية كل متصوف، "ولقد ظل (الأنا) الذي رمز به الصوفية إلى بشرتهم، مثار عذاب شديد لهم لأنه حجاب كثيف يفصلهم عن الحق، ولم تكن إزاحته وتجاوزه بالأمر اليسير؛ لأن الانخلاع عن البشرية حال طالما عانى منه الصوفية كثيراً وحالات (الوجد) عندهم تكاد تشبه حالات النزع قبل الموت"⁽²⁸⁾، فالرؤيا الصوفية إذن تقوم على الفناء الذي عبر عنه لوصيف بـ(التعري) وهو الذي به تحصل المعرفة، يقول في قصيدة (حورية الرمل):

وتعريت
تقدمت إلى ينبوعها الطُّهرِ
بعين غاوية

قلت : ماذا؟

وتنشقتُ حنين اللهب الأول

صليت على دين المجانين

جعلت العشق رباً

ثم قدمت القرايين

ومرّغتُ دمي في الساقية⁽²⁹⁾

وهكذا تبدو لنا صوفية (عثمان لوصيف) دعوة لرفض الواقع الخارجي واستلهاً عالم الباطن بوصفه قوة خفية متبصرة قادرة على إدراك الحقيقة الكامنة خلف مظاهر الأشياء، ولذلك فعثمان لوصيف لا يجد متعة إلا في التواصل مع المتعالي (الباطن)، وفي المقابل رفض الظاهر وإدانتها، وقريب من هذا المعنى نجد صوفية (ياسين بن عبيد)⁽³⁰⁾ في ديوانيه (الوهج العذري)، و(أهديك أحزاني)، ويستوقفنا الديوان الأول الذي يعد باكورة نتاج الشاعر، "هذا الديوان رغم صغر حجمه فإنه كبير في معناه، إنه ترنيمة عذبة في حب الله وأغرودة صافية في تأمل العالم، وقراءة صفحات الكون الناصع الجمال كما أنه إيغال في ذات شاعرية هدها الواقع بانكساراته، وهزائمه المتلاحقة، فراح يبحث عن العزاء في عالم الفن والإبداع"⁽³¹⁾ ولعل هذا ما عبر عنه الشاعر في مقدمة الديوان عندما قال: "شعر الوهج العذري شعر ذات قبل أن يكون شعر موضوع، وشعر فكرة قبل أن يكون شعر حدث، وشعر وجدان قبل أن يكون شعر شكل، وشعر تنقذ به الروح قبل أن يصرعه الجسد بأوهامه"⁽³²⁾ والشاعر هنا يحدد بوضوح مذهبه الأدبي، فالشعر رسالة تفتح دروب الأمل، وهو تجربة روحية مفعمة بمعاني السمو الذي يفيض بالإشراق، والتوحد، نلمس ذلك خاصة في القصائد التالية: (عروس الكأبة)، و(تراتيل المشكاة الخضراء)، و(على أثري).

ومن القصيدة الثانية - التي يهديها إلى الحلاج -⁽³³⁾ نقرأ قوله:

كتب القصيد على كل صغيرة وكبيرة .. فهوت رحاب معابدي

وركبت من صهواتها النار التي ضويت بها في العاشقين مراشدي
عذبت مواردها .. تعانقها الرؤى صوفية .. شربت مناهل عابد
يأتي بها الحلاج منقطع الهوى ويلوح معلمها البعيد لقاصد
كوني..أكن..وكما تكوني..كائن أنا في دروب العشق أتلو شاهدي
وسأخلع النعل المسافر في دمي وأحل..فيوصلي..جميع معاقي⁽³⁴⁾

والقصيدة في عمومها رحلة في البحث عن الحقيقة، التي تتخذ عند الشاعر منحى خاصا، فهي وسيلة لتجاوز الواقع إلى عالم الأحلام، والرؤى الروحية، وبذلك يغدو الشعر نبوءة ورؤيا وخلقاً وحرية تعبيرية، وهذه الحرية في التعامل مع اللغة تجعلنا لا نستطيع كشف هويتها بسهولة؛ لأن المعاني تختفي وراء الرموز الصوفية الكثيرة التي وظفها الشاعر في ديوانه والتي يشير بعضها - كما سنرى في الفصول القادمة - إلى الحب الإلهي، أو الشوق إلى حالة السكر لاقتناص لحظات التجلي، وبلوغ حال الفناء في العالم، والامتزاج فيه بحيث تتوحد كل تناقضاته، ويغدو صافياً، وخالياً من الصراع، وهذا الموقف يكشف لنا عن الموضوع الحقيقي للشعر الصوفي الذي ينغمس في الواقع، ويجعل من كشفه وسيلة لتغييره على الصعيد الفني.

وهذا ما يميز صوفية القرن العشرين، فهي ليست تجربة معرفية كصوفية ابن عربي، وإنما هي تجربة وجدانية تسعى إلى إحياء الجوهر الكامن في الإنسان، وخلق عالم روحي بديل على صعيد التجربة الفنية، وفي هذا تأكيد على دور الشعر في التغيير ومعاينة مبادئ التمرد، والثورة على الواقع الإنساني بوصفه ممارسة يومية روتينية خالية من التعبير الوجداني، وهذه الثورة لم تكن وليدة نزوة عابرة "بل وليدة أزمة روحية، وفكرية شكلت صدمة للواقع والإنسان، وحركت فيه بواعث الرغبة في التغيير، وتنقية الذات مما علق بها من شوائب، وما اختمر فيها من مبادئ ثابتة ومسلم بها"⁽³⁵⁾.

وقد عبرت الصوفية قديماً عن هذه الرغبة المتأججة على لسان (جلال الدين الرومي) الذي يقول: "إن الهواء الذي أنفخه في هذا الناي نار، وليس هواء وكل من ليس له هذه النار فليمت" (36).

وفي الشعر المغربي نقف كذلك على تجارب صوفية كثيرة نلمس فيها روح الثورة والتمرد على الواقع، والإحساس المرير بالاغتراب كما هي الحال عند (محمد علي الرباوي) في دواوينه (أطباق جهنم)، و(الأحجاب الفوارة)، و(الرمانة الحجرية).

ويتخذ الإخبار عن هذه الغربة أكثر من مظهر فهي غربة في المكان، وغربة الذات في الجسد (الطين)، وغربة الإنسان في هذا العصر، إنها غربة في الوجود تتحول الحياة بسببها إلى سلسلة طويلة من العذاب، والشقاء الذي لا تمتلك الذات منه فكاً إلا بالاحتماء بالروح والهجرة إلى الله:

جسدي ما زال بقلبي يتسكع هذا
الصدأ الفتان فكيف تطهر ساحة هذا
القلب الأحزان؟

جسدي من يرميك بعيداً عني؟ من
يرميك بعيداً؟ من يرميك؟ هي الآبار
تمر بها خيلي عند الليل فلا بثر
تأويك ولكن أسقط
من يرميني عنك بعيداً؟ من يرميني؟
ثم يدثرنني بسواقي الماء البارد من
يغسلني بشآبيب الكأس عسى تحرق
ذاتي عن قرارتها البيضاء فأرتاح قليلاً من
أدغالك؟ (37)

والملاحظ أن القصيدة في بنيتها تأخذ خطأ تصاعدياً ينطلق من المادي الذي يتضايق منه الشاعر، ويتجه صوب المعاني الروحية التي تمثل الخلاص لهذه النفس التواق إلى التحرر والانعقاد من هذا الإحساس بالقهر والظلم، هنا تحقق الذات حلمها، وتعود محملة بالراحة والسعادة مكلفة بالفرح، أو منتشية بكأس المحبة التي تحرق أدغال ذاته، وتبث فيها الحياة من جديد؛ ومصدر ذلك "الرؤيا الذاتية - في إشراقاتها العرفانية - إلى العالم الباطني المعبر عن الوجود الكوني" (38)، ويستعير الراوي قصة موسى - عليه السلام - لتجسيد تجربة الخروج من الاغتراب، والرغبة في الوصول إلى الحقيقة.

أيتها النفس أخرجي من زيد البحر، أركبي متن حصان
بجنّاحين، ارجعي راضية مرضية ثم ادخلي دائرة
العشق، أتبعيني فإنني آنست ناراً؛ علنا منها سنأتي
بشهاب قبس، أو علنا نلقى على النار هدى هيا
اتبعيني واستعدي، ربما حبك مولاك، استعدي هو إن
حبك قد يلقي على قلبك قولاً ثقيلاً (39)

واستعارة قصة موسى - عليه السلام - تتكرر كذلك في تجارب حسن الأمراني لتتحول إلى رمز دال على هذا النزوع الروحي القوي لدى الشاعر المغربي المعاصر، للاتحاد بالمطلق ومعانقة النور الإلهي، خاصة عند (حسن الأمراني) (40) الذي نجده يشير في شعره إلى الرحلة والتي ليست - على حد تعبير ابن عربي - سوى "القلب إذا أخذ في التوجه إلى الحق" (41)، فالرحلة إذن روحية، وإن اتخذت شكلاً مادياً في بعض النصوص، أو بدت رحلة مادية يقطع فيها صاحبها الفياقي، والقفار على ظهور الإبل سعياً إلى ديار الحبيب.

فالصوفية يشبهون التجربة الروحية بالرحلة "وهم الذين جعلوا من سعيهم وراء الحقيقة سفرًا مضنيًا مليئًا بالمفاجئات، والمخاوف في طريق موحش طويل، قد ينتهي سالكه إلى النهاية السعيدة إن وفق الله وأراد" (42)، يقول أحدهم: "انتهى

سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم فإذا ظفروا بنفوسهم فقد وصلوا" (43)، يقول
الأمراني في ديوان (الزمان الجديد) :

لا أقسم بالنفس المسجونة في الجسد المرشوق
ولا أسمُ بالغدرِ وهذا البلد المشنوق
لقد كبرت في القلب شجيرات الحزن
وعذبني الطين
وأنا أحمل أوزاري
وأمدُّ الطرف إلى أنوارك
"أدخلني مُدخل صدق يا الله
وأخرجني مخرج صدق" (44)

هنا يرسم لنا الشاعر خريطة هجرة النفس باتجاه ينابيع النور باتجاه الفيض
الإلهي حيث تنتشي الروح بمعانقة المطلق، والفناء في الوجود الحق، والاتحاد
بالحقيقة الأزلية، والتي هي وسيلة الشاعر لتجاوز الواقع إلى عالم الأحلام،
والرؤى، والإفلات من العالم الضيق إلى العالم المطلق.

وبذلك يغدو الشعر نبوءة، ورؤيا، وخلقا، وحرية تعبيرية تغير نظام الأشياء،
وتغير نظام التعبير عنها، والشاعر ثائر وثورته هنا ضد اللغة، فهي تتجه إلى رفض
كل ما هو تقليدي في الممارسة الشعرية؛ لتصبح القصيدة تحمل قيمتها في ذاتها
كلذة روحية تصارع الواقع، وتتطلع إلى البديل.

بهذا الشكل تغدو التجربة الصوفية تجربة لغوية متميزة وفريدة، لا تعتد إلا
بمنطق الباطن الذي لا تحده الحدود، وهؤلاء الشعراء الذين ذكرنا بعضهم في هذا
الدخل العام للشعر المغاربي المعاصر استطاعوا أن يحققوا مفهوم الكتابة الصوفية
التي يمكن وصفها "بأنها تجربة موت بالدلالة الصوفية للعبارة، موت عن الظاهر
الاجتماعي في مختلف مستوياته وعلاقاته من أجل الحياة في الباطن الكوني، لذلك
لا بد من تجاوز الظاهر، وهدمه، ولا بد من تجاوز لغة الظاهر، وهدمها" (45) كما

يرى أدونيس ، لأن من أهم أسباب ضعف الكتابة الشعرية في العصر الحديث هيمنة لغة الظاهر ، ينبغي إذن تجاوز هذه اللغة إلى لغة جديدة تحقق المعادلة الصعبة ؛ أي التطابق بين الرؤية اللاحدودة ، والألفاظ ، والصور المحدودة الأبعاد أو ذات البعد الواحد.

بهذا تصبح اللغة قادرة على تسمية الأشياء وتعريفها والكشف عن أبعادها المخترنة وبذلك نجد لغة الشعر ونقذها من التبلد والتلاشي ، ونجد معها الوجود الإنساني الذي قد يصيبه التلاشي والجمود. فبالشعر إذن نواجه التشويق ونجابه تقادم اللغة ونقذ الوجود ، فتصبح اللغة قادرة على أن تمنحنا ما وراء الظاهر العيني ، من دلالات ومعاني مستترة.

أما تجديد الوجود فيرد "بمثابة الصدى المباشر لتجديد اللغة فالوجود إنما يتم انتشاره في ذات اللحظة التي يحدث فيها انتشار اللغة من الترهل والبلى .. وهي إذ تبلى تفقد أهم مميزاتها ، فيصبح العالم مهدداً في ماهيته التي تحجبها اللغة ، وتطمسها بعد أن علاها الصدا ، ومن ثم يصبح الإنسان ذاته .. مهدداً في وجوده أيضاً ،" (46) وذلك لأن لغته لا تعطيه غير القشور ، والمعاني السطحية ، ومن ثم تصبح حياته ذات بعد واحد.

"ههنا يضطلع الشاعر بأشد أدواره خطورة: إنه يجدد اللغة فيجدد الوجود ، ينتشل نفسه ، ويسهم في انتشار غيره من هذا الهول المطبق لأنه قادر على الفعل في اللغة وإجبارها على استرداد ذاكرتها" (47).

هذه إذن بعض الملامح العامة للشعر المغاربي المعاصر من خلال اتجاهاته وأعلامه ، وفي الختام يمكن أن نلاحظ أن التجربة الشعرية المغاربية المعاصرة حققت الكثير من التحولات خاصة على صعيد اللغة ، حيث استطاع هذا الشاعر أن ينتقل من قضايا المضمون إلى أسئلة الكتابة ، ومن مجال الفكر إلى فضاء الفن والإبداع. مما أدى إلى خلق نص جديد ومختلف من ملامحه التعدد والانفتاح.

- (1) ينظر يحيى بن الوليد، شبكة المرايا الثقافية على الإنترنت، ص 4- 13.
- (2) ثريا عبد الفتاح ملحق، القيم الروحية في الشعر العربي قديمه وحديثه، دار الكتاب اللبناني، بيروت (د ت)، ص 293.
- (3) محمد لطفي اليوسفي، "حضور الشعر المغربي المعاصر: الكتابة والمنطقة الحرام في الشعر المغربي المعاصر"، ص 56.
- (4) المرجع نفسه، ص 63، 64.
- (5) عبد القادر فيدوح، دلالية النص الأدبي، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران - الجزائر، 1993، ص 64.
- (6) المرجع نفسه، ص 70.
- (7) أحمد يوسف، يتم النص الجينيولوجيا الضائعة، منشورات الاختلاف، الجزائر 2002، ص 83.
- (8) المرجع نفسه، ص 97.
- (9) مقدمة المشهد الشعري في المغرب، شبكة المرايا الثقافية، ص 13.
- (10) يطلق بنيس على مرحلة الثمانينيات اسم مرحلة التأسيس والمواجهة.
- (11) أدونيس، الصوفية والسوريالية، ص 161.
- (12) عامر الحلواني، "اتجاهات الشعر الجديد بتونس"، مجلة الحياة الثقافية، ع 126 (جوان 2001)، ص 51.
- (13) علياء العلوي، "الخالدي كاتبًا لسيرتين في المراثي والمراقي"، جريدة بريد الجنوب، ع 114 (30 جوان 1997).
- (14) شاعر تونسي معاصر ولد عام 1948 بمدينة المتلوي بتونس.
- (15) علياء العلوي، جريدة بريد الجنوب، تونس، ع 114.
- (16) حوار مع الشاعر، جريدة الصباح الأسبوعي، تونس، عدد (1 ديسمبر 1997).
- (17) محمد الخالدي، المراثي والمراقي، الأطلسية للنشر، تونس 1997، ص 118، 119.
- (18) المصدر نفسه، ص 40، 41.
- (19) ينظر حوار مع الشاعر أجراه محسن بن أحمد، جريدة الصباح الأسبوعي، تونس، ع 1 (ديسمبر 1997).
- (20) راشد عيسى، "العمار الفني في شعر محمد الخالدي"، جريدة الفينيق الأردنية، ع (1 سبتمبر 2000).
- (21) شاعر جزائري معاصر ولد سنة 1951 في طولقة ولاية بسكرة - ينظر معجم البابطين، مجلد 3، ص 470.
- (22) نور الدين درويش، "حوار مع عثمان لوصيف"، جريدة النور الجديدة، الجزائر، ع 10 (ماي 2001).

- (23) محمد زكي العشماوي، الأدب وقيم الحياة المعاصرة، دار النهضة العربية، بيروت 1980 ص 59.
- (24) عثمان لوصيف، اللؤلؤة، دار هومة، الجزائر (د ت)، ص 20.
- (25) المصدر نفسه، ص 21.
- (26) لمزيد من التوضيح ينظر كتاب أدونيس، الصوفية والسورالية صفحة 174 وما بعدها.
- (27) ينظر شاكر عبد الحميد، "قراءة في ديوان محمد عفيفي مطر"، مجلة فصول، ع 1، 1986/2.
- (28) عدنان حسين العوادي، الشعر الصوفي، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق 1986 ص 27.
- (29) عثمان لوصيف، اللؤلؤة، ص 7، 8.
- (30) شاعر جزائري ولد في 07 جويلية 1958 بماوكلان ولاية سطيف. - ينظر ديوان الوهج العذري.
- (31) عبد الحميد هيمة، علامات في الإبداع الجزائري، دار هومة، الجزائر 2000، ص 51، 52.
- (32) نظرياسين بن عبيد، مقدمة ديوان الوهج العذري، ص 06.
- (33) يصدر الشاعر هذه القصيدة بإهداء إلى الحلاج، وهذا الإهداء يشكل مدخلاً لقراءة النص ويسهم في البناء الدلالي له.
- (34) ياسين بن عبيد، الوهج العذري، ص 44.
- (35) عبد القادر فيدوح، الرؤيا والتأويل، دار الوصال، الجزائر 1994، ص 64، 65.
- (36) ينظر، جلال الدين الرومي، نقلاً عن محمد مصطفى هدار، "النزعة الصوفية في الشعر العربي الحديث"، مجلة فصول، ع 1981/4، ص 126.
- (37) محمد علي الرباوي، الأحجار الفوارة، المطبعة المركزية، وجدة - المغرب، ط 1، 1991 ص 15، 16.
- (38) عبد القادر فيدوح، دلالات النص الأدبي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر - وهران، ط 1. 1993 ص 83.
- (39) محمد علي الرباوي، الولد المر، منشورات المشكاة، وجدة - المغرب 1989، ص 39.
- (40) شاعر مغربي معاصرو ولد عام 1949 بمدينة وجدة بالمغرب.
- (41) زكي مبارك، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ج 1، ص 59.
- (42) صلاح عبد الصبور، حياتي في الشعر، دار إقرأ، بيروت 1992، ص 20.
- (43) المرجع نفسه، ص 20.
- (44) حسن الأمrani، الزمان الجديد، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط 1988، ص 17، 18.
- (45) أدونيس، الصوفية والسورالية، دار الساق، بيروت، ط 2، 1995، ص 159.
- (46) محمد لطفي اليوسفي، لحظة المكاشفة الشعرية، الدار التونسية للنشر، ط 1، 1998، ص 211.
- (47) المرجع نفسه، ص 211.

معالم نقدية وفكرية في ثنائية (البرزخ والسكين)

للشاعر عبد الله حمادي

بقلم

محمد الأمين شيخة

أستاذ مساعد بمعهد الآداب واللغات . جامعة الوادي . الجزائر.



ملخص البحث

ديوان الشاعر الدكتور عبد الله حمادي المعنون بـ: (البرزخ والسكين) من الدواوين الشعرية القليلة التي تقاطع فيها الشكل بالمضمون وامتزجت فيها الفكرة الأيديولوجية بالنظرة الحداثيّة ، وقد حاول الشاعر بيان ماهية الشعر من منطلق حداثي غير منسلخ عن المورث العربي القديم وخاصة في جانبه الصوفي فكان هذا الإبداع بمثابة العتبة الفنية والفكرية يرصد بها الشاعر واقعه ومشاعره ونظرتة إلى الأحداث .
والجدير بالذكر أن القارئ لهذا الديوان وما تقدمه من تنظير يلمس ارتباط الشاعر بالوطن فكرا و أدبيا كما يلمس روح التمرد والتطلع إلى الجديد عبر القصائد المبتوثة والتي تترجم عمق الارتباط بين المعاصرة والموروث في قالب فني رائع يكشف ثقافة الشاعر النقدية والأدبية والاجتماعية بغية الوصول إلى حقيقة الأشياء وكنهها عبر التداخلات النصية والإيحاءات النسيجية والسياقية .

Résumé

Ces poèmes de docteur ABDELLAHHEMMADI surtitre " espace et couteau " sont parmi les rares poèmes algériennes ou on trouve que l'idée travers la forme dans un magnefique mélange entre l'édiologic et la vision mondiale, notre poète vient de donner une définition correcte a la poésie suivi par des poèmes " livres " pleines de charité et sentiments . a l'aide d'un langage des soufis cette création qui ne s'échappe pas du passé culturel arabe a fin de montrer la vérité et l'état de vie du poète et son entourage , donc cette poésie viens de marqué une station nécessaire dans le chemin de la poésie Algérienne moderne .

توطئة :

لا يمكن للقارئ في هذه الفترة الزمنية الحالية أن يتجاهل أو ينكر الأقلام الجادة والمبدعة التي حيرت ومنذ سنوات قليلة نصوصا وإبداعات شعرية اتسمت بالغزارة والخصوبة والتنوع في حياض العمل الأدبي الغني ، ومن هذه الأقلام المتخصصة ما جادت به قريحة الشاعر الدكتور عبد الله حمادي ، خريج جامعة مدريد المركزية بأسبانيا وأستاذ بكلية العلوم الإنسانية قسم اللغة العربية وآدابها ، والحق يقال أن الرجل صاحب رؤية فنية نافذة نهلت من منابع الفكر والإبداع الغربي والعربي بحكم التجارب والتجاذب مع الوسط الثقافي والأكاديمي فتنوعت إنتاجاته بين الإبداع الشعري والتأليف في مجال الدراسات الأكاديمية والدراسات العلمية الأخرى ، والتي جاوزت العشرين مؤلفا في شتى المجالات ناهيك عن المقالات والدراسات المبثوثة في المجلات والدوريات .

وبحكم احتكاكي المتواضع والبسيط بإبداعاته الفنية أحسست بولوع هذا الرجل بالتطور والتجديد ورؤيته الفنية المتطلعة إلى كسر الجمود والتقليد الفكري والإبداعي إذ يرى في الشعر كما يقول « كتابة القصيد بلا مفهوم منطقي عقلاني وإنما بمفهوم منطقي انفعالي وإيجابي » .

وهذا المفهوم المتجدد لعنى الشعر لم يمنعه من رفض الموروث فيصرح في موقف آخر قائلا : « فالحداثة أخي القارئ ليس معناها طرح الموروث والسطو على أنقاضه الثابتة بمعاول الردة والتشكك والوقوف منه موقف الخصم والتضاد ، إن الحداثة بمفهومها الصحيح ... هي البحث المستمر عن إيجاد خيط التواصل حيث ينصهر الحاضر في الماضي ليشرق غد مسكون بحجارة الاستمرارية ونبض المعاصرة » .

فالحداثة عند الشاعر إذا ليست هي المعاصرة لأن المعاصرة تتجدد بالزمان الخارجي الذي يحصر الفترة المعينة وفيه يلتزم الشاعر بترديد الشعارات السائدة في عصره من دون اختراق هذه الشعارات بل مطابقة المعيار السائد فيها .

وأمام هذه الرؤية المستقبلية للفن الشعري والتي ترجمتها معظم دواوينه الشعرية ارتأينا أن نتناول إحداها لنلقي عليها نظرة نقدية خاطفة تترجم المضمون والشكل وتحاول بلورة هذه الرؤى واستشفاف الجديد في عالم وواقع هذا الشاعر وفي سياق الحديث برزت آخر إنتاجاته الإبداعية الموسومة بـ (البرزخ والسكين) من نشر وزارة الثقافة السورية سنة 1998 ثم طبعة من منشورات جامعة منتوري " قسنطينة " سنة 2000 وطبعة أخرى لدار هومة " الجزائر العاصمة " .

الشعر واللغة عند الشاعر :

وعند تصفح هذا العمل الأدبي يلاحظ القارئ ميل الشاعر للتظير في عالم الشاعر ومنه بيان خصائصه وميزاته فكان تصديره لهذا العمل بمقدمة عن ماهية الشعر على شكل المقدمة النظرية التي صدر بها ديوانه السابق « تحزب العشق يا ليلي » دار البعث 1982 وتكلم فيها عن لوازم الحداثة والمعارضة للقصيدة العمودية أما في هذه المقدمة الجديدة فقد رأى الشاعر رأيا في الشعر يصوره ويراه إبداعا خارقا للعادة وتشكيلا جديدا للكون بواسطة الكلمات أو اللغة ، واللغة عنده ليست الأساس أو القاعدة لأنها ملك مشاع عند جميع الشعراء والمتشاعرين ، فالشعر روح وإيماء بلسان العالم فلا يترجم العالم أو الواقع بل ينقل التجربة الباطنية ويعمل على كسر أنظمة اللغة وتركيبها، عساه أن يحيط بالمعقول واللامعقول وبالتجارب الباطنية الإنسانية : إن الشعر الحقيقي هو ما يخلف أثرا جماليا من كنه الأشياء ويحافظ على التوافق والتناغم بين مستوى الصوت والدلالة حتى إنه وصل إلى الارتقاء في بعض المذاهب الفلسفية واحتل درجة التقديس والشعر في كل ذلك يهدف إلى بعث الحياة في أبهى صورها ويحاول إدراك الحقيقة الأزلية وتطهير النفس من دنس المادية المالية المتعجرفة ، فأصبحت أو تصبح الكلمة الشاعرة ملاذا رحيفا من جحيم التقنية المدمرة للذات الإنسانية .

إن الشعر الحداثي بمثابة البرزخ بين الماضي المكلل والمدجج بقوالب السلف الجاهزة وبزخارفه ومسكوكاته الرتيبة ، وبين الحاضر وما ينبغي أن يشهده من انقلاب مسكون بالحساسية الجمالية المغامرة ، ومن ثم اتخذ الشعر الحداثي لنفسه مهمة البحث والتجريب من أجل خلخلة البنى الذوقية التقليدية للوصول بها إلى مرحلة التكيف مع التغيرات والمستجدات الحضرية التي تنصاع لمطلبات الفكر والذوق والإحساس المرهف البعيد عن التقليد والاحتذاء. وهي مهمة صعبة جدا تنطوي على قلق دائم لا يعفو عليه الزمان " فالحداثة الإبداعية ليست معادية للتراث كما يخطئ البعض فمن خصوصياتها تمثل التراث وليس اجتراحه " غير أن الحداثة لا تلتزم بمجرد الوجود في العصر والمكان بل تتعداهما بمجموعة انزياحات (Ecarts) - أو بتعبير بسيط - انحرافات أو عدول عن المعيار السائد في الشكل والمضمون لتخاطب القارئ أو المتلقي بلغة غير اللغة المعهودة وبمعاني مستحدثة لم يألفها العصر ولا المتلقي لها ، وبهذا تتحقق الروحانية واللذة التي تكلم عنها " رولان بارت " في كتابه " لذة النص " وتخرق بذلك الآفاق المنتظرة لدى المتلقي ، أو كما يراها الشاعر في مرجع آخر (أو ذلك الانفعال الجذاب الذي يشعر به المتلقي وهو يستقبل العمل الشعري في شكله المتكامل مما يجعله يحدد موقفه العقلي منه فينحاز إليه أو يعرض عنه) وهذه الخصائص هي ما يجعل القارئ بعيدا عن التكهانات المسبقة وعن الأحكام القسرية التي تعود عليها سابقا ويقلل بذلك من إحساسه بتبعية العمل الأدبي إلى منتج ليرتقي إحساسه بذاتية الشعر ونشاطه المستقل والفريد عن العلوم الأخرى الحافة به كعلم التاريخ أو النفس أو الاجتماع ، ولكي يصل المتلقي إلى هذه الدرجة من الإحساس يتطلب منه أن يتوافر على الاستعداد الفني والجمالي والثقافي الذي يؤهله لعملية التلقي وهذا ما يترجم قول الشاعر (... ويجعل رغبة المتلقي منحصرة في رغبة التصدي حتى لا يقع التجاوز ، من هنا تصبح ضرورة وجوب القارئ الممتاز حتمية لا مرد لها) .

نرى شاعرنا في آخر هذا التصدير وقبل الخوض في غمار الشعر يكشف عن جدوى الشعر وفائدته للمجتمع في ظل عصر السرعة والمعلوماتية ، وكانت إجابته من خلال مقاطع شعرية للشاعر الإسباني " قوستافور أدولفو بيكر " تتضمن سر ديمومة الشعر في ارتباطه بديمومة الحياة وتنوع طبيعتها وفي سعي الإنسان الدؤوب نحو الراحة النفسية البعيدة عن صخب الآخرين ، فما دام هناك بشر على وجه الأرض يتألم ويحب ويفهم مع الآخرين بكل جوارحه ووجدانه ، فسيكون هناك شعر على الدوام .

الشعر والنزعة الوطنية :

وكانت بداية الإبحار في عوالم الشعر بوقوع ووقوف الشاعر على شاطئ الوطن الحبيب وعلى باب سماه (كتاب العفاف) ضمنه أغنيات للجزائر فكانت قصائده العمودية السبعة بمثابة عرائس ، بل عجائب العالم السبعة في ذاتيتها وفي إيمان المبدع ، فتوالت بحورها وإيقاعاتها بتنوع الأحاسيس الذاتية ، وارتسمت على هذا الكتاب أناشيد وطنية مليئة بالسؤدد والعزة ومشحونة بطاقات التعبير جسدت انتماءه الروحي والجسدي والعقائدي فهذه قصيدة " جزائر " على وزن المتقارب قارب بها وحاكى جمال وبدعة الجزائر في إلياذة مفدي زكرياء ضمنها بطولات ومآثر الوطن :

جزائر يا قلعة الثائرين ♦♦♦ ويا قصة الخلد والخالدين

ويا موردا سلسيل الضلال ♦♦♦ ويا نشوة من أريج الكمال

وعلى وزن الخفيف خفت روحه وطففت مشاعره وأحاسيسه من الشوق والإلهام وعشق أرض الجزائر والشجعان :

لا تلمني في حبها وهواها ♦♦♦ لست أختار ما حييت سواها

لست أختار فالجزائر لحني ♦♦♦ منتهى الوصل إن أغن بهاها

وعلى إيقاع المتدارك كانت قصيدة " وطن " تلامس جسد الجزائر وتعانقه وطنا
يكبر بين الأوطان ، عانق الشاعر تراب ورمل الجزائر وطنا كريما :

وطن يكبر وطن يعظم ♦♦♦ وطن يسكن فوق الأنجم

وطن ثائر وطن سائر ♦♦♦ وطن يصعد رغم الجائر

وفي انتقاله لإيقاع الكامل عاد المبدع ليردد قصيدته " قصيدة الجزائر " ليلهم
الكمال والخلود لأجسادها وبطولاتها ويؤكد ولاءه وحبها لها :

قدر الجزائر أن تكون الأكبرا وتكون سفرا للشهادة أخضرا

وتكون حلما بالفتوة يانعا وربيع عمر بالنضارة أجهرا

إلا أن هناك من المتربصين لها والقابعين لنصب شراكم فكانت قصيدة " أطفالنا...إلى الحجارة " وبها رسم المبدع صورة أليمة لواقع الجزائر ، ورصد آلامها وأحزانها ، ورثى رجالها ، فاكتمل الحزن على إيقاع مجزوء الكامل ليعكس جرح المدينة ، ومحاولة تفتيتها بفعل المتعصبين ، والمتأمرين ، ولا يكون سبيل الفرج إلا على أيدي أطفالها أو قل رجالها المخلصين ممن يحاكون أطفال الحجارة في " طولكرم ، وجنين " :

قتلوك في وضح النهار ♦♦♦ وأطلقوا عبثا إشارة

كبسوا الحصار وسيجوه ♦♦♦ وحكموا قيم الدعاره

وتنتهي قصة هذا الكتاب ، وعلى هذا الشاطئ بحلم وردي يعانق ذات الشاعر بقصيدة " حلم أنزلة " وهي مدينة مغربية على المحيط الأطلسي ، وعلى نفس الوزن الذي دخل به - المتقارب - يبحر الشاعر بخيالاته ليستحضر أسفاره وغربة وذكرياته المشدودة بحمى الأطياف البعيدة الملقاة على الضفاف الأخرى ليعزم على ركوب المغامرة نحو المجهول :

أتنهض بعد السنين الطويلة ♦♦♦ لتعشق طيفا هفا من أصيله

وتركب للبحر يمتحا قديما ♦♦♦ تغالزه معطيات جميله

ويواصل :

وفاء ... وما وجع الليل إلا ♦♦♦ خواطر شوق تدنت ثقله

تدنت بأخمرة الذكريات ♦♦♦ وفي نفحات قتيل القتيله

الشعر والنزعة الذاتية :

وجاء الكتاب الثاني بنقلة نوعية نحو عوالم الشعر ، ونحو عالم النور ليستثير به المبدع ، وينير دروب الواقع ، والعالم الروحاني ، وعبر ثلاثين مقطعاً رباعياً سماها " رباعيات آخر الليل " صدرها بما يبر كبحه لنشاط العقل ، والمنطق ، وتحرير النفس وخلجاتها من سلطتيهما لتعبرا عن ذاتها بذاتها ، فكانت كلماتها حكماً وعبراً للناس جالت بها عبر القلب والوجدان ، وخفت بها لتطفو ، وتنتشر في بهيم الليل خفة البحر الذي سارت على إيقاعه ، وكانت نقلة النفس عبر هذه المقاطع بمثابة من يأخذ من كل بستان زهرة ، فمن وهج الليل المريب ينطلق القلب صاحباً من جديد صحو المغرم الهائم ، وتأتي النشوة من حب الصراع والمكابدة ، فيتصف الوفاء بذلك سرا للوجود ، وتلحق بالتمني والتغني والتبني خيبة وعار كبيران :

ما دهاك تقيم صرح التجني ♦♦♦ مستبيحاً عفافه بالتمني

أنت أغمضت للضياء جفونا ♦♦♦ وانتهكت شفاهه بالتغني

إلى أن يزداد الحب في عناده ، وتحديه فيلجأ المبدع إلى المواجهة ، وينكشف الظالم والمستبد لينصاع لسلطان القلب فيعود الشاعر بعد ذلك إلى ذاته يطلب الملاذ إلى شعره نذيراً ويرد اللوم على خصومه بتفنيد أكاذيبهم ، ويقدم النصيح والبيان ، ويطلب من ثمة العفو والصفح ، ويرجو النجاة والانتشال من عالم الحيف والبهتان :

ظالم أنت فانتسب يا غوي ♦♦♦ وارحم الزهر في حقول الغرام

واكبح الخوض في مدار التشفي ♦♦♦ واعتق الحب من شرك الظلام

وينقل بعدها عناء الليل والصمت الجاثم على النفس ، ويجس نبض القلب
ولواعجه فيرى منه سحرا يتحدى الجوارح ويبحر أمام مخيلة المبدع ليشعل شوقه
وهيامه ، ويرسم تجاربه ولوعته بالرحيل وراء الأطياف ، فكان السلاح الكلمة
الشاعرة ، وكانت الذخيرة العزيمة والإقدام :

مرهف الظل يا بهي الملام ❖❖❖ لا تعجلها في حضور الظلام

ضقت بالليل فانتشله رويدا ❖❖❖ واطلب العفو من ظريف القوام

ثم يعود على إيقاع الكامل ليعطي صورة لذاته هي صورة فكره ووجدانه
وآلامه ، فيعود بنفسه إلى التواضع والبساطة إيمانا منه بمحتمية الفناء وسلطة القدر ،
ومنها إلى الإيقاع الخفيف ليسطو على عالم التصوف ، ويقرن العشق بالصلاة
والهوى والسجود بين يدي الحبيبة ، وطقوس العفاف :

كم أراني وكم أراك تقاسي ❖❖❖ صدع النور يا حبيبة راسي

سفك دمعي على هواك مباح ❖❖❖ وانتحاري فدا العيون يواسي

فاعذريه وجلليه صلاة ❖❖❖ ملؤها الطهر وانشطار التواسي

وعلى وزن المتقارب يأتي الصوت ويخبو التمني خوفا من الآتي المخيف ،
ومن القادم المتجني ، لكن حب المغامرة والإبحار مكنا المبدع من الإحاطة بالكون
وطوعا له الحدود ليرقى بالحبيبة إلى الدرجات العليا ، ومنه أفضى القدر إلى مجالسة
الليل ، ومعانقته لتورق على يد صاحبه أوراق سحرية يمتلك بها سر الكلمات
والحروف ، وبها يكون التجديد والتحديث :

فإن أورك الليل في راحتك ❖❖❖ تدنت لك عاليات القطوف

وسيق لك النور مغمى الجفون ❖❖❖ وأعشى مداه سناك المخوف

فألقت بين الهنا والهنالك ❖❖❖ وبين المعاني وسر الحروف

ومن على وزن الخفيف سار المبدع بدعاوى اقتحام المنافى والاصطبار على ظلم الحبيبة ، وبالتجلد والصبر يختم آخر مقطع متأملا في قدرة العفو ، والجزاء والرحمة عند خالقه :

موعد العفو والبقية تأتي ♦♦♦ فاطلق الحبل لو أردت نجاتي

هو يجري مناسك الذل ذلا ♦♦♦ ويهيب برحمة بعصاة

الشعور وروح التصوف :

وهذا الكتاب الثالث والأخير إيذانا بعودته إلى البداية ومعاشه الواقع بمرارته وحلاوته المادية والمعنوية عساه أن يحط رحاله على شاطئ الأمان بعد الإبحار في غمار الذات الشاعرة ، فضم هذا الكتاب الذي سماه " كتاب الجمر " أربع قصائد من الشعر الحر صدره بقصيدة " مدينتي " المصدرة بدورها بآية من سورة الإسراء تحيل في البداية قارئها غلة ما يستعرضه من صور الألم والدمار فكانت مقاطعها المتعددة " 16 مقطعا " صورا من هذا الدمار اللاحق ، انتقل المبدع الحزين ليرصد صوره في البلاد وعلى العباد ، وفي البدع والحروب والأحلام المزيفة :

مدينتي ... !

مدينتي ... مدينتي لو تجهلون في المتون

مقبرة

أحلامها أوسمة

وسلم مهره

وبدع مجربه

واستعرض سطوة الظالمين من الفجار ومن سماهم بالمجوس ، من خبت الانتهازيين ، فأحالوا المدينة إلى ساحة دمار وتلغيم وعار :

مدينتي داهمها " الفجار والمجوس "

فخيلهم تلك براءة النفوس

فمدينة الشاعر لا عهد لها بذلك لولا المؤامرة والدسائس بل إنها أسكتت عن الإفصاح والبوح بقوة هؤلاء فأصبحت أزرى وأذل فلا تسألوها عن حالها مادامت فريسة يتجاذبها الكبار والصغار واليمين والشمال ، وما بين مآسي التاريخ ومجازر الحاضر ، وبين تعصب الأحبار وانسلاخ الفجار سارت إلى الضياع ، وكلهم أبناء المدينة نفسها ، وكلهم مغرقوها :

مدينتي ... مدينة

لفظها التاريخ والبخور

فأشرعت بوابة

للكفر والنذور

...

فطرتها اليمين

نزوتها اليسار

وعشقها ممزق

أيهما تختار ؟

فلسان الشاعر هذه المدينة وقصيدته هي ، يحملها حيث يشاء بعيدا عنهم وعن أعين المراقبين .

وتأتي قصيدة " البرزخ والسكين " لب الديوان وسر وجوده ، وقد علق عليها الدكتور حسين خمري قائلا : (...تجتهد في بعث الجو الصوفي وتوظيف الرمز الذي يحيل إلى ذلك محاولة تحيينها بالراهن) فهي بذلك إبحار في عالم الحيات والطهر بعيدا عن دنس الحياة ، مليئة بالرمز والخيال ، صدرها بمقولة لأحد أكبر الفلاسفة العرب " ابن عربي - 638/560 هـ " توحى بقدرة الخالق على بعث الحياة بين يديه وقدرته

على بعث من فيها إلى دنيا دائمة أو نهاية حتمية (له النزول ولنا المعراج) وهذه القصيدة الحرة تعتمد على تكثيف التداخلات النصية من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، ومن أقوال السلف الصالح وتستلهم أفكارها من حوادث هامة في تاريخ البشرية ، اعتمد فيها المبدع على عشرة مقاطع منفصلة ، انتقل بها من فكرة الألوهية وتجسيدها في الفكر الصوفي ، وفي فضائلها وكراماتها الخارقة إلى فكرة الخطيئة والعصيان من أينما آدم وأما حواء فكانت البداية وكان البرزخ ومنه تلتها مواقف حاسمة في حياة البشر وصراع بين هابيل وقايل :

كان البحث مسبقا

بغراب يوري سوءة للعاشقين

لا يا طائر الزمن الخافت

عاشق جثث ومن خلفي قوافل وأمامي برزخ

إلى صراع الذات مع نفسها في المحبة الإلهية وتكريسها لفهم حقائق الكون ودواخله وصولا إلى حقيقة الفناء ، وحتمية النهاية بطريقة العذاب والصراع :

مسكونا أنا بنافلة الأطوار

وبرزخ ما بين عافية وعاقبة

تتجاذبني شفتان

واحدة للزهرابين

وأخرى خاتمة للبقرة .

ووسط هذا الصراع كان شاعرنا منزويا في عالم الغفران مخاطبا الكون من بعيد ينتظر ساعة السكون والتي لن تكون إلا خاتمة السكين :

عاقبة البدء

وخاتمة السكين

مجلة البحوث والدراسات
العدد الثالث، جوان 2006

خيال في ... خيال

سؤال في خيال

خيال في عماء ...

وثالث قصيدة بعنوان " يا امرأة من ورق التوت " ذات المقاطع المتعددة - 14 مقطعا - جاءت بتصدير تضمن كلمات من سفر التكوين " التوراة " تقص حكاية أبينا آدم وأمنا حواء في الجنة ، وأكلهما من الشجرة المقدسة ، وانكشاف عورتهما ، فاتخذا من أوراق التين لباسا وسترا ، ومنه استلهم العنوان ، واستلهم المبدع حديثا للمرأة المكشوفة المثخنة بالأثام بحديث يزخر بالرمز ومبثوث بأفكار التصوف :

وتقرب بين شفاه امرأة

من صخر

تنام في شرفات

يزني في محراب عفتها

حمام وغراب

لا أحد ينفض عن هذا الإثم

غوايته

ولقد عدها - أي القصيدة - أحد النقاد تجربة شعرية حديثة تعتمد على اللغة وتفاعلاتها الجمالية ، وفي انتقال المبدع عبر هذه اللغة علق خطاياه على باب هذه المرأة التي يراها السند والمعين ، واكتشف خيانتها فأوقعته في الذل :

علقت عتابي على باب مدينتكم

احترف العشق

واللعب الآهله بالوحشه

والغارات المهزومه

وأقر انهزامه اللامحدود وهو مفتون وأعمى بعشقها يسير في تيار العاشقين
ويجري في مجراهم ويعود بالذكرى لائما على أيامه الخوالي ، أيام المدينة التي
حفتها ، ويعاوده الحنين للطفها كالطفل بين الأذرع تغمره عشقا ويدهشه
الاحتراف في عينيها فيتمنى فتات من غيثا العميم :

ما أجمل أن تبعث طفلا مغرورا

يكبر فوق ذراع

يغمد فوق شفاه

يرهبها البوح وأطياف

غيبه

وفي دأبها يراوده الحنين إلى الإبحار في عوالمها المليئة بالكتمان والمحكومة بالسر ،
فأضحت تحاصره في صحوه وفي صلاته إلى حد أعلن فيه عودته كالمخمور أو
المسوس الذي عاوده المس بعد الشفاء .

ولا بد أن المرأة هنا كانت المطية أو الجسر الذي حاول المبدع عبوره ليلبس
حقيقة إحساسه ثوبا يناسب المحتوى الذي يصبو إلى تحليله والتعبير عنه .

وختم المبدع هذا الكتاب بقصيدة " لا يا سيدة الإفك " ذات التسعة مقاطع
والتي تتداخل تاريخيا مع حادثة الإفك في عهد الرسول " ص " ليستلهم المبدع من
خلالها روح الحادثة ويبدأ عرضه هذا من موقع المتهم بالخطيئة في عالم الشعر الذي
كثر نومه فتأخر عن موكب النجاة ، وخطر بباله الإثم حتى تنبأ بالخطر ، خطر قبله
على شفة من عقب الأزهار :

هو السفر الممتد على وجعي

أيسره العسر

أعذبه الألم الملقى

على شفة من عقب الأزهار

وأي قبله يتهم بها المرء ، والتي تكسر الحدود وتعبر الشيطان وتقف تمثالا
للرغبات الأخروية ، فهي طفرة في عالم الجمود وأشهى من المطلوب والمرفوض ،
فيعلن في خضم هذه الصور تبنيه لها لأنها قبله فردوسية على باب الغفران وكهف
الأبرار ، قبله لا تحمل من دنيويتها إلى الإحساس باللذة والمتعة فكانت قبله صوفية
لا دنس فيها ولا إثم :

يكبر عري في حضن الوجع الليلي

ما بين المشعر والجمرات

ما أشهى أن أعصره كرما

من شفة السكر

من خمرة الحضرة من فيض الإثم

من مائدة الصديقين .

ومن خلال هذا العرض التفصيلي ، والتقويم المبدئي لمحتوى هذه الكتب
الثلاثة يمكننا أن نتوصل إلى بعض السمات الفنية التي تخص المضمون والشكل من
خلال تتبع أهم ما ورد في هذه الكتب ، ومحاولة إيجاد قاعدة خلفية نظرية للظواهر
التي رصدت وفق بعض المناهج والتيارات النقدية الفاعلة في الساحة الأدبية.

ففي الكتاب الأول كتاب " العفاف " الذي ضم سبع قصائد غلبت عليها
النزعة الوطنية وروح الإنشادية ، وتقاطعن عناوين قصائده في مفصل واحد
وقاسم واحد هو " الجزائر " (الجزائر - أرض الحرية - هي ليلاي وطن - قصيدة
الجزائر - أطفالنا ... فإلى الحجارة) وكان الاستثناء على القصيدة الأخيرة " حلم

أزيلة " التي فضل المبدع تركها تمهيدا للدخول بها إلى الكتاب الموالي وهو كتاب الإبحار في عوالم الشعر الحفية .

ويتنوع الجزائر في ضمير الشاعر تاريخا وأرضا وعشقا وخوفا تنوعت إيقاعاتها لتغلب الإيقاعات الصافية وتطغى ، وهي إيقاعات محبة للنفس بعيدة عن الحشد والتقرير مليئة بالحركة والتلاحم وهي (المتقارب - الرمل - الكامل - مجزوء الكامل) وخص بعضها بالوزن الممزوج (الخفيف) كما لم يغفل شاعرنا تقديره لشعراء آخرين من مثل شاعر الثورة مغدي زكرياء في إلياذة الجزائر حتى إنه ضمن بعض مقاطعه مقاطع من الإلياذة (يا فتنة - يا جنة الخلد - يا قصة ..) وهي ظاهرة صحية تبعث على التفاؤل والتنبؤ بالجدید في التراث فكرا وصياغة ، وهذا لم يمنع المبدع من اتخاذ شخصية شعرية فريدة من نوعها فغنى بأسلوبه (أرض الجزائر) وكانت أنشودة من أناشيد الجزائر اعتمد فيها على اللفظ البسيط والجملّة الموجزة واللغة السليمة المستحدثة ، أعطى القصائد نوعا من المعاصرة وانتقل نحو اللفظ البسيط الفصيح وشيئا فشيئا في القصيدة الموالية (هي ليلاي) فكانت ألفاظه من مثل (هواها - مهجتي - وجد) نواميس أصلية زادت في ضياء النص ، وطعمته برحيق الأصالة ، كما كانت لفظة الوطن في قصيدة (وطن) بؤرة النص ومركز القيادة ومنبع التوليد وبمثابة الأصل الذي توزعت منه الكلمات الأخرى وفي اتجاه واحد رغم أن المعجم العربي حافل بمرداداتها وهذا يحيلنا إلى أن اللغة العربية قد تكتفيان صح القول بمحور التأليف أو التركيب من دون محور الاختيار في تكوين شعريتها رغم أن الشعر عند القدماء من أمثال عبد القاهر الجرجاني تأليف بين الاختيار في اللفظ والتوزيع أو التركيب في النسق .

وهو ما تفتن إليه النقاد المحدثون من أمثال " رومان جاكوبسون " و " رولان بارط " في قضية الشعرية في النصوص الأدبية ، وما أسس له " بلومفيلد " وغيره من قوانين التوليد والتوزيع ، وعلى نفس المنوال - تقريبا - سارت قصيدة " قصيدة الجزائر " كنشيد بصور الخلود والعزة تضمنت ما تأصل وما استحدثت من لفظ بديع ومن صور زاهية ووقوف على بعض المعالم من واقع الجزائر " الأوراس ،

الصومام، أم الكتاب " وغيرها وفي نقلة نحو واقع الجزائر الأليم - كما أسلفنا - كانت قصيدة " أطفالنا ...فإلى الحجارة " وهي قصيدة تتقاطع مع أحداث فلسطين وثورة الحجارة، حاول المبدع بها الثورة على الأوضاع المزرية ، وحاول كشف المكائد المحاكاة ضد هذا الوطن فلفظها البسيط وتركيبها الأصيل الذي لم يخرج عن قواعده المعروفة مكنها من تأدية رسالة إلى المخلصين لهذا الوطن، فكانت الوظيفة الإبداعية أقوى وأظهر من الوظيفة الشعرية وبدخول المبدع عالم الرؤية والأحلام كانت قصيدته الموالية ليستبطن ذاته ويقف على معالم الذكرى فطغت شعرية القصيدة على وظائفها الأخرى، وبرزت من خلالها بنيتها العميقة المشحونة بدلالات المجاز والخيال رغم بساطة الشكل والسطح في اعتماده على اللفظ السليق، والتركيب المعهود والمجاز الذي لم يخرج على دائرة التشبيه والاستعارة والكنائية.

ومما نجمله من خصائص هذا الكتاب وسمات المبدع من خلاله :

- التركيز على الكلمات المفاتيح وتقاطعها في مفاصل داخل القصيدة ومن خلال الكتاب.

- ارتباط القصائد برؤية واحدة موحدة في حب الجزائر والدفاع عنها والتفاخر بمآثرها

- اعتماد اللغة السليمة ذات التعبير الانفعالي الإيجابي .

- الاعتماد على مستويات النحو والبلاغة والتركيب والمجاز المعروفة .

- البنية السطحية للقصائد أدت وظيفة مساعدة لترجمة معاني البنى العميقة .

- تأسيس نظام القصيدة الوزن التقليدي وعلى موسيقى داخلية غير طاغية .

- غلبة النزعة الوطنية على الكتاب .

أما الكتاب الثاني كتاب " كتاب النور " والذي تضمن حديث الشاعر عبر الذات في بهيم الليل وفق الشكل الرباعي ونظام المقاطع والتنوع في الإيقاع بين

الخفيف والكامل والمتقارب، كانت تجربة الشاعر رائدة في رؤية عامة ترى قصور العقل والمنطق حقيقة ثانية لإدراك الحقائق بدعوة الذات إلى عالم المغامرة والصراع مع الحاضر ليطلق المبدع جماع التعبير يحاول الإحاطة بأسرار الكون، فكانت هذه الأسرار بمثابة حكم وعبر وقواعد تؤسس لحياة حقيقية كما تؤسس للتجارب الشعرية المستقبلية، وبالاتماد كذلك على اللغة الأصلية واللفظ مستحدث استطاع المبدع أن يخلق داخل قصائده عناصر جديدة فكرية وعاطفية لم تألفها الأذن الصاغية من قبل، وكرس هذه اللغة في تشريع الغموض والتلميح كمنهج رائد زاد من ذاتية هذه القصائد، ومن تفرداها ومن تمرداها على العقل والمنطق الواعين، ومما رصدناه من معان مفجرة وجديدة قوله (واسكب اللحن في مرايا المنافي) وقوله (معبر الإثم محنة تستضاف)، وكلها بنى مشحونة بدلالات لا عهد للقارئ والناقد بها، وما يمكن أن نجمله من مجموع السمات حول هذا الكتاب وصاحبه ما يلي :

- دخول المبدع مرحلة تجربة شعرية جديدة ذات رؤية ناثرة على المعقول والمعهود .

- محاولة فصل الشعر عن ذاتية المبدع بإعطائه تأشيرة التفرد والخصوصية .

- التأليف بين المادي والمعنوي في التركيب الواحد لإعطاء نوع من التفاعل بين المحتوى الفكري والمحتوى المادي .

- الاحتفاظ بالوزن التقليدي ومحاولة تطويره للمحتوى الحدائي .

ويأتي الكتاب الأخير كتاب " الجمر " بمثابة قفزة نحو عالم التصوف والإخلاص والطهر الأبدي اعتمد فيه الشاعر على الموروث التاريخي والديني كأساس وقاعدة ينطلق منها ليطلق العنان للتعبير الحر في تفسير الحقائق وفق هذا المنظور، فكان القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والتاريخ الإسلامي خير معين له متسلحا بإيمانه الخالص بضرورة التحاور مع هذه النماذج وفق آليات حددت في الماضي بخصائص الاقتباس والتضمين، وحاضرا بآليات التناص عند " باختين " و " جوليا

كريستفا " مما حذا بالشاعر إلى ضرورة الانزياح " Ecart " أحيانا بالفكر والصياغة الشعرية إلى صياغات جديدة في قالب الشعر الحر ذاته وظهرت تجديدات شكلية بسيطة من وحي الشاعر الخاص جسدها تلك التصورات المتنوعة من فكر الأديان واجتهادات السلف الصالح انتقل فيها المبدع ليصور الواقع واقع المدينة المحاصر بالألم بين " اليقين " و " الشك " وبين " الكتاب " و " الرصاص " فكان اللفظ " مدينتي " محور كلامه وعنصر التأسيس في القصيدة الأولى ثم ليعرج بها على " البرزخ والسكين " ويستعرض قصة البداية والخطيئة الكبرى والنهاية المحتومة بعدها .

وتليها قصيدة " يا امرأة من ورق التوت " و " لا يا سيدة الإفك " لتسيراً على المنوال السابق ، وتجسدا صورة الصراع من الطرف الثاني وفق طقوس تحولت فيها المعايير والأسلحة إلى إمكانات ذاتية داخلية تنبع من مآسي السلف لتصنع أمجاد الخلف ومما يمكن أن نسجل ضمن هذا الكتاب ما يلي :

- تأثر المبدع بفلسفة التصوف واتخاذها ميدانا خصبا لصوغ التجارب الشعرية الناضجة

- الإيمان بضرورة التفاعل بين الحضارات والأديان المتشابهة " حوار الحضارات "
- الإيمان بسلطة النوازع النفسية والجسدية على الذات البشرية .
- الارتقاء بالفكر الإنساني إلى درجات السمو الروحي والعاطفي .
- بروز فكرة تطهير الحواس والجوارح لخدمة الأغراض العقائدية .
- تطويع اللغة الواقعية للتعبير عن رؤية فكرية غامضة وصعبة .
- ضرورة التجديد في قوالب التعبير ومحاولة المزج بين المنظوم والمنثور صياغة .
- الاندماج العجيب بين الوظيفة الشعرية وفكرة التصوف عند الشاعر .

العرض والتقويم :

وإذا تفحصنا هذه الخصائص العامة وهذه السمات الخاصة التي ميزت كل باب على حدة ، ومنها كان الرصد لبعض سمات الشاعر وتفكيره وطبيعة الصياغة التي ميزته يمكننا أن نقرأ من خلالها ذلك كله قراءة جامعة ومحوصلة لما يمكن أن تتقاطع فيه هذه الخصائص مع بعضها لتنتج لنا خصائص جديدة نتوجه بها لإدراك التوجهات العامة لهذا الشاعر في التفكير وفي الصياغة ، وما يمكن أن يقدمه أو قد قدمه الشاعر من جديد لهذه الحركة الأدبية في الوطن العربي وفي الجزائر بالخصوص .

ومن أهم ما يذكر فيما يتعلق بالرؤى الفكرية الجديدة الخاصة بالشاعر هو بحثه الدؤوب عن الحقيقة الأبدية عن طريق الإبداع الشعري ، وهي مهمة شاقة جدا ، ومن المهام التي عجزت أمامها علوم كثيرة كالفلسفة والكهانة وغيرها ، ولكنه وفي غمرة بحثه عنها لم يبدأسه أو إيمانه لفكرة اللامتيمي ، وانسحابه من الحياة كما فعل سابقوه من أمثال الشاعر الكردي " بولند الحيدري " أو الشاعر الجزائري " عبد الله بوخالفة " والذين رفعوا رايتهم البيضاء ، وأعلنوا انسحابهم من الدنيا بالانتحار ، كذلك لم يعلن الشاعر تقمصه للحدثاة المتطرفة والتي تعلن عن انسلاخها التام من الموروث والماضي التليد من أمثال الشعراء الآخرين كـ " أدونيس " (علي أحمد سعيد) و " أنسي الحاج " و " ليلي البعلبكي " وغيرهم ، بل مد الحدثاة ووصلها بالتراث والموروث الثقافي والفكري والأدبي قدر المستطاع ، كما أن موقفه من التاريخ لم يكن سلبيا مثلما فعل المفكرون والعلماء المحدثون وعلى رأسهم المفكر الياباني " فوكوياما " ذو الجنسية الأمريكية والذي أقر بانتهاك التاريخ وموته في الفكر المعاصر ، بل كان هذا الأخير - أي التاريخ - المعين والزاد الذي ارتقى به الشاعر ليوظفه في أعماله بصورة أعطت له مصداقية وفاعلية جديدة ، ودعمت آراءه ، ونسجت صوره الشعرية .

ومن مواقفه الفكرية المستلهمة من خلال نماذجه الشعرية تتجسد فكرة حوار الحضارات البشرية وتفاعلها وخدمتها للفكر البشري والإبداع الأدبي بمختلف صوره ، وهو ما جسده تلك الوقفات أو الخرجات الثرية ، واقتباسه لكلمات من سفر التكوين " التوراة " وفي ذلك رفض لما أطلق عليه المفكر الأمريكي " هنكلتون " بمصطلح صراع الحضارات وخطر الإسلام والكنفوشية على الحضارة الغربية .

ومما يسجل له كمبادرة حسنة في الإبداع الشعري هو إحيائه لمصطلح المدينة المألحة في الأدب العربي بعدما أصبحت المدينة في الشعر العربي الحديث لا تمثل مصدرا من مصادر الإلهام والإبداع الفكري ، فالشعراء والنقاد الغربيون لا يرون في المدينة العربية إلا مصدر رزق ونشاط نفعي مادي لا فكري وثقافي كما تعرف به مدنهم (باريس ، لندن ، روما) كمصادر استلهم منها شعراؤهم وأدباؤهم فنونهم وإبداعاتهم ، واتهموا مدنا بأنها تعطي الذاكرة ولا تعطي الإبداع ، وفي دفاع الشاعر عن مدينته ومقدساتها وحرماتها وسكونها تجسيد بين خضوعها الفكري للأطر والأهداف العامة التي تقوم عليها الدولة وتنبع من حرصها على استقرار البلاد وسلام العباد ، ويلاحظ ذلك من خلال رفضه وتورته على كل من يسعى إلى تهديد أمن البلاد من الانتهازيين والسلطويين والمتعصبين للمذاهب أو للفلسفات الخارجية ، بل دعا إلى الاعتداد بثوابت الأمة وبالتراث العقائدي الزاخر بالعطاءات الفكرية المتنوعة التي تخدم التراث الثقافي والتجديد الحضاري المؤسس عليها ، وهو بذلك يحاول مد جسور التواصل بين الضفة الشرقية للوطن العربي بالضفة الغربية ، ويؤكد على أن الحضارة الإسلامية والعربية واحدة موحدة برؤية فنية واحدة ثرية بامتزاج القوميات والثقافات ، ومجسدة لامتداد حضاري يتوسط هذا العالم ويحاول إنشاء جبهات دفاع صادة لمختلف التيارات الفكرية والثقافية والأدبية الوافدة من كل جهة على جسد هذه الأمة الطاهر .

أما بخصوص المبادرات الفنية الأدبية التي اتضحت عند الشاعر من خلال هذا العرض والتقويم المجل ما نتناوله في كتبه الثلاثة ، والذي يعد من الإنجازات الأدبية الساعية إلى التجديد وبعث الحركة الشعرية بصور مستحدثة ما نلحظه في

تأليفه بين الوزن أو الإيقاع العروضي الخليلي والوزن الشعري الحر هذا الأخير الذي أسهم فيه شعراء من أمثال " نازك الملائكة " و " بدر شاكر السياب " وغيرهم ، وقد أظهر الشاعر تمكنه من نظم أفكاره على الوزنين المختلفين ، وتحميلهما لمعان لم تكن لتظهر لولا قدرته على تطويع الوزن الأول لخدمة الفكرة وتأدية الرسالة الإبداعية ، وتكليف الوزن الثاني لتبني الشعور والإحاطة بالانفعال كما نلاحظ بجلاء تلويحه بالكلمة الشاعرة المثقلة بالإيحاء والدلالة وانتقاله بها من مجال إلى آخر محاولا كسر كل جمود بين العبارات والتراكيب التي توارثتها الشعوب العربية واتخاذها كسلاح فعال في مواجهة الزخم المعجمي الذي تتداوله الأقلام الشعرية الأخرى ، فكانت بذلك محور الحدث الإبداعي ونواة الصياغة في العمل الأدبي كما أنه لم يفتأ على مداعبة اللغة والتلاعب بتشكيلاتها اللفظية وتطعيمها بمشغولات علم البلاغة فكان الرمز أداة للتعبير في أقصى صورته وكانت الأسطورة مرجعا للتجربة الإنسانية المشتركة ، وكان الخيال هامشا للحرية والانطلاق ، وبذلك حاول أن يجد لواقعه معادلات موضوعية - حسب تعبير الناقد الإنجليزي " ت . س . إليوت " - في نماذجه الشعرية ، كما حاول مرارا التأسيس لتجربة شعرية فريدة حاولت أن تأخذ أو تنهل من الحياة بكل معانيها الواقعية والمثالية وهو بذلك ينقل الشعراء من مهمة الإنشاد والإمتاع والانحياز للغير لمهمة أشد صعوبة تحاول وضع الشاعر أمام رسالة إنسانية تهدف إلى تنشيط كوامن الحياة في الإنسان ودعوته إلى التأمل والتدبر في ما يحيط به من كائنات مرئية ولا مرئية ، كما تحاول هذه التجربة الشعرية بيان أهمية الوظيفة التي يؤديها الشعر من خلال الشعر نفسه كأداة وسلاح وكيان يفرض ذاته بذاته من خلال شعريته وانزياحه عن الأدوات الحافة به.

وفي نهاية المطاف لا يمكن للمرء قارئا أو ناقدا إلا أن يضع مثل هذه التجارب في مواضعها التي تستحقها تقديرا وإعجابا لا من قبيل التهليل الانطباعي أو الانفعالي بل على أسس موضوعية ترى بأعين ماورائية نافذة لفكر ومادة هذا العمل في تكامله وانسجامه وراثته على جميع المستويات الشكية والمعنوية ، ولا ندعي بذلك الكمال - حاشا لله - بل نود الوقوف على مكان القوة فيه وتشجيعه عسى أن يكون

منهلا ومصدرا لقواعد وآليات جديدة في التأليف والإبداع الشعري في المستقبل وهي مهمة موكلة إلى النقاد بالخصوص ، وما محاولتنا هذه إلا مبادرة ذات نية حسنة تهدف إلى لفت انتباه هؤلاء للدراسة هذا العمل ، ومحاوله استغلاله لإضاءة بعض الجوانب التي أغفلناها قصدا أو دون قصد .

الهوامش :

- 1- عبد الله حمادي : مدخل إلى الشعر الإسباني المعاصر للدراسات 1985 ص 242
- 2- المرجع نفسه ص 8.7
- 3- محمد بوشحيط : (الشعر الجزائري المعاصر) مجلة الرؤيا ص 3 اتحاد الكتاب الجزائريين 1983 - ص 36
- 4- حبيب موسى : القراءة والحدائث - دراسة - منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2000 ص أ
- 5- عبد الله حمادي : البرزخ والسكين (ديوان شعر) جامعة قسنطينة 2000 ص 9
- 6- عبد الرحمان عبد السلام محمد (إشكالية الحدائث) عالم الفكر مج 30 الكويت 2001 ص 74
- وينظر : - عبد السلام لمسدي - النقد والحدائث - دار الطليعة - بيروت 1983 ص 11
- 7- رولان بارث لذة النص ، ت ، منذر عياشي - مركز الإنماء القومي الحضاري
- 8- عبد الله حمادي : مساءلات في الفكر الأدبي ، ديوان المطبوعات الجامعية 1994 ص 208
- 9- المرجع نفسه ص
- 10- شكري عزيز الماضي : - محاضرات في نظرية الأدب ط 1 ، 1984 البعث ص 56
- 11- حسين خمري : شعرية الأنزياح في قصيدة (يامرأة من ورق التوت) مجلة الآداب قسنطينة ص 180
- 12- نادية خاوة (الأنطولوجية في ديوان البرزخ والسكين) محاضرة من الملتقى الثالث للسمياء والنص الأدبي ، جامعة بسكرة 2004 ص 345
- 13- بلحيا الطاهر : تأملات في الباذة الجزائر - المؤسسة الوطنية للكتاب 1989 ص 60
- 14- عبد الجليل مرتاض : مباحث لغوية في ضوء الفكر اللساني الحديث ، دار ثالة 2003 الجزائر ص 26
- 15- عبد القادر رايحي : النص والتعقيد ج 1 - دار الغرب - 2003 وهران ص 47
- 16- شكري عزيز الماضي : محاضرات في نظرية الأدب ط 1 ، 1984 ، دار البعث ص 56

إشكالات البنيوية

في كتابات النقاد الغربيين المعاصرين

بقلم

د. بشير تاويريت

قسم الأدب العربي . كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة محمد خيضر . بسكرة . جامعة



ملخص

يقف القارئ في هذه الدراسة النقدية عند أهم الإشكالات النظرية و التطبيقية التي تختزل لنا أزمة النقد البنيوي في كتابات النقاد الغربيين المعاصرين ، وذلك من خلال استحضار تلك التصريحات المنددة بالنقد البنيوي ممارسة و تنظيرا . وقد جرى التركيز في منعطفات هذه الدراسة على اعترافات النقاد المؤسسين لاستراتيجية النقد البنيوي . و أحب أن أشير في هذا السياق أن هذه الدراسة ليست مجرد استساخ أو سرد ممل لتلك التصريحات فحسب و إنما هي محاولة جريئة عمدنا فيها إلى جمع شتات ما توفر لدينا من اعترافات و تصريحات ثم عملنا على مناقشتها و تحليلها تحليلًا موضوعيًا لا يخلو من تقديم بعض الاقتراحات الجديدة الرامية إلى تخطي الأزمة البنيوية سواء على المستوى النظري أو الإجرائي .

Résumé :

A travers un recueil de textes déclaratifs congédiant la critique structuraliste tant au niveau de la pratique qu'en théorie, cette étude traite des plus importantes problématiques théoriques et pratiques qui nous résument la crise de la critique structuraliste dans les écrits de spécialistes occidentaux contemporains.

Cette étude s'est focalisée sur les affirmations des auteurs fondateurs de la stratégie critique structuraliste .

Loin de se limiter aux simples recueil et récit de ces déclarations, cette recherche se présente comme un essai entreprenant et ambitieux. Il y était question de rassembler les assertions et déclarations qui nous étaient disponibles, de procéder ensuite à leurs analyses de manière objective et surtout de suggérer quelques nouvelles pistes quant au dépassement de la crise structuraliste sur les plans théorique et opérationnel.

لقد ندد النقاد الغربيون بالأطر النظرية والإجرائية النقد البنيوي، وهذا التنديد يكشف بوضوح عن أزمة النقد البنيوي، حيث توالى تصريحات النقاد الغربيين بهذه الأزمة، ويأتي في الطليعة هذه الانتقادات، نقد "روحية غارودي" لمفهوم البنية، التي تنشأ من خلال وحدات تتقمص أساسيات ثلاثة هي: الشمولية والتحويلات والضبط الذاتي، كما حددها بياجيه، والبنية بهذا المفهوم: «في أيامنا هذه تحمل فلسفة تمثل في طبعها الدوغمائية نقطة الوصول لفلسفة موت الإنسان، الفلسفة التي بلا ذات»⁽¹⁾. فالبنوية في تصور غارودي هي آلة استلاب للذات الإنسانية، بل هي طريق يؤدي إلى انغلاق البنية عن التاريخ، ويتضح ذلك عند ألتوسير وتلامذته وغودلييه يقول غارودي: «إن ألتوسير وتلامذته يجدون أنفسهم مضطرين، بحجة التطهير المفهومي والدقة العلمية، إلى أن يسقطوا من الرأسمال كل ما ليس بنظرية خالصة للمفهوم والبنية، وإلى أن يجدوا من التاريخ كل ذات، وإلى أن يجعلوا حركة البنية بالذات وتحولها غير مفهومين، بل إنهم لا يجمعون حين يتحدثون ماركس عن الذات عن اتهامه بالافتقار إلى الدقة، وبالرجوع القهقري إلى الأنثربولوجيا، وبالسقوط من جديد في الأيديولوجيا...»⁽²⁾. ويشير غارودي إلى أن موريس غودلييه قد اقتفى خطوات ألتوسير بالرغم من وعيه لفشل ألتوسير في محاولته إعادة بناء التاريخ بدءاً من البنية المشروع نفسه، ومن دون أن يتخلّى عن مسلمات البنية المجردة في إقصائها للإنسان كذات والتاريخ والتأويل البنياني⁽³⁾. ولعل مثل هذه الشكوك التي أحاطت بالبنوية عملت على تحويلها إلى هيكل جامد، حين أفرغته من عطاءات الذات وحرمتها من التعلق بالتاريخ من حيث هو استراتيجية فكرية موجودة بالقوة في بنية الأشياء⁽⁴⁾.

هذه السلبات هي التي جعلت "ميشال فوكو" يرفض بأن يكون بنيويًا، بل إنه عمد إلى حذف هذه الكلمة من كتابه «الكلمات والأشياء» بكامله، فيما أشار جوناتان كيلر في واحدة من محاضراته الحسان إلى أن كلمة البنيوية قد فقدت جدواها بعد أن صارت تشير إلى إضمامة من العلوم، منذ أن وجد جان بياجيه في كتابه «البنوية» أن الرياضيات والمنطق والفيزياء وعلم الحياة وكل العلوم

الاجتماعية اهتمت بالبنية ، وأنها كانت «بنوية» قبل مجيء كلود ليفيس شتراوس⁽⁵⁾ ، وإن كانت هذه العلوم على اختلاف مشاربها قد ارتوت من ينبوع البنيوية فإن الذي يميز البنيوية الفرنسية في النقد الأدبي هو المعنى الجديد الذي أضفته على البنية ، فغدت بهذا الإضفاء متحوّلا نقديا جديدا يختلف عن سائر المتحوّلات النقدية الأخرى التي عجت بها أطروحات الآخرين ، غير الفرنسيين. هذا وقد لقي المنهج الشكلي هو الآخر انتقادا من النقاد المفكرين الغربيين ، بل حتى من المؤسسين لهذا النمط البنيوي ، كما سنرى فيما بعد ونشير إلى أن النقد الذي حام حول المنهج الشكلي عامة و الشكلايين الروس خاصة ، انصب على الجانب العام المتمثل في تقصير الدراسة الأدبية على بعض الجوانب الجزئية من العمل الأدبي كشكل أعلى من التعبير الحضاري.

و يرى " تروتسكي " أن التناقض الأول الذي يظهر للعيان فيما يخص الشكلية الروسية ارتباطها للمدرسة المستقبلية التي أخذت تتقرب أكثر فأكثر من الشيوعية ، في حين أن المنهج الشكلي يظهر تنافره مع النظرية الماركسية⁽⁶⁾ . وهذا العمل الذي لا يهاب الشكلايون تسميته بالعلم الشكلي للشعر ، أو الشعرية يبقى مفيدا ، و لكن يجب أن نفهم من الإفادة هنا الطابع الجزئي و الإجرائي ، و هذا العلم الذي لن يكن سوى عنصر أساسي للتقنية الشعرية لقواعد الحرفية⁽⁷⁾ ، فالنظرية الشكلية للفن على الرغم من اصطناعها و رجعتها فإن أجزاء مما تقدمه للبحث مفيد ، فهذا المجهض غير المحتشم الذي هو الشكلية ، هو جهاز مفهومي تبسيطي مبني على جهلهم بالوحدة النفسية للإنسان المجتمع ، للإنسان الذي يخلق و يستهلك ما خلقه⁽⁸⁾ . و ينتهي تروتسكي إلى أن الموضوعية التي يسعى الشكلايون إلى بلوغها تؤدي بهم إلى تأليه الكلمة ، فمن غير الصواب أن نرى في الإبلاغ الفني مجرد هراء ، أنه تحويل للواقع حسب القوانين الفنية الخاصة.

إن الفن عنصر لا يمكنه أن يعيش مستقلا ، بل هو وظيفة للإنسان المجتمع المرتبط بمحيطه و غط عيشه⁽⁹⁾ ، و يتوصل تروتسكي في الأخير إلى حل توفيقى يرى فيه أن العمل الفني يجب أن يحاكم أولا ، و مبدأ الحكم من المبادئ التي

ترفضها الشكلية حسب قوانينها الخاصة ، أي الداخلية و الفنية الخالصة ، و لكن الماركسية وحدها قادرة على التفسير لماذا و كيف فالطرق التي تقدمها الشكلية ضرورية و لكنها غير كافية ، و يرى تروتسكي أن الفهم الشكلياني للأدب فهم مثالي ، و أن تحرير الفن من الحياة و إعلانه كشاط مستقل يعني حرمانه ، بل أن الحاجة لهذه العملية - التحريرية - هي علامة أكيدة للتفسخ الأيديولوجي⁽¹⁰⁾ ، فاستقلالية العامل الاجتماعية على طريقة شك洛夫سكي - و هو مثال محدد هو الآخر بالشروط الاجتماعية التي أنتج فيها و يرى تروتسكي أن المدرسة الشكلانية هي (مجهض المثالية) في المسائل الفنية ، فهم يعتقدون في البدء كانت الكلمة ، و لكن الشيوعيين يعتقدون أنه في البدء كان الفعل ثم جاءت الكلمة بعده ، والسؤال : هل استطاع الفهم الماركسي أن يستوعب التناقض الذي سقطت فيه الشكلانية ، أم أنه نقله من موقع لآخر من موقع شكلانية إلى موقع ذي معايير ومنطلقات جديدة تهتم بالمحتوى و البعد البلاغي الأيديولوجي للعمل الأدبي ؟

و إذا ما تأملنا المصطلحات التي اعتمدها تروتسكي نجده يسير بالنقد في الاتجاه العاكس الذي أطلق عليه البنيويون خارجيات النص ، عندئذ يصعب فهم النصوص و استعمالها من جوانبها المختلفة ؛ لأنه يغيب النص في ثنائية الشكل و المضمون فيسقط في مغبة تناول النص من زاوية أحادية ، يقول " جيرار جينات " : في مقالة حول «علاقة الشعرية بالتاريخ» و بإيديولوجية اللاتاريخية ، فهو يشير إلى أن المآخذ الأساسية التي تسجل على المنهج الشكلي تكمن في عدم إدخال التاريخ في التحليل ، بحيث أن الشكلانية تأخذ لحظة تزامنية ، تهمل الظروف التي واكبت بنية النص ، أي اعتبار النص مكتملا بذاته⁽¹¹⁾ فالنقد الشكلياني بهذه الكيفية يلغي العامل الزمني و التاريخ ، و يتناول النص من داخله كمعطى فاعل الآن فقط ، ثم إن هذا النقد يهمل مبدع العمل الأدبي ، الذي هو الإنسان الحي الذي كتبه⁽¹²⁾ ، ومن هنا يلغى هذا النقد الفاعلية الإبداعية ليصير فاعل النص هو البنيات الشكلية الداخلية و ليس الإنسان و المجتمع و التاريخ ، و يغيب الإنسان ، و يستحضر مكانه النسق كلعبة بنيوية فارغة لا تحمل أية حمولات معينة ، فإذا كان للنص قصد فهو

القصد الداخلي (قصد الأدبية) أي قصد اللعبة نفسها ، و بهذا يكون التاريخ قد : «
ألغى في موضوعه و في مسعاه لأن العمل مستخلص من سلسلة كرنولوجية للوقائع
الإنسانية... »⁽¹³⁾

إن الرؤية الشكلية بهذا المفهوم تستبدل التطور بالتعاقب الذي يصبح معه النص
الأدبي مجرد بنيات غير دالة ، يمكن أن تضيء نفسها بنفسها و قضية نفي التاريخ
هي قضية وهمية و غير ممكنة ، لأن النص الأدبي يحمل معه دوما ميسم تاريخه .

و قد وقف " لوسيان جولدمان " في تأسيسه للبنوية التكوينية ، موقفا معارضا
للبنوية الشكلانية اللسانية : فيما يخص البنوية اللسانية فإن العقبة الألسنية
الأساسية التي تقف في وجه أي فهم إيجابي لعمل ثقافي ما تبدو لي أنها تبطل
الأهمية المعطاة ، لهذا المنهج ، لا مجال هنا بطبيعة الحال لإنكار فعالية هذا المنهج ،
فيما يتعلق بالنطاق الألسني (اللغوي) البحث ، إنكاري لأهمية هذا المنهج (في
النقد) ليس تراجعا إلى عدم كفاءتي في هذا الميدان فحسب ، إنما يتناول أيضا
اعتراضا أساسيا فيما يخص التفريق ما بين مصطلحي : اللغة و الكلام ، و إنني
أعتقد باستحالة تطبيق الممارسة فيما يخص المصطلح : « الأول (اللغة) على المجال
الخاص بالمصطلح الثاني (الكلام) »⁽¹⁴⁾ إن ما يأخذه جولدمان عن البنوية
الشكلية ، و برغم إقراره بأهمية و فعالية المنهج البنوي الشكلاني - هو تعامل هذا
المنهج الشكلاني مع الأدب ، تعامللا يستمد أدواته و مفاهيمه الإجرائية من
اللسانيات ، مما يؤدي إلى اعتبار النص كيانا لغويا مغلقا ، تنعدم علاقاته مع البنية
الاقتصادية و الاجتماعية لذلك ينتج جولدمان على ضرورة القيام باكتشاف
البنيات الكلية المعبرة للنص و دراستها ، و عند ذلك اتخاذها دليلا و مرشدا للدراسة
الألسنية ، و يبقى الاختلاف قائما بين البنوية الشكلانية و البنوية التكوينية ،
وينحصر هذا الاختلاف في تصور كل منهما للبنية .

وإذا كانت البنية الشكلانية ، تتسم بالانغلاق عن نفسها و انعزالها عن الذات
الفاعلة و التاريخ ، فإن البنوية التكوينية ترى أن البنية ليست كيانا مغلقا ، و هي

ترتبط بوشائج قوية مع كافة أنواع السلوك الإنساني في سيرورته الاقتصادية و الاجتماعية.

إن هذه المآخذ التي أخذت عن البنيوية الشكلانية، تؤكد لها تصريحات النقاد المؤسسين أنفسهم، فقد كتب شلوفسكي - أحد أقطاب الشكلانية الروسية - في عام 1926 في كتابه « المصنع الثالث » ما يشبه الاعتراف بقصور الدراسة الشكلية، و هذا ما عناه بقوله: « إن تجاهل القضايا غير الجمالية بطريقة جذرية يعتبر خطأ، إذ أن التغيرات الفنية يمكن أن تحدث، بل هي تحدث بالفعل - على أساس عوامل غير جمالية، و ذلك عندما تخضع لغة ما لتأثير لغة أخرى عندما تظهر مقتضيات إجتماعية جديدة»⁽¹⁵⁾، و يعبر شلوفسكي في مقدمة كتابه المتأخر عن « نظرية النشر » عن أزمة الشكلية حيث أكد على: « تأثير الظروف الاجتماعية على الأدب، خاصة من خلال اللغة: سواء كانت بمستواها العادي أو الشعري... »⁽¹⁶⁾ و لعل هذا ما جعل "تودوروف" يذهب إلى أن الاعتماد على مبدأ البنية الشكلية المباشرة يقود إلى العقم والانهاء إلى مجرد تصنيف محدود⁽¹⁷⁾، و قد ألفتناه في موضع آخر قد قرأ السلام على و أد المعنى في ضوء المقاربات البنيوية الحائرة، لأن « ظاهر المعنى الذي يمثل موضوع التفسير لا يمكن تحديده بسهولة (...) و من ثم فإن ما يمكن وصفه موضوعيا - عدد الكلمات أو عدد المقاطع أو الأصوات، لا يمكننا من استخراج المعنى ».⁽¹⁸⁾

و بالتالي فإن أطروحات البنيويين الشكلانيين - في ظل تصريحات منظريها - تعمل على إقصاء جملة من المعايير الجمالية في الحقل النقدي، هذا ناهيك عن عزلها للعمل الأدبي عن الظروف الثقافية أو النفسية أو الاجتماعية، و ذلك بإعلانها من سلطة النص على حساب السلطات الخارجية الأخرى، فهل الأزمة تكمن في هذا العزل ؟ ثم ما قيمة تحقيق اجتماعية الأدب في ضوء النقد الماركسي الذي يعد الرحم الأول في ميلاد و إخصاب البنيوية التكوينية (Structuralisme génétique) التي كانت ردة فعل عن عنفوان البنيوية الشكلانية في محاولتها الطموحة و الجريئة لإخراج النص من تقوقعه الشكلي و ذلك عن طريق إعطاء

الأولوية إلى سلطات خارجية، عن عالم النص المدروس و السؤال الذي يطرح نفسه، هل استطاعت البنيوية التكوينية - في إطلاقها العنان لانفتاح البنية عن الذات والتاريخ والمجتمع والإنسان - ترقيع الثوب الذي عملت البنيوية على تمزيقه في منعطفات حضارية حرجة ؟ إن وظيفة البنية الأدبية في تصور " جولدمان " تتلخص في تقديم رؤية الكاتب أو الأديب للحياة، و لكن هذه الرؤية لا يمكن أن تكون من اختراع الفرد و ابتكاره، و إنما هي رؤية تسوغها فئة اجتماعية، يشكل الكاتب أو الأديب أحد الأفراد المنضوين في صفوفها، و تحت لوائها، و على الناقد الذي يريد دراسة الأعمال الأدبية في حقبة ما أن يدرسها متجاوزا بناءها الذاتي إلى التكوين المعرفي الذي ينطلق منه الكاتب، و يحدد المنظور الذي يتطلع منه إلى العالم.

إن الطابع الشمولي أو الكلي : الذي تتسم به بنيوية " جولدمان " و إيمائها بحتمية العلاقة بين شكل البنية الأدبية و التكوين المعرفي لقرحة الكاتب الاجتماعية، يجعلان من تطبيق هذا المنهج أمرا صعبا، إن لم يكن في عداد المستحيل، فكيف يمكن التحقق من صحة قراءتنا لكاتب معين ؟ و ما الذي يمكن فعله إذا تعذر على الباحث أن يعرف بوضوح السياق التاريخي المطلوب الذي يمكننا من معرفة التكوين المعرفي للكاتب وطبقته الاجتماعية، و كيف يمكن إجراء تحليل بنيوي تكويني لأعمال قليلة أو فردية هي كل ما تبقى من عنصر سابق نجهل الكثير عنه.

كلنا نتفق على الاعتراف بمجهودات لوسيان جولدمان خاصة في تطبيقاته الرائدة التي عمل فيها على تطبيق منهجه في أطروحته «الإله الخفي» (منشورات غاليمان 1956) و في المقالات التي تدور من حولها، و ثمة بحوث بالغة الأهمية عن «الجانيسينية» و عن باسكال و راسين نجبها في منهجه، و قد ظل جولدمان في كل ذلك ماركسيا، صفته صفة عالم اجتماعي لم يعد يتجه نحو مضمون الفكر و لكن نحو البنية المرسومة للفكر الاجتماعي و نحو التأثير الذي يمكننا ممارسته.

إن اعترافنا بهذه المجهودات لا يعنى أبدا إعفاء النقد التكويني من مزالق أدركها جولدمان نفسه و قد تجلّى ذلك في تصريحه بقصور منهجه حيث يقول : « التحليل السوسيولوجي للعمل الأدبي لا يستوفي العمل الفني ، ولكن يشغل خطوات أولى ضرورية على الطريق الموصل إليه »⁽¹⁹⁾.

بهذا التصريح الجولدسماني تبدو البنيوية التكوينية مثلها هي الأخرى مثل البنيوية الشكلانية أرادت النهوض بجماليات النص الأدبي من موطن النقد التقليدي بالنقد الذي اهتم بمختلف السياقات الخارجية مهملا في الوقت نفسه ، السياق الداخلي الذي تكشف عنه العلاقات الداخلية للبنية ، و قد جاءت البنيوية التكوينية لتعلن افتتاح هذه البنية و انبجاسها عن الواقع الاجتماعي لتكون بذلك بنية دالة ، بعدما كانت بنية صماء خرساء في ضوء البنيوية الشكلانية ، فما زادت عقبا ذلك البناء سوى طيف آخر أكثر تحجرا و جمودا من طيوف الشكلية الروسية .

إن ما يحدث في ضوء المقاربات البنيوية ليس مجرد إنطاق القصيدة ، بل إنه عملية تعذيب حقيقي للنص الإبداعي كما يرى روبرت شولز حيث إن : « فكرة وضع لغة الشعر فوق جهاز الشد و إرغامه لإفضاء أسرارهِ ، أو ما هو أسوء ، على الاعتراف الكاذب ، كانت مثار رعب جزء كبير من العالم الأدبي ، قد كانت النتائج الفعلية للنقد الأدبي الذي قام به البنيويون فظيعة بما فيه الكفاية »⁽²⁰⁾ و يؤخذ على البنيوية كثير من ذلك أن أكثر روادها المتعاملين بأصولها و مبادئها تخلوا عنها. و في مقدمة هؤلاء رولان بارت الذي أنكر مفهوم العلمية البنيوية في مستهل كتابه (SZ) الصادر عام 1970 معلنا من جانبه انعدام الجدوى من أي منهجية نقدية مؤكدا أن كل حديثا حول الثقافة يزعم أنه حديث علمي لا يتجاوز الادعاءات⁽²¹⁾. و من بين البنيويين الذين تنكروا للبنيوية بل عجلوا الدعوة إلى هدمها و التخلي عنها " جاك دريدا " الذي هاجم ما فيها من تجريد و اختزال شكلي ، و آنية ميتافيزيقية ، كما سنرى في حديثنا عن منطلقات " دريدا " في التأسيس للنفيك. يضاف إلى هؤلاء النقاد : " جوليا كريستيفا " و مجموعة تال كال ، التي دعت إلى

سيمائية جديدة، و يمكن تلخيص مأخذ النقاد الغربيين عن البنيوية في النقاط التالية :

1. البنيوية شبه علم فهي تخبرنا برطانة غريبة و رسوم بيانية جداول معقدة بأشياء نعرفها مسبقا، و لذلك فهي ليست عديمة القيمة فحسب وإنما مؤذية لأنها تجرد الأدب و نقده من صفاتها الإنسانية.

2. تتجاهل البنيوية التاريخ تجاهلا تاما، قد يكون ذلك مقبولا إذا تعلق الأمر بالوصف القائم على التعامل مع الثوابت و السواكن، أما في التعامل مع الظواهر ذات الطبيعة المتغيرة مع الزمن فلا.

3. ليست البنيوية سوى صورة محرفة للنقد الجديد New Criticism الذي عرفناه من خلال التعامل مع النص كما لو أنه مقطوع عن موضوعه مستقل عن موضوع القراءة.

4. البنيوية تهمل المعنى و إن كانت تسلم بأن النص متعدد المعاني و لكن عدم اهتمامها به يجعلها على خلاف مع التأويليين Herméneutics و ذلك يعني بصورة من الصور أن البنيوية ليس لها ما تقدمه.⁽²²⁾

و لم تسلم البنيوية أيضا من انتقادات أخرى أثّرنا اختصارها في نقاط ثلاث :

1. الغموض و الإبهام و المراوغة أحيانا و هذه النقاط جعلت من عملية تلقي النقد الأدبي عملية متعثرة، لقد كتبت " كروزولين " تقول : بعد قراءتها لكثير من الدراسات البنيوية : « بدهتني فكرة مؤداها أن حركة فكرية بعينها يمكن أن تشيع دون أن تكون مفهومة تماما و لقد سبق أن هاجم " ميشال ريفايتر " ما كتبه جاكبسون و شتراوس في تحليلهما لسوناتة " يودلير " ، حيث يرى أنهما توصلا عن طريق الدراسة البنيوية إلى توصيف قوانين بنيوية، يستعصي فهمها لا على القارئ العادي، بل على القارئ المثقف العارف »⁽²³⁾.

2. أخذ على البنيوية كذلك أنها أدت إلى عزل الأعمال الأدبية عن مؤلفها عزلا تاما، وذلك بإعلانها عن موت المؤلف، لقد كتب بارث يقول: « إن علم الأدب لا يستطيع أن ينسب العمل الأدبي، وإن كان هذا العمل الأدبي مرهونا بتوقيع كاتبه، إلا إلى الأسطورة وذلك لأن الكاتب ليس هو العمل »⁽²⁴⁾ ولا يخفى أن القصد هنا من تشبيهه بالأسطورة، أن الأسطورة كلام ليس له مؤلف بعينه كما يبدو، إنها فقط تضطلع بمضمون أو مغزى و من الإنصاف أن نقول إن شعار موت المؤلف عند بارث وغيره من البنيويين لم يكن أبدا يقصد به إلا ضح حد للتيارات التاريخية والنفسية والاجتماعية في دراسة الأدب، فقد كان البنيويون يهدفون إلى عدم اعتبار البيانات المرتبطة بالمؤلف هي جوهر الدراسات النقدية.

3. عجز المنهج في تحقيق ما وعد به من القدرة على تفسير الأعمال الأدبية من خلال النموذج اللغوي، وهذا ما أكده جوناتان كيلر Jonathan culler حين كتب يقول: « إن باستطاعة اللغة أن تقدم نقطة ارتكاز عامة للنص الأدبي، لكنها لا تقدم منها لتفسيره »⁽²⁵⁾

هذه هي مجمل الانتقادات التي وجهت للبنيوية عموما و البنيوية الشكلانية و التكوينية على وجه الخصوص، وهي انتقادات ظهرت فيها البنيوية آلة استلاب حائرة لجماليات النصوص و أبعادها المعرفية و الإنسانية، ابتداء من انغلاق البنية عن ذاتها و عن التاريخ و الذات و الإنسان إلى تحويل النص الأدبي إلى مجموعة من الجداول و الأشكال الهندسية التي لا تخبرنا في النهاية بشيء، و إن ادعت البنيوية أنها قد جاءت بآليات نقدية جديدة، فما ذلك سوى صورة محرفة من صور النقد الجديد، صورة أهملت المعنى و عملت على تغييره تحت مظلة الغموض، متجاهلة في ذلك دور المبدع. و بهذه الصورة عجزت البنيوية في تحقيق أحلامها الواعدة، و لم تجد من هذه الأحلام الوردية سوى بياجيه مدافعا عنها فهو الذي يرى أن الاتهام الذي وجه للبنيوية: « هو اتهام مبني على سوء فهم لمعنى النزعة الإنسانية، ذلك لأن موجهي هذه التهمة يعرفون الذات الإنسانية على طريقتهم الخاصة ثم ينعون على البنائية أنها تهدم هذا الذي يرون أنه هو تلك الذات و

حقيقة الأمر في رأي بياجييه ، هي أن البنيوية تفرق بين الذات الفردية التي لا تتخذها البنائية موضوعاً للبحث على الإطلاق و بين الذات المعرفية ، أي تلك النواة المعرفية التي تشترك فيها الذات الفردية كلها على مستوى واحد»⁽²⁶⁾ ، إن انتصار بياجييه للنزعة الإنسانية التي عملت البنيوية على تحطيمها لا يضيف إلى ملف البنيوية سوى مظهراً آخر من مظاهر التعصب لدورة نقدية حائرة و ما الوابل النقدي الذي عجت به أطروحات النقاد الغربيين الذين تعرضنا إليهم في هذا المقال ، بما في ذلك تصريحات النقاد المؤسسين ، إلا دلائل وحججاً قاطعة عن أزمة البنيوية.

الهوامش :

- (1) روجيه غارودي: البنيوية فلسفة موت الإنسان، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، سوريا ، ط3 ، 1983 ، ص13.
- (2) المرجع نفسه، ص104
- (3) المرجع نفسه ، ص108
- (4) ينظر: عبد الله إبراهيم: في معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط2 ، 1996 ، ص 40.
- (5) المرجع نفسه، ص 40.
- (6) ينظر: تروتسكي: الأدب والثورة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، سوريا ، ط1، د ت ، ص 189.
- (7) المرجع نفسه، ص 190.
- (8) المرجع نفسه ، ص 198 ، 199.
- (9) المرجع نفسه ، ص 200. 208.
- (10) المرجع نفسه ، ص 210.
- (11) Jerrar Jinnat: Figures 3 , Collection « Lequels » édition de Seuil , 1966, p 13.
- (12) Ebi dem , p 280.
- (13) Ebidem , p280.
- (14) ينظر : عمر محمد الطالب: مناهج الدراسات الأدبية الحديثة، دار السير للنشر و التوزيع ، المغرب ، ط1 ، 1988 ، ص 246.
- (15) صلاح فضل: نظرية البنائية في النقد الأدبي، منشورات الأفاق الجديدة ، بيروت ، ط3 ، 1997 ، ص 104.

- (16) المرجع نفسه، ص 103.
- (17) المرجع نفسه، ص 138.
- (18) تيزفيتان تودوروف: مقدمة الشعرية، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار تبقال للنشر والتوزيع، المغرب، ط 2، 1990، ص 5، ثم ينظر: عبد العزيز حمودة: المراسم المحدث من البنية إلى التفكيك، منشورات عالم المعرفة، الكويت، ط 1، 1998، ص 283، 284.
- (19) جون إيف تادييه: النقد الأدبي في القرن العشرين، ترجمة منذر عياشي، دار الحاسوب للطباعة، حلب، ط 1، 1994، ص 129.
- (20) Robert Schoes: Structure in literature An introduction, Now Haven and london, yale, up, 1971, p 22.
- (21) جون ستروك: البنية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا، ترجمة محمد عصفور، المجلس الوطني والفنون والآداب، الكويت، ط 1، 1996، ص 103-108.
- (22) ينظر: سوزان روبين: ما هو النقد، ترجمة سلافة حجاوي، دار الشؤون الثقافية، ط 1، بغداد، 1979، ص 80 - 89، ثم ينظر إبراهيم خليل في النقد والنقد الألسني، مختارات أردنية دراسات نقدية، دار الكندي للنشر والتوزيع، الأردن، ط 1، 2002، ص 91.
- (23) ينظر: عبد العزيز حمودة: المراسم المحدث من البنية إلى التفكيك، ص 281.
- (24) ينظر: رولان بارث: نقد و حقيقة، ترجمة منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط 1، 1994، ص 69.
- (25) جوناثان كيلر: الشعرية البنية، ترجمة ثائر ذيب، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، ط 1، 2000، ص 109.
- (26) ينظر: عبد الله إبراهيم وآخرون، في معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، ص 67.

تحليل البنية العميقة لصور الجملة الاعتراضية في القرآن الكريم

إعداد

د. رابح بومعزة

قسم الأدب العربي. كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة محمد خيضر. بسكرة. الجزائر.



ملخص:

هذا المقال يعرض لصور الجملة الاعتراضية في القرآن الكريم من حيث البساطة، والتركيب، ومن حيث ورودها ماضوية أو مضارعية أو شرطية، ومن حيث الإثبات والنفي والتوكيد والاستفهام، ومن حيث مجيؤها توليدية أو تحويلية، بإبراز ورودها فاصلة بين المتلازمين، أو فاصلة بين غير المتلازمين. ويتناول المقال كيفية استكناه معاني الصور باللجوء إلى بنياتها العميقة، مع رصد لكل الجمل الاعتراضية في المدونة المشار إليها.

مقدمة :

بعد استعراضنا طائفة من التعريفات التي حدت بها الجملة العربية من قبل علماء العربية قدمائهم ومحدثهم، انتهينا إلى أن الفرق الأساسي بين مفهوم "الجملة" ومفهوم "الوحدة الإسنادية" ظل غائبا في نحونا العربي على نحو يكاد ينظر فيه إلى المفهومين على أنهما رديفان، وبخاصة على المستوى التطبيقي.

و أمام هذا الاضطراب الملاحظ، و حتى لا يبقى مصطلحا الجملة والوحدة الإسنادية مستغلقيين نلفت الانتباه إلى أن الوحدة الإسنادية دال يحيل إلى مدلول محدد ينبغي أن لا ينصرف ذهن الملتقي إلا إليه عند إطلاقه. هذا المدلول الذي يحمله هذا الدال المتمثل في الوحدة الإسنادية إنما هو التركيب الذي "يتوفر فيه شرط الإسناد

ولا يتوفر فيه شرط الاستقلال" أي أن الوحدة الإسنادية تطلق فقط على التركيب المتضمن المسند و المسند إليه الوارد ضمن تركيب أكبر منه، سواء أكانت هذه الوحدة الإسنادية بسيطة أم مركبة. وجريا على ذلك نرى أن مصطلح "الجملة" هو الآخر دال لا يحيل إلا على التركيب الإسنادي المستقل معنى ومبنى بسيطا كان أم مركبا. ذلك أن أفراد مصطلح "الوحدة الإسنادية" الذي التبس مفهومه على الكثيرين على التراكيب الإسنادية المرتبطة بما قبلها أو بعدها، و أفراد مصطلح "الجملة" على التراكيب التي لم تكن جزءا من أي تركيب آخر أوسع منها من شأنه تخليص نحونا العربي من الخلط والاضطراب اللذين ترى أن مآتاهما هو عسر حصر تحديد صارم لهذين المصطلحين، وعدم توحيد المصطلح للمدلول الواحد. لأن التعريفات السابقة للجملة التي مفادها أن كون التركيب الإسنادي جملة ليس بالصفة الثابتة فيه، و إنما هي حالة قد تتوفر في سياق، و تنعدم في آخر.

و مختصر القول إن الفرق الجوهرى بين الجملة و الوحدة الإسنادية إنما يعزى فقط إلى توفر شرط الاستقلال أو عدم توفره.

الجملة الاعترافية :

تشارك كغيرها من الجمل في أنها تركيب إسنادي مستقل معنى ومبنى. و قد عرفها صاحب كتاب "ارتشاف الضرب" بأنها جملة المناسبة للمقصود، بحيث تكون كالتوكيد

له أو التنبيه على حال من أحواله⁽¹⁾. " و لا تأتي إلا بين الجزأين المنفصل بعضهما عن بعض، المقتضي كل منهما الآخر⁽²⁾ " أي تأتي فاصلة بين المتلازمين لتفيد معنى دلاليا كالتنبيه، أو التأكيد، أو الدعاء، أو التوضيح. و تأتي " لتقوية إسناد أو مجازاة أو نحو ذلك"⁽³⁾، أي تأتي لتقوية المعنى أو توضيحه⁽⁴⁾. و إذا كانت الجملة الاعتراضية ترتبط ارتباطا تركيبيا بالجملة المفصلة، فإنه ينبغي لهذه الجملة الاعتراضية ألا تكون معمولة لأحد أجزاء الجملة المفصلة⁽⁵⁾ أو الوحدة الإسنادية المفصلة⁽⁶⁾ لأن " الاعتراض لا موضع له من الإعراب، ولا يعمل فيه شيء من الكلام المعترض بين بعضه وبعض⁽⁷⁾ ". و أساس ذلك أن الاعتراض بهذه الجملة الاعتراضية يعد وسيلة من وسائل إطالة الجملة الأصلية أو الوحدة الاسنادية " ذلك أن كل كلام يتعلق⁽⁸⁾ بالجملة⁽⁹⁾ يعد منها وإن لم يكن له موقع من الإعراب"⁽¹⁰⁾. ومعرفة بداية هذه الجملة ونهايتها أي معرفة حدودها يعول فيه على مبدأ استقلالها التركيبي، و عدم ورود الملفوظ فيها عنصرا من عناصر مركب آخر⁽¹¹⁾ شأنها في ذلك شأن الجمل الابتدائية⁽¹²⁾، والاستثنائية⁽¹³⁾، والتفسيرية⁽¹⁴⁾؛ لذلك فإنه لا يعد التركيب الإسنادي فاصلا بين جزأين الأصل فيهما التلازم، وهذان الجزآن يرتبطان بالجملة الفاصلة ويتعلقان بها تعلق المعمول به. ولا يسمى مثل هذا التركيب الإسنادي جملة اعتراضية⁽¹⁵⁾ وذلك كالفصل بالتركيب الإسنادي الفعلي⁽¹⁶⁾ بين المنعوت ونعته في قوله تعالى: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ (الواقعة/ 75). الذي ذهب بعضهم إلى أنه جملة اعتراضية⁽¹⁷⁾.

« و الاعتراض جار عند العرب مجرى التأكيد، فلذلك لا يتسع عليهم ولا يستنكر عندهم أن يعترض بين الفعل وفاعله، و المبتدأ وخبره و غير ذلك مما لا يجوز الفصل فيه بغيره إلا شاذا أو مؤولا⁽¹⁸⁾. و للجملة الاعتراضية أحرف هي في الأصل أحرف استثناء أو عطف"، و إنما تكون للاعتراض فتقترن بها الجملة الاعتراضية إذا وقعت بين شيئين متلازمين "⁽¹⁹⁾متطالين⁽²⁰⁾ يطلب كل منهما الآخر. و هذه الأحرف هي الواو، و الفاء، و"إذ" التعليلية⁽²¹⁾، و"حتى"⁽²²⁾. و قد تكون الجملة الاعتراضية طلبية أو مصدرة بعلامة استقبال⁽²³⁾. و يؤكد ابن جني على أن " الاعتراض في شعر العرب و منثورها كثير و حسن و دال على فصاحة المتكلم و قوة نفسه و امتدادها⁽²⁴⁾ ».

و لئن كانت الجملة الاعتراضية من حيث التحليل النحوي لا تمثل عنصرا إسناديا

(فلا هي مسند و لا هي مسند إليه) ، و لا تمثل عنصرا غير إسنادي - إذ هي ليست وحدة إسنادية متممة و مكملة في بناء الجملة لكونها جملة أجنبية⁽²⁵⁾ - فإنها لا تنفك عن الجملة الأصلية ، و لا تزول عنها من حيث معناها ، لأنها تعترض بين عنصرين متضامين متلازمين⁽²⁶⁾ " لإفادة الكلام تقوية و تسديدا أو تحسينا "⁽²⁷⁾ .

و لئن كانت هذه الجملة الاعتراضية حين الاستغناء عنها لم تختل فائدة الكلام⁽²⁸⁾ ، أي لا يؤدي ذلك إلى الإمساس بالبنية الأساسية للجملة⁽²⁹⁾ أو الوحدة الإسنادية التي جاءت معترضة بين عناصرها ، فإن وجودها يثير الانتباه و يلفت التفكير⁽³⁰⁾ . ثم إن الاعتراض يعد ضربا من الخروج عن مبدأ الخطية و تسلسل الجمل⁽³¹⁾ . حيث إن النظام اللغوي في العربية يرى أن الجملة الاعتراضية ليست مجرد جملة مقحمة بين الجملتين أو بين ركني جملة ، أو بين وحدتين إسناديتين من مثل الوحدة الإسنادية التي للشرط ، و الوحدة الإسنادية التي لجواب الشرط ، أو الوحدة الإسنادية التي للقسم والوحدة الإسنادية التي لجواب القسم ؛ إذ إن هذه الجملة الاعتراضية ليست معزولة في معناها عن معنى التركيب الإسنادي المعترضة بين أجزائه ، ذلك أنه لا يكون له المعنى نفسه إذا سقطت هذه الجملة الاعتراضية⁽³²⁾ . وإن وجودها يثير الانتباه و يضيف إلى التركيب الإسنادي الموظفة فيه معنى جديدا ما كان ليكون لولا وجودها . ومن ثم فلا يمكن إغفال مثل هذه الجملة الاعتراضية عند تحليل هذه التراكيب الإسنادية⁽³³⁾ .

3. 1. صور الجملة الاعتراضية الماضية :

3. 1. 1. أ. صور الجملة الاعتراضية الماضية البسيطة :

الصورة الأولى⁽³⁴⁾ :

و فيها سنرى أن هذه الجملة الاعتراضية الماضية قد جاءت فاصلة بين الوحدتين الإسناديتين : التي للشرط و التي لجواب الشرط . و نقف عليها في قوله تعالى : ﴿ فإذ لم تفعلوا - و تاب الله عليكم - فأقيموا الصلاة ﴾ (المجادلة / 13) . فالجملة الشرطية في هذه الآية مؤلفة من الوحدة الإسنادية المضارعية المنفية التي للشرط " إذ⁽³⁵⁾ لم تفعلوا " ، و الوحدة الإسنادية الطلبية التي لجواب الشرط " فأقيموا الصلاة " قد جاءت الجملة الماضية " و تاب الله عليكم " اعتراضية فاصلة بين الوحدتين الإسناديتين السالفتي الذكر . و قد رأى

سيبويه أن الوحدة الإسنادية التي للشرط لا تكون بـ "إذ" حتى يضم إليها "ما" نحو: ﴿ واذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ﴾ (الكهف/ 16) .

الصورة الثانية :

و فيها تكون هذه الجملة الاعتراضية الماضية البسيطة فاصلة بين المفعول به الأول والمفعول به الثاني. في نحو قوله تعالى: ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه - حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين - أن اشكر لي ولوالديك ﴾ (لقمان / 14). حيث إن الجملة الماضية البسيطة " حملته أمه وهنا على وهن" المخصصة بالوحدة الإسنادية الاسمية " وفصاله في عامين " المؤدية وظيفة الحال⁽³⁶⁾ هي جملة اعتراضية⁽³⁷⁾ بين العنصرين المتلازمين: المفعول به الأول للفعل "وصى" "الإنسان" ، والمفعول به الثاني له " أن أشكر لي ولوالديك " الوارد وحدة إسنادية طلبية بنيتها العميقة " الشكر لي ولوالديك "⁽³⁸⁾ . وقد جاءت هذه الجملة الاعتراضية للتنبيه على حال الإنسان.

الصورة الثالثة :

وفيهما سنجد أن هذه الجملة الماضية الاعتراضية فاصلة بين الجملتين الشرطيتين الواردة وحدتهما الإسناديتان اللتان لجواب الشرط اسميتين إحداهما محولة. ونقف على نموذج لها في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم. ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوقوا وبال أمره - عفا الله عما سلف - ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ (المائدة/ 94، 95). فالجملة الماضية البسيطة " عفا الله عما سلف " اعتراضية بين الجملة الشرطية " ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم " ، وبين الجملة الشرطية " ومن عاد فينتقم الله منه " التي يلاحظ أن وحدتها الإسنادية التي لجواب الشرط " فينتقم الله منه " محولة بتقديم خبرها " ينتقم " الوارد وحدة إسنادية مضارعية على المبتدأ " الله " لأن بنيتها العميقة " فالله ينتقم منه " أما ابن جني فقال فيها: " لابد من تقدير مبتدأ محذوف هناك ، وذلك أن الفاء إنما يؤتى بها في جواب الجزاء بدلا من الفعل الذي يجاب به ، أي فهو ينتقم منه "⁽³⁹⁾ .

و لما كانت هذه الجملة استثنائية دالة على الدعاء لم تحتج إلى حرف الاعتراض .

الصورة الرابعة :

و فيها تكون مثل هذه الجملة الماضية البسيطة الاعتراضية المفيدة الدعاء فاصلة بين الفاعل و مقول القول. و تقف على مثال لها في قوله تعالى: ﴿ قال رجلان من الذين يخافون - أنعم الله عليهما - ادخلوا عليهم الباب ﴾ (المائدة / 23). حيث إن الجملة

الماضوية البسيطة " أنعم الله عليهما " وردت فاصلة بين المتلازمين المتطالبين

الفاعل " رجلان " الموصوف بشبه الوحدة الإسنادية (الجار و المجرور)

" من الذين يخافون " (40)، و مقول القول " ادخلوا عليهم الباب " الوارد وحدة إسنادية طلبية (41).

2- صور الجملة الاعتراضية المضارعية :

2.3- أ. صور الجملة الاعتراضية المضارعية البسيطة المنفية:

صورتها :

وفيها سنجد أن هذه الجملة المضارعية المنفية البسيطة فاصلة بين الوحدتين الإسناديتين اللتين للشرط و لجواب الشرط. و تقف على ذلك في الآية الكريمة: ﴿ فإن لم تفعلوا - و لن تفعلوا - فأتقوا النار التي وقودها الناس و الحجارة أعدت للكافرين ﴾ (البقرة / 24). فالجملة المضارعية المنفية " ولن تفعلوا " (42) المصدرة بعلامة النفي " لن " (43) هي اعتراضية . ولما كانت مسبوقة بحرف النفي " لن " ، فهي تدل على نفي حدوث حدث فعلهم في المستقبل. قال سيبويه " لن نفي لقوله سيفعل " (44) و قال أيضا : " إذا قال سوف يفعل فإن نفيه " لن يفعل " (45) فهي لتوكيد نفي المستقبل يقول صاحب الكشاف : " فإن قلت ما حقيقة " لن " في باب النفي ؟ قلت " لا " و " لن " في نفي المستقبل إلا أن في " لن " توكيدا و تشديدا " (46). و قد جاءت هذه الجملة الاعتراضية فاصلة بين الوحدتين الإسناديتين المترابطتين " الواحدة الإسنادية المضارعية التي للشرط " فإن لم يفعلوا " ، والوحدة الإسنادية الفعلية الطلبية المطولة (47) التي لجواب شرط " فأتقوا النار " المقترنة بالقاء الرابطة. و إذا كانت هذه الجملة الاعتراضية مستقلة نحويا غير محكومة بما قبلها ، و يمكن الاستغناء عنها بدون إمساس بالبنية الأساسية للجملة الشرطية بوحدتها الإسناديتين ، فإن وجودها له وظيفة بيانية تمثلت في التوكيد الذي ما كان للجملة الشرطية

المذكورة أن تؤديه في غيابها . و يتمتع عد هذه الجملة وحدة إسنادية مؤدية وظيفة الحال لأنها متصلة بدليل الاستقبال المتمثل في حرف النفي " لن " ، وهو ممتنع في الوحدة الإسنادية الحالية التي يراد بها الحاضر⁽⁴⁸⁾ وقد لوحظ أن حرف الاعتراض فيها هو الواو.

3- 2. ب - صور الجملة الاعتراضية المضارعية البسيطة المؤكدة :

صورتها:

وفيها سنجد أن هذه الجملة المضارعية مؤكدة بالقصر وفاصلة بين الوحدتين الإسناديتين المتلازمين. ونقف عليها في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - و من يغفر الذنوب إلا الله - و لم يصروا على ما فعلوا و هم يعلمون ﴾ (آل عمران / 135). فالتركيب الإسنادي البسيط " ومن يغفر الذنوب إلا الله " هو جملة اعتراضية مضارعية مؤكدة بالقصر. بنيتها العميقة " لا يغفر الذنوب إلا الله ". وردت بين المتلازمين " فاستغفروا لذنوبهم " الوحدة الإسنادية الماضية⁽⁴⁹⁾ المعطوفة على الوحدة الإسنادية الماضية التي لجواب الشرط " ذكروا الله " و بين الوحدة الإسنادية المضارعية المنفية " و لم يصروا على ما فعلوا " المعطوفة على الوحدتين الإسناديتين السالفتي الذكر.

و قد جاءت هذه الجملة الاعتراضية لتوكيد الكلام و توضيحه⁽⁵⁰⁾. و البنية العميقة للتركيب الإسنادي في هذه الآية هي " و الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبكم و لم يصروا على ما فعلوا و هم يعلمون " حيث يلاحظ أن هذه الجملة الاعتراضية لئن لم تكن جزءا من التركيب في الآية ، إلا أن لها وظيفة بيانية ما كانت لتكون لو استغني عنها على الرغم من استقلالها. و قد رأى صاحب كتاب " إعراب القرآن " أنها جملة اسمية مركبة مكونة من اسم الاستفهام " من " المؤدي وظيفة المبتدأ ، والخبر " يغفر الذنوب " الوارد وحدة إسنادية مضارعية⁽⁵¹⁾ و أداة الإستثناء " إلا " و لفظ الجلالة المؤدي وظيفة البدل من الفاعل المضمّر " هو "⁽⁵²⁾. و لما كانت هذه الجملة " تبين أن قصر مغفرة الذنوب و عدم المؤاخذه عليها في الآخرة عليه سبحانه و تعالى لأن هذه الصفة لا تكون إلا له هو سبحانه "⁽⁵³⁾ ، و لما كان القصر في الفاعل يكون من قصر الصفة على

الموصوف⁽⁵⁴⁾. فإننا نطمئن إلى أن هذه الجملة الاعتراضية هي جملة مضارعية محولة عن طريق القصر بالزيادة⁽⁵⁵⁾، و بتقديم المفعول به " الذنوب " على الفاعل المحصور لفظ الجلالة " الله " ، ذلك أن ما يظهر في بنيته السطحية أنه اسم استفهام " من " هو في بنيته العميقة حرف استفهام " هل " لتكون البنية الباطنية لهذه الجملة المضارعية " و هل يغفر الذنوب إلا الله " ، وغرضها النفي " أي ما يغفر الذنوب إلا الله "⁽⁵⁶⁾ و بذلك تصبح تلك الجملة الاعتراضية مؤدية وظيفية بيانية ما كانت لتحقيق لو تم الاستغناء عنها و جاء القول : " ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم و لم يصروا على ما فعلوا " .

3. 2. جـ. صور الجملة الاعتراضية المضارعية البسيطة الاستفهامية:

الصورة الأولى:

و فيها تكون هذه الجملة المضارعية الاعتراضية محولة بالتقديم ، و فاصلة بين الموصوف و صفته. و تقف على ذلك في قوله تعالى : ﴿ و من دونهما جنتان - فبأي آلاء ربكما تكذبان - مدهامتان ﴾ (الرحمن / 62 ، 64). حيث إن الجملة المضارعية " فبأي آلاء ربكما تكذبان " الاعتراضية يلاحظ فيها أن الاستفهام " أي " عندما دخل عليه حرف الجر " الباء " قدم وجوبا على ما يتعلق به ، لأن المجرور إذا كان اسما له الصدارة يجب تقديمه على ما يتعلق به⁽⁵⁷⁾. و البنية العميقة لهذه الجملة الاعتراضية هي " فتكذبان بأي آلاء ربكما " . و قد جاءت فاصلة بين " المبتدأ المتأخر على نية التقديم الموصوف " جنتان " ، و الصفة " مدهامتان "⁽⁵⁸⁾ لتحقيق الغرض المعنوي المتمثل في التنبيه. قال أبو السعود عن هذه الاعتراض " وسط بينهما الاعتراض لما ذكر من التنبيه على أن تكذيب كل من الموصوفو الصفة تحقيق بالإنكار و التوبيخ "⁽⁵⁹⁾ ، أي خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة. و فيه إشعار بأن الغالب على هاتين الجنتين النبات و الرياحين المنبسطة على وجه الأرض (...) و الأشجار و الفواكه "⁽⁶⁰⁾ .

الصورة الثانية :

و فيها ستكون مثل هذه الجملة الاعتراضية المضارعية الاستفهامية فاصلة بين الحال و صاحبها. و تقف على عينة لذلك في قوله تعالى : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي و الأقدام - فبأي آلاء ربكما تكذبان - هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ﴾ (

الرحمن/ 41، 43). فالجملة الفعلية " فبأي آلاء ربكما تكذبان اعتراضية وردت معترضة بين صاحب الحال " أصحاب النواصي والأقدام " لأن الألف واللام عوض عن المضاف إليه " بنواصيهم وأقدامهم"، وبين الحال " هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون " (61) الوارد وحدة إسنادية مضارعية مركبة محولة بحذف مسندها (الفعل) المبني لما لم يسم فاعله. و بنيتها العميقة " يقال لهم هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ". و البنية العميقة للآية الكريمة هي " يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بنواصيهمم وأقدامهم - فبأي آلاء ربكما تكذبان - مقولا لهم هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ". وعلى هذا تكون هذه الآية الكريمة شاهدا على فصل النظم الكريم بين صاحب الحال و الحال بالجملة الاعتراضية (62)، ولا شك أن ثمة فرقا في الدلالة لو تم الاستغناء عن هذه الجملة الاعتراضية " .

الصورة الثالثة :

و فيها سنجد أن مثل هذه الجملة الاعتراضية المضارعية الاستفهامية فاصلة بين البديل والمبدل منه في نحو قوله تعالى : ﴿ فيهن خيرات حسان - فبأي آلاء ربكما تكذبان - حور مقصورات في الخيام ﴾ (الرحمن/72،70). فالجملة المضارعية الاعتراضية (63) " فبأي آلاء ربكما تكذبان" فصلت بين البديل " حور " والمبدل منه " خيرات " (64).

3-2- د - صور الجملة الاعتراضية المضارعية البسيطة المثبتة:

الصورة الأولى:

و فيها تكون الجملة المضارعية الاعتراضية محولة بالحذف و فاصلة بين المتلازمين (المبتدأ و خبره). و نقف عليها في قوله تعالى : ﴿ وامراته - حمالة الحطب - في جيدها قبل من مسند ﴾ (المسد/4،5). فالجملة المضارعية " حمالة الحطب " محولة بحذف ركني الإسناد فيها (المسند و المسند إليه) أي الفعل المضارع و فاعله الذي لا ينفك عنه " بنيتها العميقة " أعنى حمالة الحطب ". وهي تؤدي وظيفة دلالية تتمثل في الذم المستشف من سياق الآية (65). و قد فصلت بين المتلازمين " المبتدأ " امرأته

و الخبر " في جيدها حبل " الوارد وحدة إسنادية اسمية ⁽⁶⁶⁾ محولة بتقديم خبرها " في جيدها " على مبتدئها " حبل " النكرة الموصوفة بشبه الوحدة الإسنادية " من مسد " التي بنيتها العميقة " مسدي " أو " موجود من مسد " .

الصورة الثانية :

و فيها يكون هذه الجملة المضارعية الاعتراضية إنشائية محولة بالاستبدال ، و فاصلة بين المستثنى و المستثنى منه في نحو قوله تعالى : ﴿ و لقد علمت الجنة إنهم لمحضرون - سبحان الله عما يصفون - إلا عباد الله المخلصين ﴾ (الصافات / 160، 159). حيث إن جملة التسييح " سبحان الله عما يصفون " هي جملة اعتراضية مضارعية محولة بمحذف المسند و المسند إليه فيها (الفعل و الفاعل) . و بنيتها العميقة " نسبح سبحان " ⁽⁶⁷⁾ الله عما يصفون " . و قد فصلت بين المستثنى منه ⁽⁶⁸⁾ ممثلاً في المؤمنين المؤدي وظيفة الخبر ، و المستثنى " عباد الله المخلصين " ⁽⁶⁹⁾ وهي تنزيهية لله عما يصفون و مفيدة الدعاء .

الصورة الثالثة :

و فيها تكون مثل هذه الجملة المضارعية الاعتراضية فاصلة بين الجملتين المتعاطفتين. و نقف على مثال لها في قوله تعالى : ﴿ و يجعلون لله البنات - سبحانه - و لهم ما يشتهون ﴾ (النحل / 57). حيث إن الجملة المضارعية " سبحانه " اعتراضية بنيتها العميقة " نسبحه سبحانه " جاءت معترضة بين الجملة المضارعة البسيطة " يجعلون لله البنات " ، و الجملة الاسمية المركبة " و لهم ما يشتهون " المعطوفة عليها المحولة بتقديم خبرها الجار و المجرور " لهم " ، و لمجيء مبتدئها " ما يشتهون " أي " ما يشتهونه " ⁽⁷⁰⁾ وحدة إسنادية مضارعية بسيطة بنيتها العميقة " المتشبهه " ⁽⁷¹⁾ و لا يصح أن تكون هذه الجملة حالية بنيتها العميقة " في حال كونهم يسبحونه " لفساد المعنى لأنها إنشائية تنزيهية ⁽⁷²⁾ ثم إن الحال لا يكون جملة يتمتع بالاستقلال ، و إنما يرد وحدة إسنادية .

3- 4. صور الجملة الاعتراضية الشرطية:

الصورة الأولى:

و فيها سنجد أن هذه الجملة الاعتراضية شرطية فاصلة بين الوجدتين الإسناديتين المؤلفتين من أسلوب القسم في نحو قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو

تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم ﴿ (الواقعة / 75-77). حيث إن الجملة المضارعية الشرطية " وإنه لقسم لو تعلمون عظيم" المحولة بتقديم الوحدة الإسنادية الاسمية التي لجواب الشرط " وإنه لقسم عظيم" على الوحدة الإسنادية المضارعية التي للشرط" لو تعلمون، " إذ إن البنية الأصلية لهذه الجملة الشرطية هي " ولو تعلمون إنه لقسم عظيم". وما كان لها أن تؤدي المعنى الذي أدته لو جاءت على هذه البنية بدون تأخر النعت، فهي تعظيم لأمر القسم كأنه قال وإنه لقسم لو علمتم حاله أو تفخيم أمره لعرفتم فخامة عظمتة وفخامة شأنه⁽⁷³⁾. وقد جاءت هذه الجملة الاعتراضية فاصلة بين الوحدة الإسنادية المضارعية التي للقسم " فلا أقسم بمواقع النجوم" ، والوحدة الإسنادية الاسمية المؤكدة التي لجواب القسم⁽⁷⁴⁾ " إنه لقرآن كريم". وقد رأى ابن هشام أن فيها اعتراضين: اعتراضا بين الموصوف وهو " أقسم" وصفته "عظيم" بالوحدة الإسنادية " لو تعلمون" ، واعتراضا بين " أقسم بمواقع النجوم" جوابه وهو " إنه لقرآن كريم" بالكلام الذي بينهما⁽⁷⁵⁾. ولا تعد الوحدة الإسنادية المضارعية " لو تعلمون" اعتراضية بين خبر " إن" " أقسم" وصفة " عظيم".

كما ذهب إلى ذلك بعضهم⁽⁷⁶⁾ لأن الوجدتين الاسناديتين اللتين للشرط تشكلان في هذه الجملة الاعتراضية وحدة متماسكة لا تنهض بها إحداها دون الأخرى.

الصورة الثانية:

وتستوقفنا عندها الآية الكريمة: ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات - حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن - ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ (النساء/ 18). فالجملة الشرطية " حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن"⁽⁷⁷⁾ هي جملة اعتراضية حرف الاعتراض فيها هو " حتى"⁽⁷⁸⁾، جاءت فاصلة بين الجملتين الاسميتين المعطوفتين " ليست التوبة للذين يعملون السيئات"، و" ولا الذين يموتون وهم كفار". وقد أدت هذه الجملة المعارضة وظيفة التنبيه.

4- صور الجملة الاعتراضية الاسمية:

أولا - صور الجملة الاعتراضية الاسمية غير المنسوخة :

4- 1- صور الجملة الاعتراضية الاسمية البسيطة المثبتة:

الصورة الأولى :

و فيها تكون هذه الجملة الاسمية البسيطة معترضة بين جملتين معطوفتين على بعضهما البعض. و نقف على مثال لها في قوله تعالى: ﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم - و الفتنة أشد من القتل - ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام ﴾ (البقرة / 191). فالجملة الاسمية البسيطة " و الفتنة أشد من القتل " اعتراضية، حرف الاعتراض فيه هو "الواو"، جاءت فاصلة بين الجملتين الفعليتين المتعاطفتين " أخرجوهم من حيث أخرجوكم"، و"لا تقتلوهم عند المسجد الحرام". و هي ليست مجرد جملة مقحمة بين تلك الجملتين المعطوفتين بعضهما على بعض، فهي تضيف في هذه الآية معنى جديدا لا يمكن أن يغفل عنه عند تحليل التراكيب الإسنادية في مثل هذه الآية⁽⁷⁹⁾. فهي تفيد التنبيه⁽⁸⁰⁾.

الصورة الثانية⁽⁸¹⁾ :

و فيها سنجد أن مثل هذه الجملة الاسمية البسيطة فاصلة بين وحدتين الإسناديتين المؤلفة منهما الجملة الشرطية. و نقف على ذلك في قوله تعالى: ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونهم الذين هم به مشركون و إذا بدلنا آية مكان آية - و الله أعلم بما ينزل - قالوا إنما أنت مفتر ﴾ (النحل / 101). فالجملة الشرطية⁽⁸²⁾ " و إذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر" يسجل مجيء الجملة الاسمية الاعتراضية البسيطة فيها " و الله أعلم⁽⁸³⁾ بما ينزل " فاصلة بين وحدتها الإسنادية الماضية التي للشرط " إذا بدلنا آية مكان آية"، و الوحدة الإسنادية الماضية المركبة⁽⁸⁴⁾ التي لجواب الربط " قالوا إنما أنت مفتر". و لا جرم أن هذه الجملة الاسمية الاعتراضية قد أدت وظيفة بيانية تمثلت في التذكير و لفت الانتباه إلى أن الله أعلم بما نزل، ما كان لهذه الجملة الشرطية أن تؤديها لو استغنى عنها.

الصورة الثالثة :

و فيها تكون هذه الجملة الاسمية معترضة بين وحدتين إسنادتين معطوفتين على بعضهما البعض. و نقف عليها في قوله تعالى: ﴿ قالت رب إني وضعتها أنثى - و الله أعلم بما وضعت و ليس الذكر كالأنثى - و إني سميتها مريم ﴾ (آل عمران / 36).

فالجملـة الاسمية " والله أعلم بما وضعت" المعطوفة عليها الجملـة الاسمية المنسوخة " وليس الذكر كالأنثى " هي جملة اعتراضية وردت بين الوحدة الإسنادية الاسمية المركبة (85) " إني وضعتها أنثى" ، و الوحدة الإسنادية الاسمية المركبة (86) المعطوفة عليها " إني سميتها مريم". وحرف الاعتراض هو " الواو" (87). وقد جاءت الجملة الاعتراضية الأولى لتفيد التنبيه ، و الثانية لتفيد التحسر. و معنى هذا الأمر " وليس الذكر الذي طلبته كالأنثى التي وهبت لها" (88).

الصورة الرابعة :

و فيها سنجد أن هذه الجملة الاعتراضية قد جاءت فاصلة بين المؤكد و التأكيد (89).

و نقف على مثال لها في قوله تعالى : ﴿ كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمَ نوح وَعَاد وَفِرْعَوْنَ ذُو الْأَوْتَادِ وَمُؤْمِدٍ وَ قَوْمِ لوط وَأَصْحَابِ لَيْكَةِ - أولئك الأحزاب - إن كل إلّا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ (ص/13،14). فالجملة الاسمية البسيطة " أولئك الأحزاب " محولة بتعريف خبرها " الأحزاب" الوارد معرّفا بـ "أل" التعريف لغرض بلاغي هوالتخصيص و القصر (90). وهي جملة اعتراضية بين الجملة الماضية " كذبت قلوبهم قوم نوع و عاد و فرعون ذو الأوتاد، و قوم لوط و أصحاب لَيْكَةِ" ، والجملة الاسمية المركبة (91) المؤكدة بالقصر " إن كل إلّا كذب الرسل" (92) المحذوف العائد منها. و بنيت العمية " إن كل منهم" (93) أي إن كل واحد منهم. و هي تحمل دلالة التنبيه على أنهم أحزاب .

الصورة الخامسة :

و فيها تكون هذه الجملة الاسمية البسيطة معترضة بين المبتدأ و الخبر الواردين وحدتين إسناديتين. و نقف على مثال لذلك في قوله تعال : ﴿ و الذين كسبوا السيئات - جزاء سيئة بمثلها و ترهقهم ذلة - ما لهم من الله من عاصم ﴾ (يونس / 26،27). فالجملة الاسمية البسيطة " جزاء سيئة بمثلها المؤلفة من المبتدأ " جزاء سيئة " و خبره " بمثلها" المجرور بالباء الزائدة (94) يلاحظ أنها وردت فاصلة بين المبتدأ " الذين كسبوا السيئات " الوارد حدة إسنادية ماضوية بسيطة مكونة من الوصول الاسمي " الذين " الذي يعد رابطا من قبيل " أن، و أن" (95). بنيتها العميقة " الكاسبون السيئات " ، و خبره الوارد وحدة إسنادية اسمية بسيطة " ما لهم من الله من عاصم" (96) المحولة بتقديم خبرها المنفي " ما لهم" على

المبتدأ "عاصم" المجرور لفظا المرفوع محلا بحرف الجر الزائدة "من" المفيدة تأكيد النفي. وهذه الجملة الاعتراضية جاءت لتبين قدر جزاء المتحدث عنهم في الآية. و قد رأى ابن هشام أن الجملة الفعلية " و ترهقهم ذلة " معطوفة على الوحدة الاسنادية الماضية " كسبوا السيئات " و من ثم فهي من الصلة ⁽⁹⁷⁾ لتكون الجملة المعترضة اعتراضا بين جزئي الصلة .

4-2. صور الجملة الاعتراضية الاسمية المركبة:

4-2. أ. صور الجملة الاعتراضية الاسمية المركبة الاستفهامية :

صورتها ⁽⁹⁸⁾:

و فيها سنجد أن الجملة الاستفهامية المركبة فاصلة بين الوجدتين الإسناديتين المتلازمتين في جملة أسلوب القسم. و نقف على مثال لذلك في قوله تعالى : ﴿ و السماء و الطارق - و ما أدراك ما الطارق النجم الثاقب - إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ (الطارق 1-4/). إذا إن الجملة الاسمية الاستفهامية المركبة " وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب " المؤلفة من اسم الاستفهام " ما " المؤدي وظيفة المبتدأ و الخبر

" أدراك ما الطارق " الوارد وحدة إسنادية ماضوية مركبة ⁽⁹⁹⁾ ، و الجملة الاسمية " النجم الثاقب " المحولة بحذف مبتدئها ⁽¹⁰⁰⁾ لورودها جوابا لاستفهام. و بنيتها العميقة " الطارق النجم ⁽¹⁰¹⁾ الثاقب " ، أي هو النجم الثاقب .وجاءت هذه الجملة الاعتراضية فاصلة بين الوحدة الإسنادية المضارعية التي للقسم " و السماء

و الطارق " ⁽¹⁰²⁾ ، و الوحدة الإسنادية الاسمية المركبة المؤكدة بالقصر التي لجواب القسم " إن كل نفس لما عليها من حافظ " ⁽¹⁰³⁾ لغرض التنبية على عظمة المقسم به .

ثانيا . صور الجملة الاعتراضية الاسمية المنسوخة:

4-3. صور الجملة الاعتراضية الاسمية البسيطة :

صورتها :

وفيها تكون الجملة الاسمية المنسوخة إنشائية فاصلة بين الجملة الاسمية الابتدائية والوحدة الإسنادية المضارعية التعليلية. و نقف على مثال لها في قوله تعالى : ﴿ ألمص

كتاب أنزل إليك - فلا يكن في صدرك حرج منه - لتنذر به ﴿الأعراف / 1٠2﴾. إذ إن الجملة الاسمية المنسوخة "فلا يكن في صدرك حرج منه" المحولة بتقديم خبر "يكن" فيها وهو "في صدرك" على اسمها "حرج" هي جملة اعتراضية فاصلة بين الجملة الاسمية الابتدائية "كتاب أنزل إليك" المحولة بجذب مبتدأ منها⁽¹⁰⁴⁾، وبين الوحدة الإسنادية المضارعية "لتنذر به"⁽¹⁰⁵⁾ المؤدية وظيفة التعليل . وينيتها العميقة "لإنذارك به".

4-4. صور الجملة الاعتراضية الاسمية المركبة:

صورتها:

وفيها سنجد أن هذه الجملة الاعتراضية الاسمية المنسوخة فاصلة بين الفاعل والمفعول به. وتقف عليها في قوله تعالى: ﴿ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن - كأن لم تكن بينكم وبينهم مودة - يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما﴾ (النساء/73). فالجملة الاسمية المنسوخة المركبة "كأن لم تكن بينكم وبينهم مودة" المؤلفة من الناسخ الحرفي "كأن" المخففة واسمها ضمير الشأن المحذوف "كأنه"⁽¹⁰⁶⁾، و خبرها "لم تكن بينكم وبينهم مودة" الوارد وحدة إسنادية اسمية منسوخة منفية محولة بتقديم خبر "كان" بينكم وبينهم على اسمها "مودة" يلاحظ أن هذه الجملة الاسمية المركبة هي اعتراضية فاصلة في الوحدة الإسنادية التي لجواب الشرط "ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينهم مودة يا ليتني كنت معهم" بين الفاعل المضمر الذي لا ينفك عن الفعل المضارع "ليقولن"، والمفعول به "يا ليتني كنت معهم" الوارد وحدة إسنادية اسمية مؤدية وظيفة مقول القول⁽¹⁰⁷⁾.

خاتمة :

الجملة الاعتراضية التي بنا أن وجودها يضيف إلى التركيب الإسنادي الوظيفة فيه معنى جديدا ما كان ليكون لولا وجودها بلغت شواهدا في القرآن الكريم: سبعة وعشرين (27) . كان حظ الفعلية منها خمسة عشر شاهدا (15). فالماضوية البسيطة الواردة فاصلة بين الوجدتين الإسناديتين التي للشرط والتي لجواب الشرط ورد لها شاهدان. والواردة معترضة بين المفعولين الأول والثاني ورد لها شاهد واحد. والواردة بين الجملة الشرطيتين ورد لها شاهد واحد. والفاصلة بين الفاعل ومقول القول ورد لها شاهد واحد.

والمضارعية البسيطة المثبتة ورد لها ثلاثة شواهد، شاهدان أحدهما جاءت فيه محولة بالحذف، فاصلة بين المتلازمين: المبتدأ وخبره. وشاهدان جاءت فيهما محولة بالاستبدال، وردت في أحدهما فاصلة بين المستثنى والمستثنى منه، وفي الآخر معترضة بين جملتين متعاطفتين.

والمضارعية البسيطة المنفية التي بحرف النفي "لن" لم يرد لها إلا شاهد واحد، جاءت فيه فاصلة بين الوحدتين الإسناديتين اللتين للشرط ولجواب الشرط. أما المضارعية البسيطة المؤكدة بالقصر فورد لها شاهد واحد جاءت فيه فاصلة بين الوحدتين الإسناديتين المتلازمتين المتعاطفتين الوحدة الإسنادية التي لجواب الشرط والوحدة الإسنادية المعطوفة عليها.

والمضارعية الاستفهامية ورد لها ثلاثة شواهد، جاءت في أحدها فاصلة بين الموصوف وصفته، وفي الآخر فاصلة بين الحال وصاحبها، وفي الشاهد الثالث فاصلة بين البذل والمبدل منه.

والجملة الشرطية الاعتراضية ورد لها شاهدان جاءت في أحدهما فاصلة بين الوحدتين الإسناديتين المتماسكتين المؤلفتين أسلوب القسم.

أما الجملة الاعتراضية الاسمية فبلغت شواهدا اثني عشر شاهدا (12) توزعت كالآتي: الاسمية البسيطة المحضة المثبتة ورد لها ثلاثة شواهد جاءت في أحدها فاصلة بين جملتين معطوفتين على بعضهما البعض، وجاءت في شاهدين منها فاصلة بين الوحدتين الإسناديتين المؤلفة منهما الجملة الشرطية. وجاءت في شاهد فاصلة بين وحدتين إسناديتين متعاطفتين. وجاءت في شاهد آخر فاصلة بين المؤكد والتأكيد. وفي شاهد آخر فاصلة بين المبتدأ وخبره الواردين وحدتين إسناديتين. أما الاسمية المركبة الاستفهامية فلم يرد لها إلا شاهد واحد جاءت فيه فاصلة بين الوحدتين الإسناديتين المتلازمتين في جملة أسلوب القسم. والاسمية المنسوخة البسيطة ورد لها شاهد واحد جاءت فيه معترضة بين الجملة الابتدائية والوحدة الإسنادية المضارعية التعليلية. والاسمية المنسوخة المركبة ورد لها شاهد واحد جاءت فيه فاصلة بين الفاعل والمفعول به.

الهوامش :

- (1) ينظر أبو حيان : ارتشاف الضرب ، 2 / 373 .
- (2) أبو حيان : المرجع نفسه ، 2 / 374 .
- (3) ينظر سيبويه : الكتاب ، 2 / 14 .
- (4) ينظر سيبويه : المرجع نفسه 2 / 202 ، و الرد : المقتضب ، 4 / 241 ، و الإسترايازي : شرح الكافية ، 1 / 123 .
- (5) ابن جني : الخصائص ، 2 / 392 ، و ابن يعيش : شرح المفصل 2 / 115 ، و الأشموني : شرح الأشموني : 2 / 137 ، 139 .
- (6) ابن جني : المرجع نفسه ، 1 / 237 .
- (7) ينظر مأمون عبد الحليم محمد : الفصل في الجملة العربية ، ص 500
- (8) يقصد بـ "يتعلق" يرتبط .
- (9) أو الوحدة الإسنادية .
- (10) د- محمد حماسة عبد اللطيف : بناء الجملة العربية ، ص 83 .
- (11) د- نهاد الموسى : دور البنية العرفية لوصف الظاهرة و تقعيدها ، دار النشر عمان ، ع ط 1 ، 1994 ، ص 11 .
- (12) ينظر بومعزة رابح : تصنيف لصور الجملة و الوحدة الإسنادية الوظيفية و تيسير تعلمها في المرحلة الثانوية ، رسالة دكتوراة ، جامعة الجزائر ، 2004 - 2005 ، ص 396 .
- (13) ينظر بومعزة رابح : المرجع نفسه ، ص 449 .
- (14) ينظر بومعزة رابح : المرجع نفسه ، ص 411 .
- (15) ينظر مأمون عبد الحليم محمد : الفصل في الجملة العربية ، ص 432 .
- (16) ويقصد بالتركيب الإسنادي الفعلي في هذه الآية " لو تعلمون " .
- (17) ينظر د- عبد الله أحمد جاد الكريم : المعنى و النحو ، مكتبة الآداب القاهرة ، ط 1 / 2002 ، ص 89 .
- (18) ابن جني : الخصائص 1 / 335 .
- (19) د- فخر الدين قباوة : إعراب الجمل و أشباه الجمل ، ص 77 .
- (20) ينظر ابن الأثير المثل السائر تحقيق بدوي طبانة و أحمد الحوفي ، نهضة مصر القاهرة ، د ت ، 40 / 3 .
- (21) ينظر أبو حيان : البحر المحيط ، 5 / 408 .
- (22) ينظر د- فخر الدين قباوة : المرجع نفسه ، ص 77 .
- (23) ينظر سيبويه : الكتاب ، 1 / 176 ، و الفراء : معاني القرآن ، 1 / 358 و الاسترايازي : شرح الكافية ، 1 / 27 . و الزمخشري : الكشاف ، 3 / 56 .
- (24) ابن جني : المرجع نفسه ، 1 / 341 .
- (25) ينظر العقيد الركن أنطوان : الدحاح في علم العربية ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط 8 ، ص 15 .
- (26) ينظر د- محمد حماسة عبد اللطيف : بناء الجملة العربية ، ص 82 ، و ينظر مأمون عبد الحليم محمد : الفصل في الجملة العربية ، ص 136 .
- (27) ابن هشام : مغني اللبيب ، 2 / 49 .
- (28) مأمون عبد الحليم محمد : الفصل في الجملة العربية ، ص 182 .

- (29) ينظر أحمد خالد: تحديث النحو العربي موضة أم ضرورة، ص 104.
- (30) ينظر د. محمد حماسة عبد اللطيف : بناء الجملة العربية ، ص 82.
- (31) عبد الحميد مصطفى السيد : بنية الجملة العربية في ضوء المنهجين الوصفي والتحويلي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ، الكويت العدد ، 75 السنة 12، صيف 2001 ، ص 46.
- (32) ينظر د. محمد حماسة عبد اللطيف : المرجع نفسه ، ص 73.
- (33) ينظر عبد القاهر المهييري : نظرات في التراث اللغوي العربي، ص 41.
- (34) وقد وردت على هذه الصورة الآية 11 من سورة الأحقاف ولكن بالحرف "إن" مكان "إذ" .
- (35) ينظر الفراء: معاني القرآن، 2 / 136 .
- (36) ينظر بومعزة رابح : المرجع نفسه ، ص 292.
- (37) ينظر ابن هشام : مغني اللبيب ، 2 / 32 .
- (38) ينظر بومعزة رابح : المرجع نفسه ، ص 243.
- (39) ابن الجني: المحتسب، 2 / 357 .
- (40) أي من الخائفين و بنيتها العميقة " موجودين من الخائفين " .
- (41) ينظر بومعزة رابح : تصنيف لصور اجملّة و الوحدة الإسنادية الوظيفية و تيسير تعلمها في المرحلة الثانوية ، رسالة دكتوراة ، جامعة الجزائر ، 2004 - 2005 ، ص 242.
- (42) ينظر ابن هشام : مغني اللبيب ، 2 / 38 .
- (43) ينظر الفراء: معاني القرآن ، 1 / 358 و ابن جني : الخصائص، 2 / 404 و الزمخشري الكشف، 3 / 56 .
- (44) سيبويه : الكتاب، 4 / 220 .
- (45) سيبويه : المرجع نفسه، 3 / 117 .
- (46) الزمخشري : المرجع نفسه، 1 / 248 .
- (47) مطولة لأن المفعول به فيها قيد بالوحدة الإسنادية الاسمية " التي وقودها الناس و الحجارة " المؤدية وظيفة التعت.
- (48) ينظر د. فخر الدين قباوة : إعراب الجمل وأشباه الجمل، ص 73 .
- (49) هذه الوحدة الإسنادية لجواب الشرط.
- (50) ينظر السيوطي : همع الهوامع، 1 / 247 .
- (51) ينظر بومعزة رابح : المرجع نفسه، ص 134.
- (52) ينظر النحاس : إعراب القرآن ، 4 / 72 .
- (53) ينظر د. محمد محمد أبو موسى : دلالة التراكيب، ص 51.
- (54) ينظر د. محمد محمد أبو موسى : المرجع نفسه، ص 86.
- (55) فالتحويل آت من زيادة أداة الاستفهام " من " ، و أداة الحصر " إلا " . و البنية التوليدية لهذه الجملة هي " يغفر الله الذنوب " .
- (56) خالد الأزهرى : شرح العوامل المائة، ص 219 .
- (57) ينظر جمال عبد الناصر عيد عبد العظيم علي: الصدارة في الجملة العربية ، رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، 1998 ، ص 172.
- (58) ينظر تفسير أبي السعود ، 7 / 186 .
- (59) وقد جاء على هذه الصورة الموجبة للإنكار والتوبيخ الآيات: 48، 47، 64 من سورة الرحمن.

- (60) أبو السعود : تفسير أبي السعود، 186 / 7 .
- (61) ينظر أبو السعود، المرجع نفسه ، 8 / 183 و محي الدين درويش : إعراب القرآن ، 9 / 410 .
- (62) ينظر مأمون عبد الحليم محمد : الفصل في الجملة العربية ، ص 503 .
- (63) ينظر جمال عبد الناصر : الصدارة في الجملة العربية ، ص 172 .
- (64) ينظر محي الدين درويش : إعراب القرآن ، 9 / 420 وتفسير أبي السعود ، 7 / 187 والنحاس : إعراب القرآن ، 4 / 317 و ابن هشام : مغني اللبيب ، 2 / 398 .
- (65) ينظر د. سناء حميد البياتي : قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم ، ص 408 .
- (66) ينظر بومعزة رابع : المرجع نفسه ، ص 156 .
- (67) سيحان : مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره "نسخ" .
- (68) ينظر مكّي بن أبي طالب القيسي : مشكل إعراب القرآن ، 1 / 92 .
- (69) ينظر مكّي بن أبي طالب القيسي : المرجع نفسه ، 1 / 103 .
- (70) ينظر أبو السعود : تفسير أبي السعود ، 1 / 114 .
- (71) ينظر بومعزة رابع : المرجع نفسه ، ص 105 و ما بعدها .
- (72) ينظر فاضل السامرائي : الإعراب المنهجي ، 1 / 108 .
- (73) العلوي : الطراز ، 2 / 170 .
- (74) ينظر محمد صلاح الدين : النحو الوصفي من خلال القرآن الكريم ، مؤسسة علي جراح ، الصباح ، الكويت ، دت ، ص 192 .
- (75) ابن هشام : مغني اللبيب ، 2 / 28 .
- (76) ينظر عباس صادق : موسوعة القواعد والإعراب ، ص 325 .
- (77) ينظر بومعزة رابع : المرجع نفسه ، ص 506 .
- (78) ينظر د. فخر الدين قباوة : إعراب الجمل وأشباه الجمل ، ص 77 .
- (79) ينظر د. عبد القاهر المهبّري : نظرات في التراث اللغوي العربي ، ص 41 .
- (80) ينظر مأمون عبد الحليم محمد : الفصل في الجملة العربية ، ص 266 أو 366 .
- (81) وقد وردت على هذه الصورة الآيتان 23 من سورة آل عمران و 135 من سورة النساء .
- (82) عدت جملة شرطية لأنها وردت استثنائية مستقلة بنفسها مبنى ومعنى .
- (83) أعلم بمعنى عالم .
- (84) عدت وحدة إسنادية مركبة لأن مقول القول فيها " إنما أنت مفتر " ورد وحدة إسنادية اسمية مؤكدة بالقصر ينظر بومعزة رابع : تصنيف لصور الجملة و الوحدة الإسنادية الوظيفية و تيسير تعلمها في المرحلة الثانوية ، رسالة دكتوراة ، جامعة الجزائر ، 2004 . 2005 ، ص 253 .
- (85) عدت وحدة إسنادية لأنها مقول القول . وعدت مركبة لأن خبر "إن" فيها " وضعيتها أننى " ورد وحدة إسنادية ماضوية .
- (86) عدت وحدة إسنادية لأنها معطوفة على الوحدة الإسنادية السابقة . وعدت مركبة لأن خبرها ورد وحدة إسنادية ماضوية " سميتها مريم " .
- (87) ينظر د. فخر الدين قباوة : إعراب الجمل وأشباه الجمل ، ص 77 .
- (88) ينظر ابن هشام : مغني اللبيب ، 2 / 32 .
- (89) فالجملة الماضوية تمثل الخبر المؤكد ، والجملة الاسمية المركبة المؤكدة بالقصر مؤدية دور التأكيد .
- (90) لأن أصل الخبر أن يكون نكرة ، وإذا جاء معرفة فالأصل أن يفصل بينه وبين المبتدأ بضمير فصل فتكون " أولئك هم الأحزاب " .

- (91) عدت مركبة لأن خبر المبتدأ " كل " " كذب الرسل " ورد وحدة إسنادية ماضوية بنيتها العميقة " مكذب الرسل " .
- (92) ينظر محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير و التنوير ، 22 / 221 .
- (93) ينظر الألوسي : روح العاني ، 23 / 171 ، وينظر أبو السعود : تفسير أبي السعود ، 7 / 217 .
- (94) ينظر ابن هشام : مغني اللبيب ، 2 / 30 .
- (95) ينظر عبد الحميد مصطفى السيد : بنية الجملة العربية في ضوء المنهجين الوصفي و التحليلي ، ص 46 .
- (96) ينظر عباس صادق : موسوعة القواعد و الإعراب ، ص 324 .
- (97) ينظر عباس صادق : المرجع نفسه ، ص 325 .
- (98) هذه هي الصورة الوحيدة للجملة الاعتراضية الاسمية المركبة التي عثرنا عليها في القرآن الكريم .
- (99) عدت مركبة لأن المفعول به فيها " ما الطارق " ورد وحدة إسنادية اسمية استفهامية .
- (100) وقد اطرذ حذف المبتدأ في أسلوب " و ما أدراك " في القرآن الكريم في 12 آية و لم يذكر إلا في آية واحدة في سورة القدر .
- (101) " النجم " خبر المبتدأ المحذوف ، و الثاقب نعت له .
- (102) ينظر بومعزة رابع : المرجع نفسه ، ص 425 .
- (103) ينظر بومعزة رابع : المرجع نفسه ، ص 427 .
- (104) ينظر بومعزة رابع : المرجع نفسه ، ص 404 .
- (105) وهذه الوحدة الإسنادية محولة بمحذوف المفعول به فيها .
- (106) ينظر سيبويه : الكتاب ، 1 / 281 و ينظر الاسترأبادي : شرح الكافية ، 2 / 339 .
- (107) ينظر الزمخشري : الكشاف ، 1 / 280 .

دور حل المشكلات في تأهيل الإداء القرائي

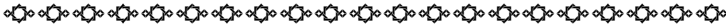
لدى ضعاف القراءة

د. الطاهر سعد الله

أستاذ محاضر بقسم علم النفس وعلوم التربية
والأرطوفونيا - جامعة الوادي، الجزائر

د. إسماعيل عيسى

أستاذ محاضر بقسم علم النفس وعلوم التربية
والأرطوفونيا - جامعة الوادي، الجزائر



ملخص

يتناول هذا الموضوع دور حل المشكلات، كوضعية واقعية للتعليم، في تعلم القراءة لدى الأطفال ذوي صعوبات تعلم القراءة، حيث تبين من خلال دراسة استكشافية حول العلاقة القائمة بين السيورورات المعرفية التي تتحكم في استراتيجيات القراءة من حيث التعرف والفهم، والوعي بها من طرف الفرد المتعلم، أن التعليم المباشر لبعض استراتيجيات القراءة يجعل ضعاف القراءة أكثر قدرة على التعرف والفهم القرائي لاكتسابهم مرونة أكثر على معالجة المعلومات الخاصة باللغة المكتوبة (النص).

Résumé:

Nous traitons le rôle de "solution de problèmes" comme situations réelles d'apprentissage de la lecture chez des enfants mauvais-lecteurs. à travers cette étude exploratrice autour de la relation entre les processus cognitives qui sous-tendent les stratégies de lecture tant sur le plan de la reconnaissance et la compréhension, d'une part; et la conscience du sujet sur ces stratégies, d'autre part, que l'enseignement explicite des stratégies de lecture rendent l'enfant mauvais lecteur plus habile dans la reconnaissance et la compréhension en lecture (texte), due à l'acquisition d'une certaine flexibilité de traitement des informations du langage écrit.

مقدمة:

تعد القراءة نشاط معقد يتطلب التنسيق بين عدد كبير من القدرات الحسية والمعرفية ، بالإضافة إلى تعلم خاص أو نوعي. هذا الأخير يمكن أن تعترض تحقيقه السليم عدد من الأسباب التي يمكن أن تكون عضوية أو ذهنية كالإعاقة الذهنية ، الصمم ، الاختلالات البصرية والعصبية ؛ أو أن تكون هذه العوامل محيطية كالوسط الاجتماعي ، الوسط البيداغوجي غير الملائمين ، الصدمات النفسية والمعاملات السيئة للطفل ، الخ ...

فمن الملاحظ ، حسب أغلب الدراسات العلمية حول تعلم القراءة ، أنه بالرغم من استبعاد العوامل والأسباب العضوية والمحيطية سابقة الذكر ، فإن هناك ما يقارب 5 % من الأطفال المتدربين يعانون من صعوبات مستديمة في تعلم القراءة رغم مستوى عادي من الذكاء والإدراك ومحيط ملائم ولو بشكل نسبي . هذه الفئة يطلق عليها ذوي عسر القراءة (Ramus.F,2003).

صعوبة تعلم القراءة وعسر القراءة :

يرى بعض الباحثين أنه ينبغي التمييز بين ثلاث مجموعات من "القراء" (catégories de lecteurs) غير الأسوياء ، وذلك بهدف فصل ديسليكسيا "محضة" (dyslexie pure): مجموعة الأفراد "غير القراء" (non lecteurs) تضم الأفراد الذين "لا يستطيعون أو لا يريدون القراءة" حسب تعبير Fijalkow.J ، وهي نوع من "الأليكسيا الولادية" لا تتميز عن الديسليكسيا التطورية أو النمائية إلا بمقاومة هؤلاء الأفراد لكل عملية تربوية أو إعادة التأهيل . أما المجموعة الثانية وهم من غير المعسورين لكنهم يعانون من "تأخر في القراءة" (retard en lecture) ، لكنهم يستطيعون أيضا استدراك أو تعويض هذا

التأخر . و أما مجموعة "المعسورين" (dyslexique) فتضم فئة الأفراد التي " تقع في أدنى المستويات للتوزيع العادي للقدرة القرائية " ، باعتبار أن القراءة هي أيضا "مهارة عملية"(un savoir faire) مثل غيرها من المهارات (et all ,1992 , Shaywitz) .

من الضروري إذن التمييز بين الأطفال الذين يعانون من صعوبات تعلم القراءة ، وهي فئة كبيرة تصل حسب تقديرات بعض الباحثين إلى 25 % من مجتمع الأطفال المتدربين (Inizian.A,1998) ، وبين عسيري القراءة التي تمثل نسبتهم تقريبا 5 % من هذا المجتمع . ضمن هذه النسبة تختلف الطروحات حول السبب الرئيس للاضطراب إلا أن هناك شبه اتفاق حول اعتبار الخلل المعرفي من الطبيعة الفونولوجية هو ما يأتي في طليعة الأسباب ، والذي يظهر بشكل من خلال ضعف القدرة الفونولوجية ، ضعف الذاكرة اللفظية قصيرة المدى بالإضافة إلى بطء التسمية (Snowling.M.J,2000 ;in:Ramus.F,2003) . فالخلل الفونولوجي لا يمثل فقط المظهر الأساسي من الاضطراب بل أصبح يعد أهم المؤشرات التي يمكن التنبؤ بها عن صعوبة تعلم القراءة لدى الطفل قبل التمدرس ، ومن ثم فإن الطفل المعسور أو عسير القراءة هو ذلك الطفل الذي يعاني خللا في القدرة الفونولوجية ، وما الصعوبات والأخطاء الملاحظة في القراءة ما هي إلا تحصيل حاصل .

لكن ما يبدو أنه حصل فيه اتفاق هنا (الخلل الفونولوجي) ، إنما يحمل الكثير من التباين في الآراء حول إن كان هذا الخلل عضوي المنشأ أو معرفي أم أنه لساني .

إلى جانب فئة المعسورين ، يمثل الأطفال ذوي "المشكلات العامة" فئة كبيرة من الأطفال كما سبق الإشارة إليه ، وهي مشكلات ذهنية أو اجتماعية و/أو بيداغوجية غير ملائمة ، وهي الفئة التي يعتبرها معظم الباحثين كـ "غير معسورين" (non dyslexiques) ولكنهم من ذوي صعوبات تعلم القراءة. بالرغم من هذه الفئة تعاني بدورها ضعف القدرة الفونولوجية ، كما لاحظته Fijalkow (2000) ، فإن هذا الخلل مرده في هذه الحالة ضعف الإقبال والتمرن على القراءة الذي يطبع "ضعاف القراءة" وليس مستقلا عنها ، كون الطفل الذي لا يحصل على التدريب الكافي والملائم للقراءة يمكن أن يفشل في الكثير من المهمات الفونولوجية من دون أن يكون خلل القدرة الفونولوجية أو القدرات المعرفية الأخرى سببا في ذلك (Morais.J et all,1986) . فخلل القدرة الفونولوجية سابق لصعوبة تعلم القراءة لدى المعسورين في حين يكون هذا الخلل كنتيجة لنقص تعلم القراءة لدى فئة ضعاف القراءة (Ramus.F,2004) .

الاستراتيجيات المعرفية في القراءة لدى ضعاف القراءة:

يتأسس تعلم القراءة والفعل القرائي على عدد من العمليات المعرفية النسجمة في نمو وتفاعل دائمين ، بحيث تعمل القدرة على تعلم القراءة في إطار متكامل توجهه النية أو القصد والمعارف السابقة والمترابطة حول نظام القراءة . لذلك فإنه كلما زادت قدرة الفرد على استعمال هذه المعارف السابقة وأساليب معرفية متنوعة كلما زادت مهارة القراءة لديه (Martinez.J.P,1992).

لقد اقترنت لدى الباحثين في هذا المجال نوعين من الاستراتيجيات ذات الطابع المعرفي والتي يتأسس عليها الفعل القرائي :

- الاستراتيجيات المعرفية (stratégies cognitives): تمثل مجموعة من العمليات العقلية لدى القارئ لإنجاز الهدف من القراءة، أي أنها تلك التي تسهم في جمع ومعالجة المعلومات الكتابية لهدف ما (Saint-Laurent,1991;In:VanGrunderbeeck,1994)، فمنها ما هو قابل للتظهر مثل تحديد الكلمات الأساسية في النص المقروء؛ ومنها ما هو غير قابل لذلك مثل القصد أو النية من القراءة، أو الصور الذهنية المرافقة.

- الاستراتيجيات حول المعرفة (stratégies méta-cognitives): تمثل نمط ثان من استراتيجيات التعلم أو حل المشكلات وتعكس "وعي الفرد وقدرته على التحكم في الاستراتيجيات المعرفية وفي العوامل الوجدانية" (Goupil et Lusignan,1993;In: VanGrunderbeeck ,2004,p4).

فالاستراتيجيات حول - المعرفية في القراءة يمكن أن تتجمع في صنفين: "استراتيجيات التخطيط" (stratégies de planification) المسؤولة عن اختيار أفضل الأساليب الملائمة للوقف وكذا معالجة المعلومات حسب الهدف من القراءة وطبيعتها؛ و"استراتيجيات التقييم أو التنظيم" (stratégies de régulation) التي ترافق الصنف الأول من تعمل على التحقق من إنجاز الهدف المنشود ومن ثم تعديل سلوك القراءة ومراقبته.

بينت بعض الدراسات (Martinez.J.P,1992) أن ضعاف القراءة يتميزون بضعف في "التقييم الذاتي" والتعبير عن عملية التفكير التي ترافق القراءة ويتصفون بـ"التصلب" على المستوى المعرفي من حيث استعمال نفس الاستراتيجية، وذلك في نشاط قراءة لأنماط مختلفة من النصوص تعكس اختلاف في نمط الخطاب المستعمل (سرد، حوار...).

كما يتميز هؤلاء الأطفال بصعوبات في تنشيط واسترجاع المعارف السابقة حول القراءة، لذلك تلاحظ لديهم صعوبات جمّة على مستوى الفهم . وعلى النقيض من ذلك فإن القارئ العادي (أو الجيد) يظهر قدرات أكبر ليس فقط على استعمال متنوع لاستراتيجيات القراءة حسب نمط الخطاب في النص، بل كذلك الوعي والتعبير الصريح عن هذه الاستراتيجيات وتوظيف المعارف السابقة . فمن وجهة النظر هذه، يكمن الاختلاف الجوهرى بين القارئ المبتدأ والقارئ الكفؤ من جهة، وبين القارئ العادي وعسير القراءة من جهة ثانية، في مستوى القدرة على تنشيط وتوظيف المعارف السابقة حول القراءة وتكييفها حسب الموقف أو الوضعية.

دور حل المشكلات في اكتساب استراتيجيات القراءة:

يتضح مما سبق، أن القارئ العادي يستخدم كل طاقاته ومصادره المعرفية من أجل الوصول إلى التعرف على الكلمات وفهم معانيها بالنظر إلى طبيعة القراءة التي هو بصدها، وبذلك فإنه في كل وضعية جديدة للقراءة يعمل القارئ على تنشيط وتوظيف الاستراتيجيات المعرفية والمعارف المكتسبة ؛ غير أن الطفل الذي يعاني صعوبات تعلم القراءة لا تؤهله قدراته المعرفية (وحول المعرفية) للتحكم في هذه العناصر في كل وضعية أو موقف قراءة جديد، هذا الأخير لا يعدو أن يكون "موقف - مشكلة" (situation-problème) من حيث أنه موقف كلي متكامل ذو أبعاد ثلاثة : قارئ، نص، نسق (أو سياق).

فأكبر قدر من الصعوبة التي يواجهها المعسور في تعلم القراءة تتمثل في "حل مشكلة" العناصر والرموز الكتابية، أي أن الصعوبة مركزة في النص

المقروء رغم ما يتلقاه الطفل على الدوام من تعليم لقواعد التحويل الحرفي - الصوتي واستراتيجيات فك الرموز الكتابية.

فمعالجة المعلومات الخاصة باللغة الكتابية في موقف القراءة تتضمن أساسا الاعتماد على العمليات المعرفية التي ترتبط "بنمط ونوعية المعارف" (type de connaissances) المراد معالجتها واكتسابها، وهي عمليات يمكن حثها وتوظيفها باستعمال استراتيجيات مختلفة بوسائل ملاحظة أو غير ملاحظة، كما سبق الإشارة إليها. هذه الأنماط من القراءة والتي سنأتي على ذكرها نجدها كذلك في نشاط القراءة (Lafontaine.D,2003) :

- المعارف التصريحية: تسمح بالتعرف على الاستراتيجية المستعملة وتتمحور حول "ماذا؟" أو "ماهو؟" (مثل : ما هي القراءة الصامتة).
- المعارف المرحلية: تسمح بالتعرف على طريقة التنفيذ والإنجاز، وتتمحور حول استراتيجية "كيف؟"
- المعارف البراغمية: وتتمحور حول استراتيجية "لماذا؟" و"متى؟".

لقد طُبعت في مجال علم النفس المعرفي وعلم النفس العصبي التصورات الراهنة حول صعوبات التعلم، مفهومها ووسائل تقييمها وطرق التعليم الموجهة للتغلب عليها، فأوضحت هذه الصعوبات تتمثل بشكل جوهري في خلل في معالجة المعلومات (Lafontaine.D,2003). فأشكال التفكير والسيورات والاستراتيجيات المعرفية هي بالتالي المسؤولة عن ضعف المردود والأداء لدى ذوي صعوبات تعلم القراءة.

إن ما يظهر كميزة مشتركة بين ضعاف القراءة بمختلف مستوياتهم هي "السلبية الذهنية" (Ibid) حيث يجدون صعوبة في الربط بين المعارف حول

القراءة ولا يطرحون على أنفسهم إلا قدرا ضئيلا من التساؤلات مما يجعلهم أكثر اتكالية على المعلم وتوجيهاته . من هنا تظهر أهمية وضع هؤلاء الأطفال في وضعيات لحل المشكلات لأنها تمثل المواقف الحقيقية والواقعية التي يستدعي فيها الطفل وتحرض فيه استعمال استراتيجيات مختلفة لحلها، بدءا من الشعور بوجود مشكلة، التصور الواضح والكامل لها باستيعاب مكوناتها وعناصرها ووضع فرضيات لحلها والتحقق منها . لكن لا يعني ذلك ترك الطفل تائها أما وضعيات قراءة معقدة لوحده دونما مرافقة وتوجيه، بل يتطلب الموقف البيداغوجي تتبع حل المشكلة مع الطفل مرحلة بمرحلة.

يمثل التعلم عن طريق حل المشكلات منهجا للتعلم والاكتساب يندرج ضمن التيار البنائي في علم النفس المعرفي. فحسب Schmidt (1993) كان المنطلق نظرية Dewey في الثلاثينيات إلى تكوين المعرفة حيث أوضح بأن هذه الأخيرة لا تنتقل كما هي إلى الفرد المتعلم بل أن هذا الأخير يقوم بدور نشيط ليحصل التعلم. ومن حينها عمل Dewey على إنشاء منهج تعليم مبني على مشكلات من الواقع كمنطلق أساسي للتعلم، مع التركيز على تنمية القدرة على التعلم المستقل لدى الطفل، وذلك تحت تأثير أفكار Bruner حول "الاكتشاف الذاتي" و "الدافعية الداخلية" كعناصر قوة دافعة للطفل لاستكشاف عالمه.

يتفق هذا التوجه مع المعطيات التجريبية للدراسات الحديثة في علم النفس المعرفي التي أوضحت ما يكتسبه تعليم استراتيجيات التعلم بصفة عامة واستراتيجيات القراءة بشكل خاص من فعالية وأهمية بالنسبة للفرد المتعلم بناء على مقارنة أقسام التعليم "الكلاسيكي" وأقسام التعليم المنظم لاستراتيجيات تعلم القراءة، مما انعكس إيجابا لدى أفراد الأقسام التجريبية

على مستوى التعرف على الكلمات والفهم. ذلك أن ضعف القراءة والفهم لم يكون لهم القدرة الكافية على استعمال استراتيجيات القراءة الفعالة ولم تكون لهم القدرة بالمستوى المطلوب على تغيير وتكييف هذه الاستراتيجيات وفق نط المعارف والمعطيات أي حسب السياق.

لذلك ينبغي توجيه عناية خاصة بتعليم ضعف القراءة لاستراتيجيات متنوعة في القراءة، بالإضافة إلى استراتيجيات حول - معرفية تمكنهم من التصرف والتحكم في الاستراتيجيات الأولى.

من جانب آخر تمثل وضعيات حل المشكلات عاملا مهما في الرفع من مستوى الدافعية لدى الطفل، من حيث أنها تتيح لهذا الأخير أداء نشاطات لها دلالة وقيمة لأنها تتطلب حل مشكلة حقيقية مما يجعله يشعر بقيمة النشاط الذي يؤديه، خاصة وأن هذه النشاطات تتم في إطار مجموعات صغيرة من الأطفال، وفقا لما تقتضيه هذه الطريقة، فيصبح المتعلم هو المسؤول عن أدائه وتطوره ومن ثم يكتسب نوعا من المراقبة الذاتية.

معطيات الدراسة الاستكشافية:

من خلال محاولة للتعرف على بعض خصائص الاستراتيجيات المعرفية وحول المعرفية لدى ضعف القراءة وبالاتماد على بعض ما توفر من معطيات تجريبية للدراسات حول الموضوع، سعينا إلى رصد بعض الاستراتيجيات من بين عدد كبير من الاستراتيجيات التي وردت في الدراسات السابقة .

تجدر الإشارة إلى الخلفية النظرية التي تتأسس عليها خطوات وإجراءات الدراسة الاستكشافية، حيث تمثل دراسة الاستراتيجيات المعرفية في القراءة توجهها

جديدا في مجال دراسة القدرة على القراءة يختلف عن التوجهات الأخرى السائدة التي تعتبر "فعل القراءة" واكتسابه "كسلسلة من المهارات"، تقيم كل منها بصفة منفردة عن البقية. ففعل القراءة ونموه من المنظور الجديد "المعرفي البنائي" يتأسس على سيرورات معرفية في تطور وتفاعل مستمرين، وتحقق القدرة القرائية وفقا لتصور متكامل ومندمج يوجهها القصد من القراءة والمعارف السابقة حول القراءة (Martinez,1982,1986,1994;Romainville,1993;Tardif,1994).

ف نماذج القراءة الحديثة وفق التوجه المعرفي تتعدى في تصوراتها اعتبار أشكال القدرة القرائية كنيجة لسيرورات تسلسلية (processus séquentiels) أو كبناء لمجموعة قدرات فرعية: عملية فك الترميز ثم الفهم، مثلا. تركز هذه النماذج على الطبيعة التفاعلية وعلى مفهوم "زيادة التعقيد" (complification croissante) بين مكونات القدرة القرائية.

يحتوي مجال الدراسة الميداني على العناصر التالية:

❖ مجموعة من الأطفال ضعاف القراءة: وعددهم 6 (4 ذكور و 2 إناث)، تم تقييم مستواهم في القراءة بناء على قراءة نص وأسئلة فهم. لم يكن لتحديد مستوى أداء القراءة تحديدا دقيقا أهمية تذكر هنا كون الهدف ليس تمييز فئات من القراء ولا مستوى معين من الضعف القرائي كحالة عسر القراءة مثلا.

❖ وضع هؤلاء الأطفال مع قراء جديدين (02) زميلين لهم في القسم لفترات متكررة لأداء نشاط القراءة، بحيث يقوم كل واحد من هذه المجموعة بدور "المعلم" (tutorat). يعمل التفاعل بين أفراد المجموعة

الصغيرة على مشاركة الطفل الفعلية في التعلم بالإضافة إلى زيادة الدافعية لديه.

❖ عمدنا إلى التركيز على أربع استراتيجيات في القراءة : اثنتان منها تتعلق بالتعرف القرائي مستوحاة من أعمال Brayant et all (1999) ؛ واستراتيجية تخص جانب الفهم مستمدة من دراسات Lafontaine.D (2003). أما استراتيجيتا التعرف القرائي فتتمثل في :

- تحديد التماثل بين الأصوات والأشكال والنماذج الكتابية للكلمة : بالبحث عن صور مماثلة لصوت أو لكلمة مقروءة في النص.
- التحليل البنائي : بالتعرف على وحدات الكلمة وإضافاتها (البدايات ، النهايات والتغييرات الإعرابية).

• وأما استراتيجية الفهم فتتمثل في "توضيح المعنى" ، أي التعرف على معنى الكلمة بطرح التساؤل : ماذا تعني هذه الكلمة ؟

فالأطفال عموما وخاصة منهم ضعاف القراءة لا يضعون الفهم كهدف من القراءة بل أن شغلهم الشاغل هو محاولة الانتهاء من القراءة بأسرع وقت ممكن وبالتالي لا يأبهون لمعاني الكلمات والجمل.

ويكون البحث عن معنى الكلمة إما بالبحث في سياق الكلمة أو بالنظر إلى الصور المرافقة للنص أو بمقارنتها بكلمات مشابهة . فيتعلق الأمر هنا ببناء "فرضيات" حول المعنى ومن ثم التحقق منها.

❖ أثناء قراءة النص من طرف تلميذ جيد القراءة، يقوم المعلم بطرح عدد محدد من الأسئلة من حين لآخر على التلاميذ، لتقديم النموذج الذي ينبغي أن يتبعوه في العمل كمجموعة واحد. وهي أسئلة حول:

- ما هو الصوت المماثلة في النص لهذا الصوت؟
- ما هي الكلمة المماثلة لهذه الكلمة في النص؟
- أين تنتهي هذه الكلمة؟ أين الإضافات في بداية الكلمة؟ في نهايتها؟ ماذا تغير فيها؟
- هل تعرف معنى هذه الكلمة؟
- كيف نقوم لمعرفة معناها؟

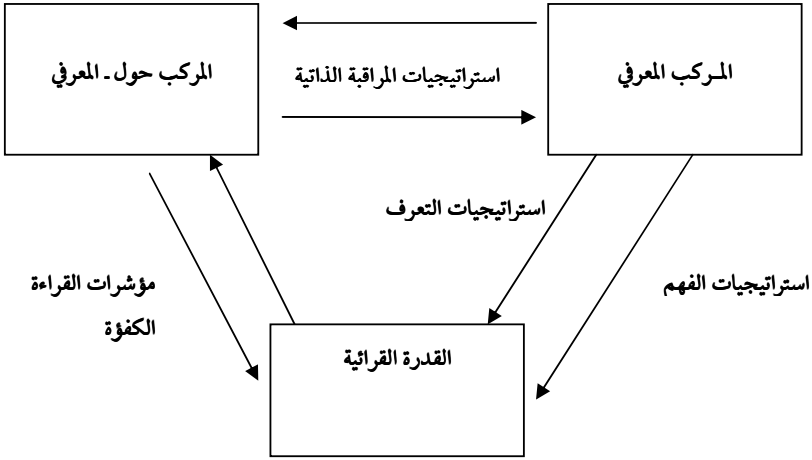
❖ يقوم المعلم في كل حصة بالتقليل من تدخله وتوجيهه ليتولى الأطفال ذلك بأنفسهم، مما يساعد على زيادة الاعتماد على أنفسهم وتوجيههم لمسار التعلم الذي يقومون به.

على مدى شهر ونصف الشهر من الدعم البيداغوجي لضعاف القراءة في شكل حصص استدرائية في مجموعات صغيرة وفي إطار وضعيات حل مشكلات تخص مهارات القراءة، تبين أن التعليم المباشر لبعض استراتيجيات القراءة سمحت بتوظيف العمليات المعرفية المسؤولة عنها، مما أدى بدوره إلى الاعتماد أكثر فأكثر لدى ضعاف القراءة على استراتيجيات متنوعة وبالتالي أدى إلى ظهور نوع القراءة المستقلة التي يعتمد فيها الطفل على نفسه.

من جانب آخر، أدى هذا التعليم المباشر إلى بروز أو زيادة الوعي بما يقوم به الطفل أثناء القراءة أي الشعور بالمهمة التي يؤديها ومتطلباتها على الصعيد الذهني مما يؤثر على زيادة القدرة حول - المعرفية .

ويمكن تمثيل العلاقة بين المركب المعرفي كعمليات معرفية أساسية تتشكل من خلالها استراتيجيات فعالة في القراءة والمركب حول - المعرفي والقدرة القرائية على النحو التالي :

♦ شكل يوضح العلاقات التفاعلية بين الاستراتيجيات المعرفية وحول - المعرفية في القراءة :



خلاصة:

تشكل النتائج الأولية لهذه الدراسة الاستكشافية تأكيداً لنتائج الدراسات الأجنبية الموسعة (Martinez.J.P,2004) المنجزة لحد الآن حول الدور الأساسي للاستراتيجيات المعرفية وحول المعرفة في تعلم وتوظيف القراءة عند الطفل ؛ كما تشكل نقطة بداية لدراسات باللغة العربية ، التي تكاد تكون

معدومة، تسعى إلى دمج الرؤى والتصورات الحديثة في علم النفس المعرفي حول القراءة في الممارسة الفعلية لتعليم القراءة، لوضع برامج تأهيل للأطفال ضعاف القراءة بمن فيهم الأطفال المعسورين.

قائمة المراجع :

1. Boyer.C (1993): l'enseignement explicite de la compréhension en lecture, Graficor
2. Fijalkow.J (2000): Education et génome, Les actes de lecture, 77, pp 4-5.
3. Inizian.A (1998): Et si la dyslexie n'existait pas?, Psychologie et education, N3, pp 33-49.
4. Lafontaine.D (2003): Comment faciliter, développer et évaluer la compréhension des textes aux différentes étapes de la scolarité primaire?, Conférence de consensus sur l'enseignement de la lecture à l'école primaire, 4-5 Décembre 2003, Liège.
5. Martinez.J.P (2004): Les stratégies cognitives des et mauvais lecteurs et la conception de l'acte de lire et d'apprendre à lire des enseignants, <http://72.14.203.104/search?q=cache:JhHowwZcJ:www.er.uqam.ca/nobel/lire/textes/stratcognit.pdf>
6. Morais.J; Bertelson.P; Cary.L; Aleria.J (1986): Literacy training and speech segmentation, Cognition, N24, pp 45-64.
7. Ramus.F (2003): Dyslexie développementale: déficit phonologique spécifique ou trouble sensorimoteur global?, Medecine et Enfance, Avril 2003, pp 255-258.
8. Snowling.M.J (2000): Dyslexia, Oxford, Blackwell
9. Tardif.J (1994): L'évaluation du savoir-lire: une question de compétence plutôt que de performance, In: Boyer.J.Y; Dionne.G.P; Raymond.P: Evaluer le savoir-lire, Montréal, Edition Logiques, pp 69-102.
10. Tardif.J (1997): pour un enseignement stratégique, Montréal, Editions Logiques.
11. Van grunderbeeck.N (1994): Les difficultés en lecture: diagnostic et pistes d'interventions, Boucherville: Gaetan M

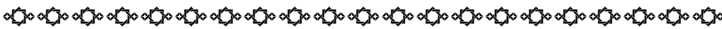
أثر داء السكري المرتبط بالأنسولين على الخصائص النفسية للمراهق و علاقته بالتحصيل الدراسي

إعداد

زاسوف منيرة

أستاذ مساعد مكلف بالدروس بقسم علم النفس

كلية العلوم الإنسانية. جامعة الجزائر.



الملخص

يتناول هذا الموضوع الدراسة العلمية لأهم الخصائص النفسية عند المراهق المصاب بداء السكري المرتبط بالأنسولين وعلاقتها بمستوى التحصيل الدراسي ، باعتبار أن داء السكري يعد من أهم الأمراض البسيكوسوماتية ذات الأعراض والمضاعفات السلبية على الصحة النفسية والجسمية لدى المراهق المصاب.

L'effet de diabète lié à l'insuline sur les aspects psychologiques de l'adolescent et sa relation avec l'apprentissage scolaire

Résumé :

Ce thème parle de l'étude scientifique des importants aspects psychologique chez l'adolescent diabétique lié avec l'insuline et sa relation avec le niveau d'apprentissage scolaire en considérant que le diabète est parmi les importantes maladies psychosomatiques qui a des symptômes et des effets négatifs sur la santé psychologique et physique chez l'adolescent malade.

تمثل الصحة عموماً ليس فقط غياب المرض ، وإنما أيضاً توفر راحة الفرد والمتعة الجسمية والعقلية والاجتماعية ، مما يؤكد العلاقة الارتباطية الموجودة بين الجسم والنفس حيث تحفز راحة البال التي يشعر بها الفرد السليم على عملية التكيف والتوافق النفسي والاجتماعي والأداء الجيد.

أما الصحة النفسية فتعني السواء والنضج والتكيف الاجتماعي والتوافق الشخصي والفعالية في أداء الدور الذي يحقق الرضا عن الذات وتقبلها.

كما تشير إلى التوافق مع الذات وإدراك الفرد لإمكاناته وقدرته على توظيفها في إطارها الإيجابي محققة له إشباعاته المادية والمجردة .

يحددها عباس محمود عوض (1988) بأنها حالة ديناميكية تظهر في قدرة الفرد على التوافق المرن المناسب للموقف الذي يتعرض له ، كما تبدو في شعوره باستقلاليته وفرديته وحرته في الاختيار وقدرته على عقد صلات اجتماعية تتميز بالأخذ والعطاء ، والتفريق بين دوافعه المتصارعة ، والإنتاج في حدود إمكانياته.⁽¹⁾

وهي أيضاً ذلك التعبير الكامل والحر عن كل طاقة الأفراد الموروثة والمكتسبة ، وتنشط في نظام متناسق في اتجاهها نحو هدف أو غاية للشخصية ككل⁽²⁾.

تبحث الصحة النفسية عن مجمل العوامل التي تعيق فعالية الفرد في الحياة وتوافقه الاجتماعي ، ونجاحه المدرسي أو رضاه عن العمل ، فهي تهتم بالقضاء أو التخفيف من الأسباب المسؤولة عن قلق الفرد واضطرابه النفسي والعناية بالأداء المدرسي أو المهني الذي يقوم به ، وتحقيق التوافق النفسي - الاجتماعي والعملي. فالصحة النفسية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالإحساس بالطمأنينة والأمن النفسي والراحة والمتعة بما يملك الفرد من طاقات وإمكانات.

كما تعد تعبيراً شاملاً عن قدرة الفرد على التوافق النفسي والاجتماعي وتكوين صورة إيجابية عن الذات ، وقلة الشعور بالقلق والتوتر ، مما يساعد كثيراً على مواجهة الصعوبات ومواقف التهديد والخطر والنجاح في الأداء العملي والمدرسي.

1. مفهوم الأمراض البسيكوسوماتية :

أدى انتشار الأمراض البسيكوسوماتية إلى الاهتمام بمختلف العوامل النفسية والاجتماعية ، ودراسة حياة المريض وشخصيته والظروف التي يمر بها.

يهتم الطب البسيكوسوماتي بالمرض والمريض معا باعتبار أن الأزمات النفسية والعوامل الانفعالية هي المسببة في إحداث الاضطرابات الجسمية.

ويعرف فخري الدباغ (1983) الأمراض البسيكوسوماتية على أنها مجموعة الأمراض النفسجسمية وتدعى أيضا بالأمراض السيكوفيزيولوجية ، وهي مجموعة الأمراض الجسمية الملموسة التي يعتقد أن سببها الأساسي والأهم هو اضطراب أو شدة نفسية.⁽³⁾

بينما يرى أحمد عكاشة (1979) أن الأمراض البسيكوسوماتية هي اضطرابات عضوية ناتجة عن تأثير عوامل انفعالية وهي مختلفة عن الأمراض التحولية الهستيرية ، خاصة وان العصر يشهد مختلف الضغوطات التي تتوقف على الأسلوب الذي يستجيب له الفرد اتجاهها بغض النظر عن إدراكه لها بصورة موضوعية أو غير موضوعية ، حيث إذا لم يتم التعبير عن الانفعال الذي يتطلبه الموقف في صورة معينة ، فان مجمل التوترات والقلق الداخلي يترجم فيما بعد إلى بعض الاضطرابات البسيكوسوماتية.⁽⁴⁾

فالمقصود بهذا النوع من الأمراض وجود مجموعة من الإصابات العضوية الملموسة سببها اضطرابات نفسية وانفعالية ، مما يدل على العلاقة المتينة بين الجسم والعقل ومدى تأثير العامل النفسي الانفعالي على جسم الإنسان.

وتتمثل مظاهر العامل النفسي في مختلف الضغوطات النفسية والحرمان والكبت الشديد والصدمات العاطفية وجميعها تؤدي إلى أنواع الصراع النفسي المتعددة مولدة فيما بعد أنواعا من الاضطرابات البسيكوسوماتية .

يعتمد عطوف محمود ياسين (1981) في مفهومه عن الأمراض البسيكوسوماتية على الدور الذي تلعبه التغيرات الحشوية حيث يتمثل في المحافظة على التوازن

البيوكيميائي للبيئة الداخلية في الجسم كتنظيم حرارة الجسم وضربات القلب وضغط الدم ومعدل التنفس.

يتأثر التوازن الداخلي للفرد مباشرة بعد حدوث الانفعال مؤديا إلى خلل في التوازن البيوكيميائي للجسم الذي يتباين حسب شدة الانفعال ومدى استمراريته. وتعتبر استجابة جهاز معين في الجسم بخلل عضوي فعلي منشأ نفسي أي باضطراب نفسي جسدي.⁽⁵⁾

تتجلى إذن مظاهر الأمراض البسيكوسوماتية في إصابات فعلية حقيقية شاعت بكثرة بين المراهقين والأطفال.

ومن أهم هذه الإصابات داء السكري لا سيما النوع المرتبط بالأنسولين باعتباره عاملا أساسيا ومهما في تهديد حياة الفرد.

2. مفهوم داء السكري المرتبط بالأنسولين :

يمثل عامة مرضا وراثيا، أو ناتجا عن عدة عوامل كالاستعداد للمرض مولدا أعراضا مختلفة لها تأثيرها العميق في الخصائص النفسية للمصاب.

وهو يعتبر من الأمراض البسيكوسوماتية ومن الاضطرابات الأيضية ، حيث يرتبط إما بخلل في إفراز الأنسولين أو بمقاومة من طرف هذا الهرمون على مستوى أنسجة الخلايا أين يتم تراكم مادة الغلوكوز، كما يصاحبه إفراز بولي سكري مع كثرة العطش وظهور مقدار كبير من السكر في الدم.⁽⁶⁾

ويظهر هذا النوع في كل الفئات العمرية ، لكنه يمثل النمط الوحيد الذي يصيب الطفل والمراهق ، وهو غالبا ما يصيب الأشخاص ذوي الوزن المعتدل ، ويتميز بغياب كامل للأنسولين مما يتطلب العلاج به.⁽⁷⁾

يعد داء السكري من الأمراض التي تتطلب وتشترط المراجعة الجدية والمستمرة للطبيب المختص ، وإلى انصياع المريض للتعليمات الطبية.

كما يشكل أحد الأمراض الخطيرة ذات التأثير السلبي على جسم المريض ، وان لم تتم مراقبته ، يؤثر على كل أجهزة الجسم تقريبا.

3- أعراض داء السكري المرتبط بالأنسولين :

حدد كل من (1991) et R. Rosario (1980) Jean Hamburger ثلاثة أنواع من أعراض مرض السكري المرتبط بالأنسولين متمثلة فيما يلي :

أ- الأعراض الأساسية : وهي :

- ارتفاع نسبة السكر في الدم الراجع إلى وظيفة الكبد التي تعمل على رفعه وغياب إدخاره من طرف أنسجة الجسم.

- كثرة التبول المصحوب بمرور السكر والمتكرر عدة مرات في اليوم خاصة ليلا.

- العطش الشديد الناتج عن ضياع كمية كبيرة من الماء على مستوى الكلا،

ويتطلب تعويض الجسم عن هذا الاحتياج.

- كثرة الأكل بشراهة وبطريقة سريعة.

- وجود الأجسام الخلوونية ويكشف عنها من خلال التحاليل البولية .

- وجود الأسيتوز الناتجة عن الارتفاع الحاد للأجسام الخلوونية في الدم ، وتتميز

هذه المادة بالحموضة مسببة اضطرابات أيضية.

ب- الأعراض الكاشفة :

- الخدش : يكون خاصة في المناطق الجنسية، ويعتبر من أهم العلامات الكاشفة

للمرض.

- فقدان الوزن أو النحافة : الناتجة عن عدم استعمال السكريات من طرف

خلايا الجسم بسبب الغياب الكامل للأنسولين ، واستعمالها للبروتينات الأساسية

للعضلات ، مما يؤدي إلى الهزل الذي يعاني منه أغلب المصابين رغم التغذية الجيدة.

- حالة الغيبوبة : وهي من أخطر أعراض داء السكري المرتبط بالأنسولين .

إضافة إلى العرق البارد وشحوب الوجه ورجفة اليدين.

ج- الأعراض النفسية : وتتمثل في :

- التعب أو الإعياء النفسي :

وينحصر في حالة الإعياء التي يتعرض لها المريض ، وفي مختلف الاضطرابات النفسية التي قد يمر بها كالقلق والخوف المستمر من تأزم المرض ، وحالات الاكتئاب واليأس من الحياة ، وسرعة الإثارة وضعف معنوياته.

إضافة إلى :

- انعدام الرغبة في العمل - الأرق - انحطاط الذاكرة - التلعثم والغثيان. (8) - (9)

4. مضاعفات داء السكري المرتبط بالأنسولين :

تظهر على المريض اضطرابات أخرى ناتجة عن تطور داء السكري المرتبط بالأنسولين مولدة القلق والتوتر الحاد.

وتتمثل في :

- الالتهابات الحادة والمزمنة.
- أمراض الأوعية الدموية كارتفاع الضغط الدموي.
- تصلب الشرايين أو اضطراباتها.
- حدوث مضاعفات في شبكية العين حيث تضعف الرؤية.
- اضطراب في وظيفة الكلى الذي يمكن أن يؤدي إلى القصور الكلوي.
- إصابة أوعية الأعصاب خاصة أعصاب وجذور النخاع الشوكي.

إضافة إلى :

- فقدان الوعي
- شحوب حاد في الوجه وانخفاض النشاط الفردي. (10)

ويكون القلق هو أول علامة تتاب حياة المريض بداء السكري المرتبط بالأنسولين أثناء هذه المضاعفات .

حيث يبدأ عند التأكد من تشخيص المرض ثم يشتد أثناء المعرفة الحقيقية لمختلف المضاعفات السابقة التي يمكن أن تحدث في أي لحظة، فيعيش حياته المهددة بكل معاني الألم والعذاب النفسي.

يشكل اكتشاف المرض صدمة عنيفة مسببا جرحا نرجسيا لكل من المصاب وعائلته وإحساسا قويا بالذنب عند هذه الأخيرة خاصة إذا كان المريض مرافقا.

كما يمثل داء السكري المرتبط بالأنسولين لا سيما مضاعفاته الخطيرة على المستوى الهوامي عقابا للمريض، ومن جهة أخرى يعتبر عدم تقبل المرض والتهاون في الحرص على التعليمات المطلوبة تهديما ذاتيا للجسم.⁽¹¹⁾

5- أثر داء السكري المرتبط بالأنسولين على الخصائص النفسية للمرافق :

وضح (1980) De.Ajuriaguerra معاناة المرافق المريض بداء السكري المرتبط بالأنسولين حيث يبقى رهينة الدواء المستمر المفروض عليه عن طريق حقن الأنسولين ، وما يترتب عنها.

كما يؤدي به المرض إلى اختلال التوازن النفسي له ولعائلته، مما يؤثر على ثموه في أهم مراحل وعلى العلاقة مع والديه.

من جهة أخرى ، فإن المرض يفرض تدعيما لهذه العلاقة على مستوى الجسد عن طريق الحقن والتحاليل البولية ومختلف التقليلات الغذائية.⁽¹²⁾

إن من أهم تأثيرات داء السكري المرتبط بالأنسولين أن يصاب المرافق بصدمة نفسية عنيفة ، حيث يمكن أن يؤدي به الضغط النفسي إلى استجابات سلوكية مثل العدوانية أو حالات إكتئابية وأحيانا إلى الحصر وصعوبات في التفاعل مع الآخرين مما ينجم عنه غالبا الانطواء حول النفس وإهمال المرض وعدم تقبله ، وفي بعض الأحيان وصوله إلى تهديم ذاته.⁽¹³⁾

تعرض الاضطرابات الأيضية عند المريض بداء السكري المرتبط بالأنسولين على عدم التوازن النفسي الذي يعتبر عاملاً أساسياً في عملية التكيف الاجتماعي ، وفي الإنجاز العادي للأعمال اليومية .

ويكون أثر هذا الاضطراب بالغاً على الحياة النفسية للمراهق حيث يقوم بتنظيم حالات اضطرابية داخلية تعزز شعوره بالقلق والتوتر والأنطوائية متجنباً الاحتكاك مع الآخرين بسبب كتمانهم لمرضه وخجله منه.

كما يعمل على إظهار سلوك عدواني عنيف تتجلى مظاهره في الثورة والغضب لأنفه الأسباب وعدم التحكم في مختلف الانفعالات ، و حدوث تقلبات مزاجية متكررة⁽¹⁴⁾.

تمثل جميع هذه الأعراض النفسية استجابة واضحة للحالة الصحية لدى المراهق.

وفي بعض الحالات ، لا يتقبل المراهق المصاب مرضه المزمن ولا يعترف به كحقيقة مرضية يعيشها ، لذلك قد يحاول البعض منهم الانتحار كوسيلة للخروج من حالة الألم والعذاب النفسي.

وثمة أعراضاً أخرى تظهر على المراهق من خلال تلقيه تهديدات بالموت مرتبطة بمجاذب الإغواء وبتعقيدات المرض الخطيرة المثيرة للقلق والخوف الحادين مما يمكن أن يطغى على حياته الحزن الشديد والتشاؤم.⁽¹⁵⁾

قد أشار كل من F.Seidman R.Swift et H. Stein (1967) إلى وجود اضطرابات نفسية متعددة وينسب عالية عند المراهقين المصابين بداء السكري المرتبط بالأنسولين من خلال دراستهم حول المشاكل التي يتعرض إليها هؤلاء المراهقون.⁽¹⁶⁾

تمثلت هذه النسبة في 68% مستخلصة من الدراسة النفسية الاجتماعية على مائتان وستة وتسعون مراهقاً من الجنسين مصاباً بداء السكري المرتبط بالأنسولين والتي قام بها كل من S.Amir., A Galatzer,M. Frish. Et Z. Laron. (1977).⁽¹⁷⁾

ويتضح من هذه الدراسة التحليلية أهم هذه الأنماط السلوكية في سيكولوجية شخصية المراهق المصاب بداء السكري المرتبط بالأنسولين والمرتبطة بتأثير المرض عليها :

أ- العدوانية : وهي موجودة عند أغلبية المراهقين المرضى بداء السكري المرتبط بالأنسولين ، وتنتج في مظاهر متعددة دالة على صورة الذات السلبية كالرغبة في تدمير الذات ، حيث أشارت Barta (1968) إلى وجود نسبة مرتفعة دالة إحصائيا للانتحار عند فئة المراهقين المصابين مقارنة بمجموعة أخرى من المراهقين العاديين. يؤكد كل من Swift Et Seidman (1967) أن العدوانية نحو الذات وتدميرها تعبر عن انعكاس لأزمة القلق والمخاوف الحادة المرتبطة بالمرض ، وفي هذه الحالة يميل المراهق إلى الانتحار.

ويمكن أن تظهر هذه العدوانية الذاتية في مظاهر أخرى كإهمال المرض وعلاجه ورفض مراجعة الطبيب والإنكار لأحد الوالدين الذي نقل له المرض.⁽¹⁸⁾

ب- القلق والتوتر : وهو ناتج عن المرض في حد ذاته مولدا لدى المراهق اضطرابا حادا في التوازن النفسي الذي من أهم أعراضه العدوانية الذاتية .

يعتقد كل من Dunbar (1979) , Jochmus (1971) و Karp (1969) أن هذا القلق المتأزم يؤثر بشدة على المراهق المصاب بداء السكري المرتبط بالأنسولين حيث يصيبه الإحباط الشديد والذهول الذهني .⁽¹⁹⁾

كما ينجم عنه أيضا حسب Lestradet (1968) و Boulin (1950) ظهور سلوكات تعكس المرض كالاكتئاب والعدوانية وأعراضا بيسيكوسوماتية واضحة⁽²⁰⁾

وتتطلب الحالة الحادة للقلق والتوتر التكفل النفسي بالمراهق المريض.

ج- مشاكل التقمصات الجنسية والعلاقات الجنسية الغيرية : والتي تبدو صعبة بالنسبة للمراهق المصاب من الجنسين ، حيث يشعر بعقدة النقص نحو الصورة المطلوبة للرجل أو المرأة في المجتمع.

فهو لا يستطيع تقمص شخصية فرد عادي ، ويتردد كثيرا في إقامة علاقة مع الطرف الآخر وفي اجتناب التفكير في موضوع الزواج لأنه يجلب الإحساس الشديد بالخجل والدونية.

وتؤدي صعوبة تقمص المراهق للأب والمراهقة للأم إلى ضعف الاهتمام والانجذاب نحو العلاقات الجنسية الغيرية ، وتكون شخصية الذكر أقل تطورا من شخصية الأنثى نتيجة للتأخر في عملية البلوغ .⁽²¹⁾

د . مشكل التبعة : الذي يعتبر إشكالية حادة بالنسبة للمراهق ، فهو يعتمد رغما عنه على والديه خاصة الأم في مرضه وفي الحالة التي يفقد فيها الوعي نتيجة لانخفاض نسبة السكر في الدم . وهذا ما يولد لديه الشعور بعقدة الذنب في تعذيب الآخرين لأنه يعتقد نفسه مصدرا للقلق والألم والإزعاج .

ومن جهة أخرى ، أكدت دراسة (1977) Alexandre أن المراهقين المصابين بداء السكري المرتبط بالأنسولين يتميزون بسلوكات التبعة نظرا لان احتياجاتهم من الحنان والحب لم يتم إشباعها مما يخلق لديهم الإحساس بالإحباط الذي يستجاب له عن طريق العدوانية .

وأحيانا تمنع الحماية المفرطة من طرف أحد الوالدين أو كلاهما معا استقلالية المراهق المريض الذي يحتاج إلى ذات مستقلة ، يعالج من خلالها على الأقل شعوره القوي بالذنب .⁽²²⁾

هـ - سوء التكيف الاجتماعي : يميل المراهق المصاب بداء السكري المرتبط بالأنسولين إلى الانطواء على نفسه وعلى ذاته لاسيما في الحالة التي يواجه فيها مواقف مقلقة أو مخرجة اتجاه مرضه

ويصف كل من (1967) Seidman et swift شخصية المراهق المريض بالسلبية حيث تتميز بالتضايق والانطوائية .

وفي بعض الأحيان ، يؤدي قبول الوالدين المحتتم للمرض إلى سلوكيات شخصية لا شعورية كإهمال المراهق المصاب ، أو على العكس تبني الحماية المفرطة مما يؤثر في عملية التكيف الاجتماعي.

من جهة أخرى ، يجد المجتمع في حد ذاته صعوبة في الاحتكاك مع المراهق المريض بداء السكري المرتبط بالأنسولين ، ويلعب دورا كبيرا في عدم السماح له بان يكون فردا عاديا مثل الآخرين .

هذا ، ويركز كل من :

Khurana و Besse(1972) swift((1967) Manciaux (1967) Zeidel (1970)

(1970) على الدور العائلي والأسري من أجل تحقيق تكيف اجتماعي أفضل للمريض.⁽²³⁾

وتجدر الإشارة إلى أنه كلما كان الوسط العائلي والمحيط الاجتماعي والتربوي غير متفهما للظروف التي يعيشها المراهق ، زادت حدة جميع السلوكيات السابقة وتفاقت آثارها السلبية .

6 - العلاقة بين الخصائص النفسية ومستوى التحصيل الدراسي عند المراهق المصاب بداء السكري المرتبط بالأنسولين:

يكون داء السكري المرتبط بالأنسولين صدمة نفسية بالنسبة للمراهق خاصة وان هذا المرض غير قابل للعلاج ويتطلب الحرص والاستمرار في المراقبة.

ويولد الضغط الذي يعيشه المريض وضعية وجدانية سيئة ، إذ ان ضياع الحالة الجيدة للصحة يعمل على تدهور الحالة النفسية للمصاب ويؤدي إلى عذاب نفسي يطغى على الجسم ويعرقل نشاطه⁽²⁴⁾.

قد وضحت دراسة Brush (1949) على عينة قدرها خمسة وعشرون مراهقا مصابا بداء السكري المرتبط بالأنسولين أن الصدمات النفسية والانفعالية ترفع من كمية السكر في الدم عند هؤلاء المراهقين نظرا لحساسية المرحلة التي يمرون بها وان

مجموعة منهم تبدي سلوكات قهرية متميزة بالقلق والتوتر المزمن والجرح النرجسي إضافة إلى فقدان الثقة بالنفس والإحساس بالعجز والفشل⁽²⁵⁾.

وطبقا لما سبق، يرى P. Marty (1976) أن تعرض المراهق إلى الإصابة بمرض السكري ينجم عنه تكوين صورة سلبية جدا عن الذات، فيكثر الحديث عن الموت والرغبة في تدمير الذات حيث تلعب غريزتا الموت والحياة دورا مهما في تنظيم الجهاز النفسي، وإذا حدث اختلال في هذا التنظيم، فإن غريزة الموت تتدخل وتمارس نشاطها، بهدف هروب المراهق وتخلصه من مسؤولية المرض⁽²⁶⁾.

كما يؤكد أيضا أن المراهق المصاب بداء السكري المرتبط بالأنسولين يتعرض إلى الاكتئاب البسيكوسوماتي نتيجة لانخفاض مستوى الطاقة الليبيدية والموضوعية دون تعويضها مما يؤدي ذلك إلى فقدان الرغبة في العمل والتأثير على أدائه اليومي⁽²⁷⁾.

وفي نفس المجال، قام Pless (1971) بدراسة إحصائية في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا حول الأطفال والمراهقين المصابين بالأمراض المزمنة ووجد أن حوالي 6% إلى 20% من العينة المختبرة مصابين باضطرابات نفسية هامة كشدة القلق والجرح النرجسي العميق المتسببين في اضطرابات دراسية.

وكانت هذه الاضطرابات موجودة بنسبة 17% و 14% عند الأطفال والمراهقين المصابين بالأمراض المزمنة مقابل 7% و 5% عند العينة الضابطة⁽²⁸⁾.

وقد أكدت بعض حالات دراسة :

(1979) B. Gramer, F. Feihl et F. Palacio Espasa أن الآباء يشكون من الصعوبات الدراسية التي يجدها أبنائهم المرضى، ومن ضعف المستوى الدراسي الراجع إلى الشيط الذهني.

كما تدفع الفحوصات اليومية المتكررة إلى شعور المراهق المريض بالجرح النرجسي المرتبط باكتشاف المرض وباختلال التكامل الصحي للجسم، ويرتبط هذا الجرح النرجسي بوجود حالات فشل دراسي⁽²⁹⁾.

ونظرا لان داء السكري المرتبط بالأنسولين هو مرض مزمن يتطلب الحرص على العلاج المنتظم والمستمر ، فان التلميذ يضطر إلى الغياب عن المدرسة بالقدر الذي يستلزمه العلاج ويشير(1993) Mustapha Khiati إلى ان أحد الأسباب الهامة التي تؤدي إلى عرقلة التحصيل الدراسي هو كثرة وطول مدة العلاج والمتابعة الطبية التي تتطلبها داء السكري المرتبط بالأنسولين⁽³⁰⁾.

الخلاصة :

يعتبر داء السكري المرتبط بالأنسولين من أهم الأمراض البسيكوسوماتية حيث أصبح يهدد حياة الإنسان بكل ماتحمله من خصائص ، فأصبح المصاب يعيش الخطر والخوف في كل لحظة من حياته في حالة زيادة أو نقصان نسبة السكر في الدم ، فيعيش مرضه كتجربة خاصة تسايره مدى الحياة .

وطالما أن التوازن النفسي الذاتي يعتبر كنتيجة للتوازن البيولوجي ، فان الإصابة الفعلية بداء السكري المرتبط بالأنسولين عند المراهق تعرقل سير حياته خاصة فيما يتعلق بالجانب النفسي ، مما يمكن أن يصاحب ذلك استجابات سلوكية مختلفة مثل العدوانية أو حالات اكتئابية و أحيانا الحصر وصعوبات في تكوين علاقات مع الآخرين ، مما يدفع غالبا إلى الانطواء حول النفس ، وهذا من شأنه أن يعيق العملية التعليمية للتلميذ ، لأن هذا الأخير تقل نشاطاته وينقطع عن المشاركة الجماعية ويصاب بالإحباط .

لذلك لا بد على المراهق أن يتقبل مساعدة الآخرين له وفي نفس الوقت عليه أن يناضل من أجل تحقيق ذاته وذلك للوصول إلى استقلاليته ، وهذا يتطلب نجاحه في تقبل مرضه والتكيف معه ومقاومته بصفة عادية ومنفردة .

الهوامش :

- 1- عباس محمود عوض ، الموجز في الصحة النفسية ، دار المعارف الجامعية ، 1988.
- 2- نعيم الرفاعي ، الصحة النفسية : دراسة وتكيف ، مطبعة محمد هاشم للكتب ، بيروت، 1980.
- 3- فخري الديباغ ، أصول الطب النفسي ، دار الطليعة ، الطبعة الثالثة ، بيروت، 1983.

- 4- أحمد عكاشة ، الطب النفسي المعاصر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1979.
- 5- عطوف محمود ياسين ، علم النفس العيادي ، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، 1981.
- 6- Garnier Delamare ,dictionnaire des termes techniques de médecine, Maloine, paris,1985.
- 7-Mustapha Khiati , le diabète sucré chez l'enfant, office des publications universitaires, Alger ; 1993.
- 8- Jean Hamburger, petite encyclopédie médicale, Flammarion, médecine-sciences, paris , 1991.
- 9- R., Rosario, le nouveau guide du diabétique, maloine, paris, 1980.
- 10- François Aubert, et Philippe Guittard , l'essentiel médical, Editions Ellipses , paris,1991.
- 11- B., Gramer, F.,Feihl, et F., palacio espasa, le diabète juvénile, maladie difficile à vivre et à penser, revue psychiatrie de l'enfant, n°= 1, paris,1979.
- 12-J., De ajuriaguerra, manuel de psychiatrie de l'enfant, 2ème édition, masson, paris , 1980.
- 13- Association Française des diabétiques, le diabète aujourd'hui : 100 spécialistes vous informent, édition Hachette, Paris, 1990.
- 14- Soins, l'éducation de l'adolescent diabétique N° 178, expansion scientifique Française, paris,1997.
- 15- B., Gramer, F.,Feihl, et F., palacio espasa,ibid.
- 16-J., Appelboom – Fondu, F., Verstraeten, et N.,Dopchie, Aspects psychologiques du diabète et de son traitement à l'adolescence, Revue de neuropsychiatrie infantile, n°= 22, Bruscelles,1974.
- 17- S.,Amir, A.,Galatzer, M.,Frish, et Z. laron, Asociological survey of juvenile diabetes , journal of psychological aspects of balance of diabetes in juveniles, vol.3,1977.
- 18-J., Appelboom – Fondu, F., Verstraeten, et N.,Dopchie,ibid.
- 19- B., Gramer, F.,Feihl, et F., palacio espasa,ibid.
- 20-J., Appelboom – Fondu, F., Verstraeten, et N.,Dopchie,ibid
- 21-ibid.
- 22-F., Alexandre, la médecine psychosomatique, édition payot, paris,1977.
- 23- J., Appelboom – Fondu, F., Verstraeten, et N.,Dopchie,ibid.
- 24- J., Mirouge, Aucristin- pascalle, et J., toucher, diabète et psychiatrie, 4ème édition . E.M.C, 1988.
- 25- H., Bruch, physiologic and psychologic interrelationships in diabetes in children, psychosomatic medicine, vol.11, 1949.
- 26- P., Marty, Mouvements individuels de vie et de mort, payot, paris, 1976.
- 27- P., Marty, la psychosomatique de l'adulte, P.U.F, paris, 1990.
- 28- I.B., Pless, chronic illness and its consequences : observations based on three epidemiological surveys, Journal of peadiatrics, vol 79, N°3 ; 1971.
- 29- B., Gramer, F.,Feihl, et F., palacio espasa,ibid.
- 30- Mustapha Khiati, ibid.

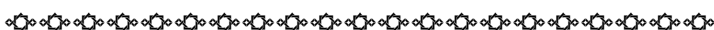
أهمية استخدام تكنولوجيا الإعلام في العملية التعليمية

إعداد

محمد بودريالة

قسم علم النفس وعلوم التربية

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة. الجزائر



ملخص

يهدف هذا المقال إلى توضيح مدى حاجة العملية التعليمية إلى استخدام الوسائل الإعلامية التي أفرزها التطور التكنولوجي الذي عرفه العالم، وذلك بهدف مساعدة المعلم على أداء وظيفته، ومساعدة المتدربين على بلوغ استيعاب أفضل للمواضيع المدروسة في مقررات التعليم الموجودة في البرنامج الدراسي. وذلك بعد ملاحظة النقص الفادح لهذه الوسائل في المدارس الجزائرية .

Résumé

Parmis les moyens d'information, les masses medias jouent un rôle important dans l'enseignement à l'école afin d'atteindre une bonne assimilation des programmes enseignés. C'est pour cela les experts en matière d'éducation appellent à l'utilisation de ces moyens.

يشهد العالم اليوم ثورة علمية وتكنولوجية كبيرة في ميادين عديدة ومن ضمنها ميدان الإعلام والاتصال، بحيث عرفت وسائل الإعلام المختلفة المكتوبة والسموعة والسمعية البصرية تطورا كبيرا ضمن ما يسمى بتكنولوجيات الإعلام، فانتشرت المعلومات بسرعة عبر أنحاء العالم، وتوسعت شبكات الاتصال، وسهلت عملية التواصل بين الشعوب عن طريق هذه الوسائل الإعلامية التي أصبحت محل تنافس شديد وخاصة من قبل الدول المتقدمة.

ويرى إينغاسيو رامونيه (IGNACIO RAMONET) "أن المعرفة الحاسمة على مستوى الكوكب رهانها هو السيطرة على الكمبيوتر، التلفزيون والهاتف" (فضيل دليو وآخرون: 2002، ص 102).

ونظرا لأهمية وسائل الإعلام في عملية التأثير على الأفراد "فإنها من الناحية التطبيقية قد تستخدم للتأثير الانفعالي وتطويع الناس وتوجيههم نحو فكرة معينة" (أحمد بدر: 1998، ص3).

ولهذا فقد نادى الكثير من الخبراء منذ منتصف القرن العشرين لاستعمالها في التربية، وبالأخص العملية التعليمية بالمدارس عبر مختلف مستوياتها.

ولما كانت العملية التعليمية تمثل في جوهرها عملية اتصالية فإن عناصرها هم المعلم، المتعلم ووسائل التعليم، ومن هنا ظهر الاهتمام العملي بهذه الوسائل (وسائل التعليم) وأخذت تسميات متعددة منها الوسائل التعليمية، تكنولوجيا الوسائل التعليمية، تكنولوجيا الإعلام، معينات التدريس وغيرها، وأصبحت هذه الوسائل عنصرا هاما يعتمد عليه المعلم في الشرح والإيضاح زيادة على مجهوده الفكري والبدني.

ولتحقيق نجاح العملية التعليمية لا بد من توفر وسائل تربوية معينة تنقسم:

1. الوسائل التقليدية: تتمثل في السبورة والطبشور والكتاب المدرسي.

2. الوسائل الحديثة: وتتمثل في وسائل الإعلام التي أفرزها التطور التكنولوجي الذي عرفه العالم ومسّ بدوره قطاع التربية والتعليم الذي سعى لاستخدام كل وسيلة إعلامية حسب الهدف التعليمي المراد الوصول إليه وتحقيقه.

لقد كان استخدام وسائل الإعلام في المدارس كوسائل تعليمية بمثابة الانقلاب الحقيق على المناهج التعليمية القديمة التي أصبحت غير مجدية لوحدها، وبعد إثبات تأثير وسائل الإعلام على الجمهور نادى الخبراء استخدامهما في التعليم، إلا أن هذا يجب أن يخضع لإستراتيجيات محددة لتحقيق بهدف التعلم الفعال.

فما هي هذه الوسائل الإعلامية المستخدمة في التعليم، وأين تكمن أهميتها؟ وما هي شروط استخدامها والظروف الواجب توفرها من أجل هذا الاستخدام؟.

تعريف تكنولوجيا الإعلام:

قبل تعريف تكنولوجيا الإعلام وجب أولاً إعطاء معنى "تكنولوجيا التعليم" لارتباط المفهومين "تكنولوجيا التعليم" يقصد بها استخدام مستحدثات التقنية المعاصرة في المؤسسات التعليمية للإفادة منها في التعليم بجميع جوانبه، ويعتقد الباحث (لميسدين LUMSDAINE) عام 1964 بأن التكنولوجيا في التعليم يمكن تعريفها بأنها عبارة عن استخدام المعدات في تقديم المواد التعليمية، وتعني حسب رأيه بأنها تطبيق المبادئ العلمية خاصة نظريات التعليم لتحسين التعلم" (محمد محمود الحيلة: 2000، ص32).

وبعد تقدم العلم واستخدام وسائل أخرى أدخلت السينما، وأجهزة العرض المختلفة، والتلفزيون والراديو التعليمي وأجهزة التسجيل الصوتي. وهذه الوسائل هي التي أطلق عليها فيما بعد اسم تكنولوجيا الوسائل الإعلامية وهي عبارة عن وسائل أفرزها التقدم التكنولوجي وتستخدم في عملية إعلام وإخبار الأفراد بما يحيط من حولهم. وهذه الوسائل كما سبق ذكره أخذ استخدامها في التعليم ينتشر حسب مستوى التقدم لكل دولة وحسب كل سياسة تعليمية مخططة.

"إن سمة استخدام هذه الوسائل كان ظاهراً في المؤسسات التعليمية إلى أن ظهر مفكرون تربويون انتقلوا من هذه المرحلة (مرحلة استخدام الوسائل) إلى مرحلة التفكير في إستراتيجيات استخدام هذه الوسائل حتى يكون تحسين التعليم شاملاً للمتعلم وطريقة التعليم، بل عملية التربية كلها وحيث لا تصبح طريقة العرض أو الاستقبال هي المحور الأساسي لعملية التعليم" (فتح باب عبد الحليم سيد: 1984، ص3).

لقد أدرك التربويون بأن العبرة ليست في استخدام هذه الوسائل الإعلامية كوسائل في عملية التعليم تساعد على الشرح والإيضاح، بل قد يكون استخدامها

العشوائي ذا أثر عكسي على تعلم التلاميذ. ويعتقد جانيه (GAGNE) بأن التعلم ليس واقعة اجتماعية social évent بل إنه عبارة عن عمل فردي وهذا ما يؤكد بأن الناس بحاجة إلى مساعدة في التعلم.

ضرورة استخدام وسائل الإعلام في التعليم:

توجد الوسائل التعليمية (INSTRUCTIONAL MEDIA) ووسائل الإعلام (MASS-MEDIA)، وتستعمل وسائل الإعلام في عملية التعليم وقد تسمى "وسائل إيضاح"، " ووسائل سمعية بصرية"، وتسمى هذه الوسائل الإعلامية في المجتمع بوسائل الترفيه ووسائل الإعلام والتثقيف ووسائل الإرشاد ووسائل التوعية والتوجيه، وتستعمل هذه الوسائل في المدرسة للقيام بمهام التثقيف والإرشاد والتوعية ضمن العملية التوجيهية.

" لقد أدرك المعلمون عبر العصور أن الكلام وحده عاجز في كثير من الأحيان على أن ينقل الحقائق والمعلومات إلى التلاميذ، فضلا على إكسابهم الإدراك الصحيح لهذه الحقائق والمعلومات، ودعا المفكرون إلى استخدام وسائل أخرى وكانت أولى هذه الوسائل هي الرسوم والصور وسميت صورا إيضاحية، ثم سميت معينات التدريس ينعت بها المعلومات كل الوسائل الأخرى وبخاصة السينما والمصورات" (فتح الباب عبد الحليم سيد: 2001، ص34).

أهمية استخدام وسائل الإعلام في العملية التعليمية:

لقد ظهر في ميدان الوسائل التعليمية اتجاهات حديثة ترجع إلى عوامل متعددة منها التطور في البحوث التي تناولت السلوك الإنساني، وبالتالي في عملية التعلم، منها النمو السريع في العلوم الحديثة والتكنولوجيا التي صاحبها ومنها أيضا التطور في فلسفة التربية وارتباطها الوثيق بالإيديولوجيا والنظريات الاقتصادية والاجتماعية.

لقد وضحت هذه الاتجاهات في وسائل الإعلام ثلاثة ميادين وهي:

الميدان الأول وهو التخطيط لاستخدام هذه الوسائل .

الميدان الثاني هو إنتاج الوسائل وتوفيرها للمعلم والمتعلم.

والميدان الثالث هو كيفية استخدامها والانتفاع بها وفق إستراتيجية مخططة.

إن التطوير التكنولوجي في المجال التربوي الذي ظهر عبر تكنولوجيا الإعلام المستخدمة في التعليم ليس ترفاً أو تغييراً في الشكل بل هو استجابة حتمية وتفاعل ضروري مع معطيات عصر المعلوماتية والتكنولوجيا المتطورة.

وبهذا لا يكون الكتاب هو المصدر الوحيد للمعرفة والعمل على تحقيق التكامل بين الكتاب والوسائل الأخرى ونشر مفهوم التعليم المتقل بحيث يظل المتعلم على اتصال بمصادر التعلم أينما كان استخدامها، والتركيز على التجريب والملاحظة والبحث عن المعلومات، وأيضاً تنمية المهارات والقدرة على الابتكار من خلال الوسائل الإعلامية والمعارض والأنشطة" (سلامة الخميسي: 2001، ص 151).

إن استخدام وسائل الإعلام ضمن الوسائل التعليمية يفيد المعلم والمتعلم على حد سواء وتتضمن هذه الإفادة في النقاط التالية :

أهمية وسائل الإعلام للمعلم:

- تعمل هذه الوسائل على مساعدة المعلم وتحسن أدائه في إدارة الموقف التعليمي.
- تساعد على رفع درجة كفاءة المعلم المهنية واستعداده.
- تغيير دور المعلم من مجرد ناقل للمعلومات وملقن إلى دور المخطط والمقوم للتعلم.
- تساعد وسائل الإعلام المعلم في العملية التعليمية على حسن عرض المادة المراد توصيلها للتلاميذ والتحكم فيها من خلال هذه الوسائل ليتمكن التلاميذ والطلبة من متابعة المادة بطريقة جيدة وواضحة.
- تمكن هذه الوسائل من استخدام كل الوقت المتاح للتعليم بشكل أفضل.
- توفر هذه الوسائل الوقت والجهد المبذولين من قبل المعلم، حيث يمكن استخدام الوسيلة التعليمية أكثر من مرة.

- تساعد وسائل الإعلام في التعليم على إثارة الدافعية لدى الطلبة وذلك من خلال القيام بالناشطات التعليمية لحل المشكلات واكتشاف الحقائق.(محمد محمود الحيلة: 1999، ص223).

أهمية وسائل الإعلام في التعليم بالنسبة للمتعلم (التلميذ) :
- إن وسائل الإعلام تنمي في المتعلم حب الاستطلاع وترغبه في التعلم ، لأن المتعلم يرغب في الوسائل و الأدوات التعليمية الجديدة التي تعتبر بدورها محفزات لاكتساب المعارف ولقد وضع جانبيه GAGNE مجموعة من الخطوات للعملية التعليمية بناء على مراحل التعلم وهذه الخطوات هي :

1. استشارة دافعية التلميذ للمعلم.
2. إلام وإبلاغ التلميذ بالأهداف التي يرمي إلى الوصول إليها.
3. توجيه إنتباه التلاميذ نحو الموضوع.
4. استشارة تذكر التلاميذ للمتطلبات الأساسية للموضوع.

أهمية وسائل الإعلام بالنسبة للمادة التعليمية:

وكما لهذه الوسائل من أهمية بالنسبة للمعلم والمتعلم فإن لها أهمية أيضا بالنسبة للمادة التعليمية ، فهي تساعد على توصيل المعلومات والمواقف والاتجاهات والمهارات المتضمنة في المادة التعليمية إلى المتعلمين وبالتالي فهي تساعدهم على إدراك هذه المعلومات إدراكا مقاربا ، وإن اختلفت المستويات ، كما أنها تساعد على إبقاء المعلومات حية في ذهن المتعلم ، كذلك فهي تبسط المعلومات المتضمنة في المادة التعليمية وتعمل على توضيحها. (محمود الحيلة : 99 ، ص224).

إن هذه الرسائل يمكن لها أيضا أن تعوض النقص في عدد المعلمين في بعض التخصصات ، كما يمكن أن يعلم عددا كبيرا من الطلاب في وقت واحد وبنفس الكفاءة مع كل منهم على عكس المعلم الذي تتناقص كفاءته وأثره التعليمي بزيادة أعداد من يعلمهم" (سلامة الخميس، 1999 : ص 148،149)

وتمكن شبكة المكتبة الإلكترونية مثلا الطالب في المدرسة عن طري شبكة الحاسوب الاتصال بالمكتبة المركزية والحصول على المعلومات عن طريق أقراص الليزر، ويمكن أيضا الاتصال بين الحاسوب في المدرسة والحاسوب بمدرسة أخرى مما يفتح فرص التعلم والتواصل عن بعد بين تلاميذ المدارس عبر مساحات بعيدة.

" وفيما يخص الإذاعة بالحاسوب، فيمكن باستخدام هذه الطريقة أن يتم بث برامج على شبكة الإنترنت INTERNET (شبكة داخلية)، تستقبلها المدارس ويمكن إرسال استفسارات من المدرسة وأمام أعين التلاميذ عن طريق الحاسوب وعبر البريد الإلكتروني (Email)". (سلامة الخميس: 99 ص 149).

إن جميع أشكال الوسائل السمعية البصرية بما في ذلك التلفزيون مبسطة على شكل لفائف أفلام يمكن لأي معلم أو تلميذ أن يستخدمها، وتكون سهلة للاستعمال، والاستفادة منها كبيرة أيضا مثل الكتاب بداخل المكتبة.

وقد تنبأ طوماس إديسون (THOMAS EDISON) بتطور الصور المتحركة بما يلي: " إن المراجع المحتاجة سوف تكون فقط للاستخدام الشخصي للمعلم وسوف تكون الأفلام بمثابة لوحات إرشادية للكتب التي يدرّس منها المعلم، وليس الكتب كمرشد للأفلام، وسوف يتعلم التلاميذ كل شيء من الأفلام من أدنى الصفوف إلى أعلاها، ومن المعتذر اجتتاب الأفلام عمليا باعتبارها طريقة التدريس الوحيدة" (سلامة الخميس: 99، ص 150).

لقد كشفت البحوث والملاحظة الدقيقة أن الطلاب يتعلمون بطرق مختلفة فبعض الطلاب بالقراءة وبعض الآخر بالاستماع، ومعظمهم عن طريق القراءة والاستماع، إن القراءة تحتاج إلى الكتب والمرئيات، وتحتاج تنمية مهارات السمع إلى الوسائل الإعلامية السمعية.

ويمكن القول بأن استخدام وسائل الإعلام في التربية سيحدث ثورة في الميدان ويقوم بتغيير الأساليب الكلاسيكية المعروفة في العملية التعليمية التي تعتمد على المعلم كأحد أهم أقطاب العملية.

إن المفكرين المؤيدين لفكرة استحداث طرق تعليمية تتناسب مع التغيرات العلمية والتكنولوجية التي يعرفها العالم، يقولون بأن المدرسة التقليدية ذات التعليم التقليدي في طرقة ليست مدرسة كل التلاميذ بمعنى أن هذه المدرسة لا تستطيع أن تسائر ما يوجد من اختلافات فيزيولوجية ومعرفية ونفسية للتلاميذ.

إن التعليم بجميع مستوياته هو الآن أمام تغيرات كبيرة وتحولات جذرية في طرق التعليم، وفي أدوار الإدارة المدرسية أيضا وما لا شك فيه أن مدارس المستقبل سوف تعمل على إدخال التعليم المبرمج، وسوف تعمل على استدخال تكنولوجيا الوسائل الإعلامية في العملية التعليمية، وسوف يكون التدريس باستخدام الكمبيوتر، والتلفزيون التعليمي والمسجلات والراديو التعليمي والفيديو كاسيت وشرائط العرض والسينما التعليمية ومحابر ووسائل تعليم اللغات، والمعامل الإلكترونية وغيرها من الوسائل.

إن الكثير من دول العالم الثالث لم تعمل على إدخال تكنولوجيا الوسائل الإعلامية في عملية التعليم بمدارسها منذ بداية ظهورها، وحتى الآن لا تزال تعمل في كثير من الأحيان على سد هذا الفراغ وهذا بحكم مجموعة من العوامل: اقتصادية، ثقافية، سياسية، تربوية وغيرها.

" وفي مقابل هذا فقد بدأ استعمال الإذاعة في التعليم أو ما يطلق عليه اسم الراديو التعليمي " في أوروبا 1936، والتلفزيون التعليمي في نهاية الخمسينات من القرن العشرين، واستعمال المانيتوسكوب والفيديو الحفيف في الثمانينات من نفس القرن في التعليم، والإعلام الآلي في السبعينات بالنسبة للتعليم الثانوي والثمانينات بالنسبة للتعليم الابتدائي (بداية 1982)، وأيضا استخدام الوسائط المتعددة multimedia في التعليم في 1988.

إن إدخال هذه الوسائل التقنية للمؤسسة التعليمية والمدرسة على وجه الخصوص بدءا بالوسائل السمعية ثم السمعية البصرية، ثم وسائل الإعلام الآلي ثم يطلق عليه بالوسائل المتعددة، ثم إدخال هذه الوسائل عبر مراحل مختلفة ومتعاقبة،

وفي كل مرة كان الهدف من هذا هو تغيير وتجديد طرق التدريس methodes d'enseignement، وطرق التعلم methodes d'apprentissage، ومنذ عدة سنوات وبفضل "رقمية المعلومة Numérisation de l'information"، انتقل الحاسوب من آلة حاسبة إلى مبرمج وأحد أطراف عملية الاتصال. (Claude Bertrand). وأصبح يستخدم في العملية التقليدية وتعمل الكثير من الدول على إدخاله إلى مدارسها وأصبح يدخل ضمن مخططات التربية وتخصص له ميزانيات كبيرة من طرف الدولة.

المدارس الابتدائية	1997	1999	2000	2001
عدد أجهزة الحاسوب	35.000	120.000	215.000	/
عدد التلاميذ لكل حاسوب	100	30	25	/
المدارس المتصلة بالإنترنت	1%	25%	30%	50%

جدول يمثل عدد المدارس المتصلة بالشبكة العالمية إنترنت وعدد أجهزة الحاسوب الموجودة في المدارس في فرنسا.

إن هذا الجدول يبرز بشكل واضح من خلال الأرقام التي يحملها مدى الأهمية التي تعطى لوسائل الإعلام والحرص على إدخالها للمؤسسات التعليمية وفي المدارس الغربية، وتم أخذ فرنسا كنموذج لهذا الاهتمام، الذي لم يأت نتيجة للصدفة وإنما بعد إدراك أهمية هذه الوسائل في عملية التعليم وإمكانية الاعتماد عليها لخدمة التلميذ والمساهمة في تنمية معارفه وإدراكاته.

"ولكن الوسائل التكنولوجية هذه والمعتمدة في مجال التربية والتعليم بينت الدراسات بأن إدخالها ليس معناه مباشرة تحقيق عملية التأثير على التعليم، بمعنى لا يوجد تأثير تكنولوجي" بمعزل عن عوامل أخرى، بمعنى آخر فإن العنصر المحدد في نجاح هذه الوسائل وهذه التكنولوجيا في التعليم يتمثل في طريقة إدخال واستعمال هذه الوسائل وهذه التكنولوجيا في التعليم يتمثل في طريقة إدخال واستعمال هذه الوسائل في المسار البيداغوجي داخل مؤسسات التعليم (Rapport us congress

95, office of technology assessment) إن كل محاولات إدخال تكنولوجيا الإعلام في التعليم يجب أن تكون مصحوبة بالأسئلة : ماذا نتعلم؟ كيف نتعلم؟

" إن وسائل الإعلام الحديثة المستخدمة في التعليم إذا استعملت استعمالا صحيحا وكافيا فقد أثبتت البحوث أنها تستطيع أن تقابل كثيرا من حاجتنا سواء من حيث الكيف أو خارجها، وأنها تحدث فرقا واضحا في عائد التعليم، سواء من حيث الكيف أو الكم، ولكن النتائج الجيدة لا تأتي أوتوماتيكيا فهي تعتمد على كيفية استخدام هذه الأدوات في مواجهة المشكلة، لأن النتائج الممتازة لا تأتي إلا عندما تتكامل هذه الأدوات في المجال التعليمي الكبير، بمعنى ألا تكون شيئا كماليا يمكن الاستغناء عنه أو تكون هي لمجرد الإثراء وإنما يجب أن تكون عنصرا أساسيا في كل العملية التربوية.(فتح الباب عبد الحليم سيد : 2000، ص 66).

أسس اختيار الوسائل الإعلامية واستخدامها الوظيفي في التعليم:

تعتمد هذه الوسائل من حيث استخدامها في العملية التعليمية على مجموعة من الأسس يمكن توضيحها فيما يلي:

- يجب أن تعبر الوسيلة المستخدمة عن الموضوع الدراسي المراد نقله إلى التلاميذ وينبغي أن تكون ذات صلة بالموضوع:

- يجب أن ترتبط الوسيلة الإعلامية المستخدمة في التعليم بالهدف أو بالأهداف المحددة والمطلوب تحقيقها من خلال استخدام تلك الوسيلة:

- يجب أن تلائم الوسيلة المستخدمة أعمار الطلبة وخصائصهم من حيث قدراتهم العقلية وخبراتهم السابقة وظروفهم البيئية فعلى سبيل المثال يمكن استخدام وسيلة مصوّرة أو بصرية أحسن من استخدام مجلة أو جريدة مع تلاميذ السنة الأولى في المرحلة الابتدائية لأن قدراتهم يمكن أن تتعامل مع الصور المرئية أحسن من قراءتهم لمحتوى موضوع موجود في جريدة أو جدارية أو لافتة مثلا لأن قدراتهم العقلية في هذه المرحلة لا تسمح لهم بإدراك المواضيع المكتوبة والمركزة.

- كما يجب أن توافق الوسيلة الإعلامية المستخدمة في التعليم طريقة التعليم ذاتها، وأن تكون المعلومات التي تحملها دقيقة وواضحة و خالية من التشويش الدعائي .
- أن تكون حالة الوسيلة الإعلامية جيدة .
- أن تعمل الوسيلة أيضا على جلب اهتمام التلاميذ و الطلبة .
- إذا كانت الوسيلة الإعلامية جهازا على وجه الخصوص ينبغي أن تختار المكان الملائم لوضعه و صيانتة .

- أن تصنيف الوسيلة الإعلامية ضمن ما تحمله شيئا جديدا و معلومات إضافية جديدة، إلى ما ورد في الكتاب المدرسي، ليكتمل شرح الموضوع في الكتاب مع عرض مادة إضافية في هذه الوسائل تساعد بدورها على الاستيعاب للموضوع المدرس .

- أن يحمل المعلم اتجاهات إيجابية نحو هذه الوسائل الإعلامية و أن يكون ماهرا في استخدامها بفعالية و هذا يسهم في نجاحها . (الحيلة ، 2001 ص 237 ، 238)

إن أسس اختيار الوسائل الإعلامية في عملية التعليم يجب أن يكون له قاعدة نظرية تعتمد على ما ورد في محتوى النظريات النفسية و الاجتماعية المتعلقة بالنمو النفسي، الوجداني و المعرفي للتلاميذ عبر مختلف أطوار التعليم .

إن الطفل في مرحلة السن من (7 إلى 14 سنة) يكون من حيث التفكير حسب نظرية جان بياجيه (J.PIAGET) في النمو المعرفي في مرحلة ما قبل العمليات و لهذا يكون محكوما بما يرى و يحس (التغير المنطقي)، كما أن تفكير الطفل يكون في اتجاه واحد و يصعب عليه إدراك العلاقات بين الأشياء (WALLACE ، CHILD ، 1978) .

إن استخدام الوسائل السمعية و السمعية البصرية في هذه المرحلة يمكن أن يدفع بالطفل التلميذ إلى تنمية تفكيره و يتعلم عن طريق السمع و المشاهدة الربط بين المتغيرات و هنا يعتبر هذا أحد الأساليب في تنمية ملكة الذكاء، بالإضافة إلى الألعاب التي توجد في بعض الوسائل الإعلامية فإن الطفل عندما يقبل عليها يمكن أن تنمى

فيه الجوانب الوجدانية الشعورية، و يشعر أيضا بالارتياح مما يسمح له بتجديد طاقاته نحو التعلم.

ودور المعلم في هذه المرحلة هو أن يوفر للطفل أنشطة ووسائل تنمي الأنواع المختلفة من السمع و ينمي هذه القدرة (SEEFELDT , 1980) (هدى محمود الناشف ، 1999 ص 112 . 113).

الظروف الضرورية لنجاح استخدام وسائل الإعلام في التعليم :

و فيما يخص الظروف الضرورية لإنجاح عملية استخدام و سائل الإعلام في المدرسة فإنه يمكن إيجازها في العناصر الآتية :

1. جدية العمل من طرف المعلم و القائمين على العملية عامة .
2. إيمان المستخدم بفعالية هذه الوسائل في العملية التعليمية مما يزيد من قدرته و فعاليته على استخدامها .
3. أن يدرك المعلم كيفية استخدام هذه الوسائل من حيث التقنية و من حيث شرح المحتوى الذي تتضمنه .
4. تقرير أولويات الأهداف التربوية .
5. ضرورة خضوع استخدام هذه الوسائل لتخطيط مسبق يدخل في إطار إستراتيجية علمية .
6. تعيين الطرق المختلفة البديلة التي يمكن أن تؤدي إلى تحقيق هذه الأهداف .
7. فحص خطة الاستعمال عدة مرات للتعرف على إمكانية تنفيذها .
8. أن يكون هناك اتصال مباشر بين المدرسين، المديرين، و المخططين .
9. يجب اختيار الوقت المناسب لاستخدامها لأن عنصر وقت الاستخدام يمكن أن يكون عنصرا هاما في إستراتيجية استخدام و سائل الإعلام في التعليم، فهناك بعض الإعلاميين ممن يصنفون هذه الوسائل إلى حية وميتة مثل ولبار شرام (WELBER SCHRAMM) .

إن هذه الظروف الواجب توفرها من أجل إنجاح العملية التعليمية من خلال الاستخدام العقلي و العلمي لوسائل الإعلام تساعد المعلمين في مهامهم و ذلك من خلال ما " يراه عالم التربية باستالوزي (PASTALOZY) (1746 ـ 1837) حيث يرى بأن زيادة قدرة المتعلمين ، ودافعتهم أيضا نحو التعليم أهم من إعطاء المعرفة ، و بالتالي فإن مهمة المدرسين في نظره ليست في تزويد المتعلمين بالمعارف و لكن مهمته هي مساعدته على تنمية قواه ، و ملكاته العقلية و قدرته على اكتساب المعرفة بنفسه ، و إشارة اهتمام التلميذ ، و هذا في نظره هو جعل العملية التعليمية تسير حسب النظام الذي يسير فيه النمو العقلي للطفل " .(عمر محمد التومي ، 1971 ، ص 218) .

إن هذه المحاور التي ذكرها باستالوزي (PASTALODZY) . يمكن أن تساهم فيها و سائل الإعلام بشروط الاستخدام الجيد لها مع مراعاة ظروف و خصائص و قدرات التلاميذ ، و هي قادرة على تفعيل اهتمامهم بالمواضيع المدروسة و المساعدة على تنمية قدراتهم المعرفية .

- تقديم التوجيه التعليمي لعملية الاكتساب .

- تنشيط عملية الاحتفاظ .

- تعزيز عملية انتقال التعلم .

- استشارة الأداء العلمي .

- التزويد بالتغذية الراجعة FEED BACK (يوسف قطامي : 2001 ، ص 73) .

و بالنظر إلى هذه الخطوات الموضوعية من طرف جانیه GAGNE فإن و سائل الإعلام عندما تستخدم في التعليم تكون محفزة و مثيرة للدافعية بحكم الخصائص و المميزات التي تحتوي عليها كالمؤثرات الصوتية و الصورة و استخدام الألوان فيما يخص الوسائل السمعية البصرية خاصة ، كما يمكن أن تعمل على توجيه الانتباه

للموضوع المدروس، و تزيد بهذا من قدرة التلاميذ على المتابعة و الاستمرار في عملية تلقي المعلومات بالابتعاد عن الملل و الروتين.

و تكمن أهمية وسائل الإعلام أيضا في العملية التعليمية من خلال العناصر التالية :

- تقوي هذه الوسائل الإعلامية التعليمية العلاقة بين المعلم و المتعلم و يمكن اعتبارها حلقة وصل بينهما، و هذا ما يزيد من حجم الدافعية للتعليم من طرف التلاميذ، و دافعية المعلم الذي يستعين بهذه الوسائل في إنجاز مهامه .
- توسع هذه الوسائل مجال الخبرات التي يمر بها المتعلم .
- تساهم هذه الوسائل في تكوين اتجاهات مرغوب فيها .
- تشجع الوسائل الإعلامية التلاميذ على المشاركة و التفاعل مع المواقف المختلفة داخل الأقسام و قاعات العرض في المدارس .
- تجعل و سائل الإعلام المستخدمة في التعليم أكثر فاعلية للخبرات التعليمية، و أقل احتمالا للنسيان، و أن أثرها على التلميذ يبقى أطول فترة ممكنة .
- تنتج هذه الوسائل فرصة للتنوع و التجديد المرغوب فيه، و بالتالي تساهم في علاج مشكلة الفروق الفردية، و أثبت التجارب بأن التعلم بهذه الوسائل يوفر من الوقت و الجهد على المتعلم ما مقداره (38-40 %) (محمد محمود الحيلة، 1999، ص 224) .

تساؤلات يجب أن يطرحها المعلم الذي يستخدم و سائل الإعلام في العملية التعليمية :

و ضع الباحث محمود الحيلة مجموعة من التساؤلات و ذكر بأن المعلم الذي يستخدم وسائل الإعلام في عملية التعليم عليه أن يعرف هذه الأسئلة و يطرحها حتى تكون العملية التعليمية مجدية للتلاميذ أثناء استخدامها ورتب هذه الأسئلة على النحو التالي :

- هل أضافت الوسيلة الإعلامية شيئاً جديداً للمادة التعليمية الواردة في الكتاب المدرسي ؟.

- ما هي الجوانب الإيجابية والسلبية في الوسيلة الإعلامية ؟
- ما هي المشكلات و التساؤلات التي أثارها الوسيلة الإعلامية لدى التلاميذ أثناء استخدامها.

- هل للوسيلة الإعلامية المستخدمة أثار في ميول المتعلمين واتجاهاتهم ومهاراتهم؟

- هل يستطيع المعلم أن يقوم بالتعليم دون استخدام الوسيلة الإعلامية؟
- هل ساعدت الوسيلة على تحقيق الأهداف الأدائية للدرس؟
- هل الوسيلة الإعلامية مناسبة لمستوى التلاميذ وخصائصهم؟
- هل تراعي الوسيلة في الوقت المناسب ؟
- هل تراعي الوسيلة الفروق الفردية بين المتعلمين ؟
- هل أثارت الوسيلة دافعية لدى المتعلمين وشوقهم لتعلم المادة التعليمية ؟

نماذج من وسائل الإعلام المستخدمة في العملية التعليمية:

دور الوسائل السمعية البصرية في التعليم :

يرى علماء النفس بأن التعلم المبني على خبرات حسية هو التعلم المثمر ، وقد يتطلب الطريق الموصول إلى الخبرات الحسية أن يمر التلميذ في خبرات مباشرة واقعية وأن يحتك بظواهر الحياة.

ولكن هناك موضوعات يصعب للمدرس إيصال الفكرة إلى التلميذ كدراسة بعض الحيوانات النادرة أو المتوحشة ، فهنا يقوم المدرس باستخدام الأفلام السينمائية لدراسة شريط وثائقي عن هذه الحيوانات أو إذاعة تعليمية ، و هذه الوسائل الإعلامية تساعد و تسهل عملية التعليم و التعلم ، و يظهر دور هذه الوسائل في بعض المظاهر وهي :

1 - الإدراك الحسي : و معنى هذا أن مدلول العبارة في موضوع ما يجب أن تناسب الصورة المبرجة في الفيلم ، فالخيال يجب أن يطابق الواقع في هذه الحالة.

2 - الفهم : أي أن المدرس يستخدم الوسائل السمعية البصرية في عملية التعليم بهدف إيصال الفكرة المراد تعليمها ، و يقوم بإفهامها و إقنعا للتلاميذ الذين يستخدمون حواسهم خاصة السمع و البصر لإدراك ما يدور في ذلك الموضوع ، و بالتالي يفهمون دور الفيلم الذي تم عرضه .

3 - المهارات : لتعلم المهارات مجموعة من الشروط منها أن يتركز الانتباه باستمرار على الهدف المراد بلوغه ويمكن تحقيق المهارات باستخدام وسائل الإعلام في التعليم ، و ذلك لأنها تستحوذ على الانتباه ، ففي حالة تعلم مهارة السباحة مثلا يمكن استعمال صور متحركة بطيئة العرض ليسهل على التلميذ تتبع خطوات المهارة.

4 - الاتجاهات : يعنى التعليم بتكوين اتجاهات مرغوب فيها ، فمن الصعب تعلم اتجاهات مرغوب فيها عن طريق الجانب اللفظي فقط ، و لقد تنبه خبراء الإعلام و علم النفس الاجتماعي بدور و سائل الإعلام في تكوين الاتجاهات أو ترسيخها أو تعديلها أيضا ، و لهذا طالبوا بإدخالها إلى المدارس لتكوين اتجاهات إيجابية لدى التلاميذ . " و ذلك عن طريق المشاهدة عبر عروض و صور متحركة و روايات إذاعية و غيرها من الوسائل " (إبراهيم مطاوع : 1986 ، ص 113) .

و يمكن إيجاز وسائل الإعلام المختلفة المستخدمة في التعليم فيما يلي :

1 - التعليم عن طريق السينما : تنبأ مخترعو الأفلام السينمائية بقيمتها الكبيرة في المجال التعليمي و كان استعمالها في البداية مقصورا على الناحية الترفيهية ، و ظل استعمال الأفلام على هذا النحو ، حتى بروز الاختراعات في ميدان السينما التعليمية مما جعل رجال التربية يهتمون بالأفلام المتحركة كوسيلة تعليمية ضمن الوسائل الأخرى .

وهناك الأفلام الثقافية و هي أفلام سينمائية تتضمن موضوعات عامة و تهتم الجميع و من أمثلتها : مناظر الطبيعة في بلدان مختلفة من العالم ، و الحياة في البحار و

المحيطات، و الاختراعات الحديثة، و الأمراض المختلفة و طرق الوقاية منها، و الظواهر الاجتماعية و غيرها إن استخدام الفيلم السينمائي التعليمي يجب أن يمر على مرحلة التقويم على ضوء الأهداف التي يستخدم الفيلم لتحقيقها .

2 - استخدام الإذاعة في عملية التعليم : يشترط للبرنامج الإذاعي لكي يكون تعليميا أو مدرسيا أن يرتبط ارتباطا و ثيقا بمناهج التعليم المقررة في المدارس، و كذلك يجب أن يناسب تلاميذ المدارس من حيث خصائصهم المعرفية و النفسية، كما يجب أن تنال البرامج الإذاعية عناية خاصة من المدرسين بتهيئة التلاميذ لاستقبال البرامج، و لمتابعة دراستهم بالاستماع إلى هذه البرامج، و عملت كثير من الدول على إقامة إذاعة مركزية للبرامج التعليم فيما يسمى " التلفزيون التعليمي " و يعتبر التلفزيون من أهم و سائل الإعلام لاستخدامه الصورة و الصوت و الحركة و الألوان، و يمكن للتلفزيون كوسيلة تعليمية أن يوفر الخبرات المباشرة و غير المباشرة، و يقرب المسافات للتلميذ، و يسمح له برؤية و فهم أشياء بعيدة عنه، و يجعلها أمامه يتيح له الفرصة لفهمها " و قد أجمع علماء النفس على أن التعليم يعتبر تغييرا في السلوك للمتعلم نتيجة تعرضه لمثير أو لمجموعة من المثيرات، و أن و سائل الإعلام و أبرزها التلفزيون تغير السلوك أيضا " . (ALESCO,1992, P 73).

إن الاعتماد على حاسني السمع و البصر يؤدي إلى سرعة استيعاب الرسالة الإعلامية و ثبت مضمونها، حيث يشاهد الأطفال البرامج الخاصة بهم لتنمية قدراتهم المعرفية، لقد تم الإعلان بأن التلفزيون التعليمي أداة جيدة، و في الدول المتطورة يتم إيفاق ملايين الدولارات سنويا لعمل برامج أفضل، و لتحسين الأجهزة، و لتدريب معلمي الفصول و معلمي التلفزيون، إن التلفزيون التعليمي يستخدم في جميع مستويات التعليم و بصفة خاصة في المدارس الثانوية و الكليات و الجامعات، و يتميز التلفزيون عن السينما بصغر حجمه، و لذا يمكن التحكم فيه و نقله من مكان إلى آخر داخل حجرة الدراسة، و يمكن استخدامه في تدريب أعداد كبيرة من التلاميذ.

يعتبر الكمبيوتر أحد أهم مؤشرات الثورة التكنولوجية الحديثة و أحد سمات المجتمعات المتقدمة ، و تولي الكثير من الدول أهمية كبيرة لهذه التكنولوجيا و تعمل على إدخالها في كل مؤسسات التعليم، وبدأ استخدام الكمبيوتر في التعليم في الولايات المتحدة في الستينيات من القرن العشرين واعتمدت عليه جامعة فلوريدا في عملية تدريس مقررات في الفيزياء والإحصاء، ثم استخدمه ريشارد أتكينسون (R. ATKINSON) في تعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب، وفي التعليم المفيد " فتح الباب عبد الحليم سيد : 1995 ، ص 17).

فالكمبيوتر يتيح فرص التفاعل بين المعلم والمتعلم ويعطي موضوع التعلم تميزا عن باقي الأدوات التعليمية الأخرى، ويمد التلاميذ بخبرات عقلية وشخصية.

ويقوم التعليم باستخدام الكمبيوتر على نظرية بياجيه (Piaget) في التفكير حيث يستخدم لتجسيد كثير من المواقف المجردة التي يقابلها المتعلم في حجرة الدراسة، والتي تحتاج إلى تنمية ما يسمى "بالتفكير البنائي" الذي يقوم على تجزئة المشكلة إلى أجزاء فرعية صغيرة ثم حلها لتصل في النهاية إلى حل المشكلة الأصلية (عبد الحليم سيد : 1995 ، ص 98).

"ويستخدم الكمبيوتر أيضا في تحسين العملية التقليدية، وفي تقديم التمارين والتدريبات وفي تدريس اللغة، وفي العلوم، وبالإضافة إلى استخدامه في الإدارة التعليمية لحفظ التقارير ومعالجة الدرجات، وعمليات قبول الطلاب". (عبد الحليم سيد : 1995 ، ص 36).

4- الفيديو التعليمي: تتجلى أهمية الفيديو التربوية في نتائج الأبحاث التي أجريت حول وسائل الإعلام المختلفة، ويساعد الفيديو على الجمع بين التعلم والترويح عن النفس، ويساهم في إيضاح معاني المفاهيم المجردة، كما يستعمل جهاز الفيديو في المدارس كوسيلة للتعليم المستمر ومن خلال استخدام هذه الوسيلة للصوت

والصورة فإنه يعمل مثل الوسائل السمعية البصرية الأخرى على جلب انتباه التلاميذ إلى موضوع الدرس ، وبعث الدافعية للتعليم لديهم.

كما يستخدم الفيديو أيضا في التغلب على مشكلات الاكتضاض داخل القاعات المخصصة للدراسة فهو بهذا يساعد المعلمين في أداء مهامهم التعليمية.

الخاتمة :

إن استخدام وسائل الإعلام في عملية التعليم ليس معناه الإستغناء على دور المعلم في هذه العملية وإنما لتكون هذه الوسائل عبارة معينات تعليمية تدعم عمل المعلم وتسهل عليه المهمة التعليمية.

كما أن هذه الوسائل الإعلامية وحدها لا تكفي بل يجب أن يخضع استخدامها لإستراتيجية علمية دقيقة ومدرسة ، حتى لا يتميز استخدامها بالعشوائية فتكون النتائج التعليمية سلبية.

وبالنظر إلى أهمية هذه الوسائل في عملية التعليم عبر مختلف الأطوار فإننا نناشد الهيئات الرسمية على العمل لإدخالها إلى المؤسسات التعليمية بغرض تحديث التعليم وإخراجه من دائرة التلقين والنمطية واعتماده على الوسائل التقليدية فقط كالسبورة والطبشور والكتاب المدرسي التي أصبحت لا تكفي لوحدها لتحقيق تعلم ناجح وفعال.

المراجع :

قائمة المراجع باللغة العربية :

1. إبراهيم مطاوع: الوسائل التعليمية، ط2، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1998.
2. أحمد بدر: الاتصال الجماهيري بين الإعلام والتطويع والتنمية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 1998.
3. هدى محمود الناشف: إستراتيجيات التعلم والتعليم في الطفولة المبكرة، القاهرة، مصر، 1998.
4. يوسف قطامي، نافية قطامي وماجدة أبو جابر: تصميم التدريس، ط1 ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2001.

5. محمد محمود الحيلة: تصميم وإنتاج الوسائل التعليمية، التعليمية، ط1، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة والطباعة، عمان، الأردن، 2000.
 6. محمد محمود الحيلة: التصميم التعليمي نظرية وممارسة، ط1، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان، الأردن، 1999.
 7. محمد محمود الحيلة: أساسيات تصميم وإنتاج الوسائل التعليمية، ط1، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، عمان الأردن، 2001.
 8. سيد سلامة الخميسي: قراءات في الإدارة المدرسية أسسها النظرية وتطبيقاتها الميدانية والعلمية، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، 2001.
 9. فتح باب عبد الحليم سيد: الكمبيوتر في التعليم، عالم الكتب، القاهرة، 1995.
 10. فضيل دليو وآخرون: التحديات المعاصرة: العولمة، الإنترنت، الفقر، اللغة، (فعاليات اليوم الوطني الأول لمخبر علم اجتماع الإتصال)، جامعة منتوري، قسنطينة، 2002.
- قائمة المراجع باللغة الإنجليزية:

01- Rapport U.S Congress, office of technology assessment, 1995.

بعض الرؤى المستقبلية لعلم النفس الرياضي في الميدان التربوي ورياضة المنافسة

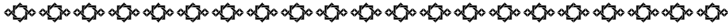
إعداد

د. عبد العزيز دادي

قسم التربية البدنية والرياضية
جامعة الإخوة منتوري بقسنطينة. الجزائر

د. الطاهر سعد الله

أستاذ محاضر بقسم علم النفس وعلوم التربية
والأرطوفونيا. جامعة الوادي. الجزائر



المخلص

يواجه الباحثون في مجال علم النفس الرياضي عدة صعوبات، تتعلق أولا بإشكالية تحديد بعض المفاهيم الخاصة، والتي لها علاقة بمجالات البحث، إضافة إلى كيفية إخضاع هذه المفاهيم النظرية إلى التطبيق العملي، وذلك بالنظر إلى التطور الكبير الذي أحرزته نظريات علم النفس الرياضي وعلاقتها بالمجال الرياضي بصفة خاصة .
كما يهدف البحث الحالي إلى التمرس إلى بعض المشاكل المنهجية التي تواجه الباحثين في هذا المجال، من أهمها: معالجة الفرضيات، ضبط المتغيرات، واختيار العينات الملائمة، ، ، .

و من جهة أخرى أمكن من خلال استقراء نتائج العديد من الاستعراضات النظرية، والبحوث السابقة، واستطلاع آراء بعض الخبراء في مجال علم النفس الرياضي - أمكن التوصل - إلى مجموعة من القضايا (الموضوعات) تعد بمثابة توجهات يسترشد بها في تطوير خطط البحوث العلمية والندوات والمقتنيات ستكون موضوع هذه الورقة الأساسي.

Abstract:

A researcher confronts many difficulties in the field of sports` psychology. First, the problematic of specifying some special concepts which has a relation with the different fields of research, besides, how to apply these theatrical concepts to practice, and this will happen by focusing on the great development of the theories of the sports` psychology and its relation with the field of sport in a specific way.

This actual research aimed to study some of these methodological problems which confront researchers in this field,

The most important of these problems is: treats the hypothesis, then controlling the variables and last, selecting the appropriate samples...

From other side the indications of show theoretical and authority search, scouting view some expert of sports` psychology field; a researcher aggregation from futurism subject...

النشاط البدني أو الحركي للإنسان من الظواهر النفسية، الاجتماعية، الثقافية المرتبطة به منذ خلقه، وان تعددت أشكاله واختلفت أهدافه. فكلما تعقدت المجتمعات ونمت وتطورت زادت الحاجة إلى ظهور أنظمة جديدة أكثر تخصصا في مواجهة المتطلبات والحاجات النفسية والاجتماعية...وهو ما دعا إلى ظهور نظام التربية البدنية والرياضية⁽¹⁾ من أجل أهداف بدنية، نفسية - اجتماعية...أصبحت ملحة في ظروف الحياة العصرية.

هذا النظام الجديد بما يحويه من نشاطات جديدة مختلفة كالترفيه، النشاط البدني الرياضي، رياضة المنافسة،،، يعتمد على القدرات والقابليات والإمكانات البدنية والحركية التي تنتج من توظيف جيد لكل معطيات الجسم الإنساني بشكل أساسي، هو بحاجة إلى تداخل للعديد من العلوم الأخرى، حيث يعرف (Boeche) التربية البدنية والرياضية ويوضح ارتباطها وحاجتها إلى علوم أخرى بقوله: « كبيداغوجية بسيطة هي السلوك الحركي بالاعتماد على تأثير كل معطيات العلوم الحالية، البيولوجيا، علم الوراثة، علم وظائف الأعضاء الداخلية، علم النفس، التحليل النفسي،،، هي بذلك متأثرة بأبعاد الشخصية الوجدانية، العاطفية، الوجدانية، القدرة الإبداعية الفردية »⁽²⁾.

كما يرى (راتب) التداخل بين الرياضة كأحد أشكال التربية البدنية الرياضية وبقية العلوم الأخرى العلمية منها أو الاجتماعية أو النفسية، كسلسلة مترابطة محددة، تزيدها الرياضة ترابطا ومتانة، يحتل علم النفس مكانة أساسية تستند إليها الرياضة.⁽³⁾

لذا، أصبحت الحاجة ملحة إلى علم يأخذ من السلوك الرياضي والمشاكل التي تواجه ممارسي الأنشطة البدنية الرياضية كمجال للدراسة والبحث،

وحقيقة إن هذا العلم الذي يسمى "علم النفس الرياضي" منذ نشأته استند على علم النفس العام وفروعه المختلفة، واستقى من نظرياته، حتى أن الأبحاث الأولى المنجزة في تلك الفترة تنظرت من الأطر العامة لعلم النفس.

1. علم النفس الرياضي المفاهيم، التطبيقات :

يعرف علم النفس الرياضي بأنه « العلم الذي يدرس سلوك الإنسان في الرياضة »⁽⁴⁾، كما يرى (علاوي) أنه « الدراسة العلمية للسلوك والخبرة والعمليات العقلية المرتبطة بالرياضة على مختلف مجالاتها ومستوياتها وممارساتها، بهدف وصفها وتفسيرها والتنبؤ بها والتحكم فيها للإفادة من المعارف والمعلومات المكتسبة في التطبيق العملي »⁽⁵⁾، بهدف الارتقاء بمستوى الأداء الرياضي لأعلى المستويات.

والحقيقة، انه ينظر إلى علم النفس الرياضي كأحد المجالات الأكاديمية على انه حديث النشأة، وانه مازال في مرحلة النمو، وتعود الإرهاصات الأولى لنشأته إلى مقالة نشرها (Coubertin) سنة 1900 بعنوان « علم نفس الرياضة »⁽⁶⁾ تميزت بطابع فلسفي، ويرجع الفضل إلى « نورمان تربليت »⁽⁷⁾ في إجراء أول بحث رياضي، كما يعتبر « كولمان جريفت »⁽⁸⁾ الذي يطلق عليه المؤسس الأول لعلم النفس الرياضي في أمريكا، أول من أسس مخبرا لعلم النفس الرياضي في جامعة «الينويز» سنة 1925، وقد قام بدراسة بعض المواضيع التي تتعلق بالمجال الرياضي النفسي كالمهارات النفس- حركية، التعلم الحركي، العلاقة بين الشخصية والأداء الحركي.

وبعد الحرب العالمية الأولى، أدرجت بعض الجامعات الأمريكية علم النفس الرياضي ضمن برامجها التكوينية في إطار معرفي يقتصر على مواضيع التعلم الحركي، وقد شهدت فترة الستينيات بداية العديد من الأعمال والدراسات، وتأسيس المنظمات المهنية المتخصصة في علم النفس الرياضي،

مما ساعد على استقلالية هذا العلم، وتمييزه، وتفرد، وتخصصه، من أهم تلك الدراسات يذكر (راتب) بحوث (اوجيفيلي) و(تيتكو) سنة 1966 التي نشرت في كتابهما " مشكلات الرياضيين وكيفية التعامل معها " ⁽⁹⁾، إضافة إلى بحوثهما على الشخصية والدافعية، غير أن أعمالهما لم تحظ بالاهتمام وبالتقدير إلا بعد فترة كبيرة.

أما فيما يخص المنظمات والهيئات الرسمية، فقد تأسست الجمعية الدولية لعلم النفس الرياضي سنة 1965، بالإضافة إلى تشكيل «جمعية شمال أمريكا لعلم النفس الرياضي والنشاط البدني» سنة 1967، أما فترة السبعينيات فقد شهدت تكوين «أكاديمية علم النفس الرياضي» في الولايات المتحدة الأمريكية كفرع للجمعية الدولية للرياضة والتربية البدنية.

وفي الوقت الحالي، أصبحت مادة علم النفس الرياضي من المواضيع الهامة التي تدرس في برامج إعداد المدرسين والمربين الرياضيين وأساتذة التربية البدنية والرياضية، مما وجه بعض طلبة الدراسات العليا في التربية البدنية والرياضية إلى اختيار مواضيع بحوثهم في مجال علم النفس الرياضي.

2- البحث في ميدان علم النفس الرياضي صعوبات ومشاكل منهجية:

اختلفت اهتمامات الباحثين في ميدان علم النفس الرياضي باختلاف اتجاهات التنظير ⁽¹⁰⁾، مما فرض نوعا من عدم الاتفاق على إتباع الأسس المنهجية السليمة، بالرغم من إن ضرورة اتفاق النتائج العلمية للدراسات المنجزة أصبح أمرا ملحا، وهذا لا يتأتى إلا بإتباع منهجية صحيحة تستند إلى الدقة والموضوعية والمعالجة الإحصائية المناسبة.

وفي هذا السياق، طرح (محمود عبد الفتاح عنان) ⁽¹¹⁾ بعض المشاكل المنهجية التي تواجه الباحثين عي ميدان علم النفس الرياضي على ضوء

مناقشات (Cox, 1994) وبناء على استعراضات (Carron, 1980) ، (Morgen, 1972) (Morgen . 1980) , (Martens, 1976) , (Martens, 1975), لمشكلات البحث في مجال الشخصية الرياضية ، والتي يشير إليها (كوكس) إلى أن هذه المشكلات يمكن تعميمها على موضوعات علم النفس الرياضي بصورة عامة، وتتمثل أهمها فيما يلي :

1. مشكلة البحث النظري
2. مشكلة الفرضيات وصياغتها
3. مشكلة المتغيرات المستقلة
4. المتغيرات التابعة
5. اختيار العينة
6. الفشل في استخدام نموذج التفاعل
7. الفشل في استخدام المنهج المتعدد في تحليل البيانات
8. العلاقة بين السبب والأثر
9. الفشل في تعليل أخطاء الاستجابة .

3- عوامل تأخر البحث النفسي في التربية البدنية والرياضية :

يمكن الإشارة إلى بعض العوامل التي أخرت إجراء الأبحاث والدراسات النفسية في مجال التربية البدنية والرياضية عموماً ومجال الرياضة بصفة خاصة ، من أهمها الاعتقاد الذي كان سائداً بين المدرسين والإداريين في الفرق الرياضية وحتى المدرسين لمادة التربية البدنية والرياضية أنفسهم، من مسلمات مفادها أن البحث النفسي في هذا المجال غير مجدي ولا يقدم إسهامات تطبيقية للارتقاء بالأداء الرياضي لأعلى المستويات ، كما ظل خريجي المعاهد المختصة وأقسام التربية البدنية والرياضية في شك كبير من قدراتهم على إجراء الأبحاث النفسية في الرياضة.

ويعتقد الاجتماعي (هاري ادواردز) انه من ضمن العوامل المساهمة في التأخير « ان خريجي التربية البدنية لم يعدوا جيدا بحيث يتحملون مشاق هذه النوعية من البحوث، كما انهم واجهوا تشكك بعض المتخصصين في العلوم الأخرى حول صعوبة توفير الموضوعية لهذه النوعية من البحوث، ولقد ساعد ذلك على تفشي بعض المفاهيم التي كانت سائدة في ذلك العصر حول الرياضة من انها مجرد لهو وألعاب»⁽¹²⁾.

وبالرغم من تنامي دراسات نفسانيات الرياضة، بالمزيد من البحوث في ميدان علم النفس الرياضي، قوبل هذا المجال بالرفض، في حين تزايد الاهتمام بمجالات أخرى كعلوم الرياضة والتدريب، علم اجتماع الرياضة، ، من قبل هيئات علمية وأكاديمية، خاصة إذا ما كان الحديث عن اعتراف المجال الأصلي (التربية البدنية والرياضية)، فما زال الوضع غير مستقر وغير واضح المعالم، وهذا يسري في اغلب الدول العربية باستثناء دولتي مصر و العراق اللتان عرفا بعض الباحثين في هذا المجال أنتجوا عددا محدودا من الأبحاث.

وعموما، ربما تعود الأسباب الرئيسية التي أدت إلى تأخر البحث في مجال علم النفس الرياضي إلى نقص التأهيل، وبعض القصور في فهم الأبعاد النفسية للرياضة، كما أن الدعم غير متوفر لإجراء هذه البحوث والدراسات من جهة، ومن جهة أخرى أن علم النفس الرياضي لم يقدم إلا اهتماما قليلا فيما يتصل بالموضوعات التطبيقية والتربوية التي تتعلق بالمجال الرياضي، وظل يتراوح مكانه بين النظرية أحيانا والتطبيق أحيانا أخرى.

4. اتجاهات البحث وجهود التنظير في علم النفس الرياضي:

الأزمة التي مرت بها التربية البدنية والرياضية كنظام، والاختلافات الظاهرة في الاصطلاحات، وتحديد الأهداف والغايات، ولم يتوقف هذا

الاختلاف عند هذه الدرجة بل تعدى ذلك إلى صياغة التربية البدنية والرياضية.

وعلى نفس المنوال كذلك، اختلف المنظرين في علم النفس الرياضي، كمجال يدرس سلوك الفرد الرياضي، فقد انعكست الإيديولوجيات المتباينة على اتجاهات البحث وجهود التنظير، حيث يشير (Erbach) « إلى أن الباحثين في شرق أوروبا يركزون على التطبيق، بينما في غربها يركزون على التحليلات النظرية »⁽¹³⁾

والحقيقة، أن علم النفس الرياضي قبل أن يستقل بذاته قد استمد الباحثون في مجالاته منطلقاتهم النظرية من علم النفس العام، ومن فروعهِ المختلفة الأكثر ارتباطاً بالنشاط البدني الرياضي. فاستند على نظريات « كاتل، جيلفورد، ايزنك »⁽¹⁴⁾ عند دراسة الشخصية مثلاً، وهو أمر ضروري مادامت تحقق الدراسات أوجه السلوك المختلفة بما فيها السلوك الرياضي، ونأمل في تطور الدراسات النظرية لعلم النفس الرياضي من خلال وضع أطر أساسية توجهه، وتدعم استقلالته، وتخصصه، وتمييزه.

أما في مجال البحث، تمحورت أغلب الدراسات في علم نفس الرياضة والنشاط البدني الرياضي حول اتجاهين أساسيين هما: ⁽¹⁵⁾

- كيفية تأثير العوامل النفسية على الأداء البدني الفردي.
- فهم كيفية تأثير المشاركة الرياضية على التطور النفسي والصحة.

والحقيقة، أن اهتمامات القائمين بمجال علم النفس الرياضي أثناء نشأته ركزت حول الكيفية المتبادلة بين الشروط النفسية والنشاط البدني الرياضي، أو بصيغة أخرى، أي هما ذات تأثير على الأخرى؟

ومهما كانت الإجابة على هذا التساؤل، فإن الدراسات النظرية والميدانية هي لوحدها الكفيلة لإيجاد هذا التأثير وتحديد مداه وقيمه وأثره. إذ يشير (مارتيز) على أن الفترة الأخيرة تشهد اتجاهان حديثان لعلماء النفس الرياضي هما: ⁽¹⁶⁾

الاتجاه الأول: علم النفس الرياضي الأكاديمي الذي يركز على جوانب الدراسة والمعرفة، أو التوجهات البحثية لعلم النفس الرياضي.

الاتجاه الثاني: علم النفس الرياضي التطبيقي يركز على الجوانب المهنية أو التطبيقية لهذا العلم.

وانطلاقاً من تركيز علم النفس الرياضي منذ نشأته على الجوانب النظرية في العديد من الدراسات والبحوث، وفي نفس الوقت قلة الاهتمام بالجوانب التطبيقية لهذا العلم، مما دفع العديد من الباحثين إلى تكوين « جمعية تطوير علم النفس الرياضي التطبيقي » ⁽¹⁷⁾، ⁽¹⁸⁾، على أساس محاولتهم الاهتمام بالدرجة الأولى بالجوانب التطبيقية لعلم النفس الرياضي.

5 - بعض الرؤى المستقبلية لعلم النفس الرياضي في الميدان التربوي ورياضة المنافسة :

أمكن من خلال استقراء نتائج العديد من الاستعراضات النظرية، والبحوث السابقة، واستطلاع آراء بعض الخبراء في مجال علم النفس الرياضي، وكذلك بعض المدربين والإداريين وأساتذة التربية البدنية والرياضية في المؤسسات التربوية - أمكن التوصل - إلى مجموعة من القضايا (الموضوعات) تعد بمثابة توجهات يسترشد بها في تطوير خطط البحوث العلمية والندوات والملتقيات يمكن تلخيصها فيما يلي :

1. في مجال علم نفس الرياضة والإعداد النفسي للناشئين :

من أهم الموضوعات المستقبلية التي تهتم بمجال علم النفس الرياضي، إعداد الناشئين الرياضيين إعدادا نفسيا، وذلك من خلال البحوث والدراسات التي تأخذ هذه الفئة السنية كعينة أساسية لإجراء التجارب عليها، وتشخيص حالاتها النفسية، إضافة إلى إسهامها في تطوير هذا العلم ما يلي:

• الناشئ والمنافسة الرياضية، ضغوط المنافسة، الدافعية، القدرة التنافسية، القيم الأخلاقية، الاتجاهات، تحمل المسؤولية، الاجتماعية....

وفيما يخص مستقبلات هذه البحوث، يرى (راتب) أن « التوجهات تشير إلى أهمية دراسة هذه القضايا الهامة في مجال تأثير المنافسة الرياضية (المشاركة الرياضية المكثفة) على النمو النفسي للنشء من منظورها الإيجابي والسلبى، وعدم الاقتصار على التأثيرات السلبية وحدها أو الإيجابية فقط ».⁽¹⁹⁾

كما يمكن أن نذكر أهم المشاكل التي تواجه الناشئ الرياضي، ظاهرة انسحابه المبكر من الممارسة الرياضية، وهي من اعقد المشاكل التي يعاني منها المدرب الرياضي، لأنها تضع جميع عمليات التعليم والتدريب والتكوين في موضع الجهد المهدور، لذا فمن الضروري توجيه الباحثين لتناول هذه المواضيع البحثية في دراساتهم.

2. في مجال الابتكار الرياضي:

القدرة على التفكير الابتكاري⁽²⁰⁾ تعتبر احد المتغيرات العقلية، ويمكن تعريفها بنظرة شمولية تكاملية على أنها « عملية عقلية تعتمد على مجموعة من القدرات (الطلاقة، الأصالة، المرونة) والسمات الشخصية، والبيئة الميسر للابتكار، ليقدم في نهاية الأمر إنتاج ابتكاري يتميز بالأصالة والجدية ويثير الدهشة، وذات قيمة بالنسبة للآخرين ».⁽²¹⁾

والحقيقة أن موضوع الابتكار جديد نسبياً، حتى أن موضوعه « يحظى باهتمام كبير من قبل علماء النفس والتربية»⁽²²⁾ من القرن العشرين « ودليل ذلك الزيادة المضطردة لعدد البحوث التي تنشر في مختلف بلاد العالم... والخاصة بالقدرة الابتكارية والتفكير والموهبة نجدها متفاوتة فيما بينها على النحو التالي : »⁽²³⁾

- مجموع بحوث الموهبة = 321.
- مجموع بحوث التفكير = 116.
- مجموع بحوث الابتكار = 719.

وهذا دليل كافٍ يبين الاهتمام المتزايد بالابتكار من قبل الباحثين السيكولوجيين والمربين .

وفي علم النفس الرياضي يأخذ موضوع القدرة على التفكير الابتكاري، وكذا الابتكار في المجال الرياضي كأحد المجالات التي يعمل على تطويرها، نظراً لحدائث هذا الموضوع بالذات وقلة الدراسات المنجزة في هذه الفترة، خاصة التي تتعلق بأوجه ممارسة النشاط البدني الرياضي، سواء رياضة الهواء أو التنافسية، ومن بين أهم التوجهات البحثية التطبيقية نورد ما يلي⁽²⁴⁾ :

- بحوث التنشئة الرياضية الأسرية وعلاقته بقدرات الابتكار.
- أساليب الرعاية النفسية والتربوية للمبتكرين في مجال الرياضة.
- العلاقة بين الإنجاز الرياضي وقدرات التفكير الابتكاري.
- دور مدرسي التربية البدنية والرياضية في استثارة وتنمية القدرات الابتكارية للتلاميذ.
- العلاقة بين أساليب وطرق تدريس التربية البدنية والرياضية وتنمية التفكير الابتكاري.
- القدرات الابتكارية لدى حكام الرياضات والألعاب المختلفة.

بالإضافة إلى المجالين السابقين، هناك العديد من الميادين الأخرى التي يمكن أن يتجه إليها الباحثين، تمتاز بالأصالة والحدثة، أصيلة بإسنادها تعتمد على نظريات ومفاهيم علم النفس الرياضي، وحديثة لكونها ظهرت في الآونة الأخيرة من تطور علم النفس الرياضي، ولم تلقى الجهد البحثي الكافي، وحتى البحوث المنجزة في هذه الفترة تحتاج إلى تأكيد لنتائجها، أهم هذه المجالات ما يلي:

- مجال التنظيم العقلي المعرفي: الذكاء، القدرات العقلية، الاستعدادات...
- مجال التنظيم الانفعالي والوجداني: الشخصية⁽²⁵⁾، الميول، الاتجاهات، القيم،
- مجالات أخرى: التدريب العقلي⁽²⁶⁾، التصور الذهني، الانتباه، الاسترخاء، ...

الهوامش :

- 1 - نظام التربية البدنية والرياضية: حدده الأمر الرئاسي رقم 95-09 المؤرخ في 25 رمضان عام 1415 الموافق 25 فبراير سنة 1995، المتعلق بتوجيه المنظومة الوطنية للتربية البدنية والرياضية وتنظيمها وتطويرها.
- 2 -Boeche, (S): Pratique pédagogique: l'EPS a l'école élémentaire, 1982, éd colin bourrelliers.Paris, p12.
- 3 - راتب أسامة كامل: علم نفس الرياضة المفاهيم - التطبيقات، ط2، دار الفكر العربي، مصر، 1997، ص 18.
- 4 - نفسه، ص 17.
- 5-علاوي محمد حسن :علم النفس الرياضي بين النظرية والتطبيق، مجلة الجمعية المصرية لعلم النفس الرياضي، طبع دار(ج.م.س)، مصر، 1999، ص 18.
- 6 -Cratty.(B.J) et Vanek.(M):Psychologie sportive et compétition,1972,éd Universitaires,Paris,p16.
- 7 - راتب أسامة كامل: المرجع السابق، ص 24.
- 8 - نفسه، ص 24.
- 9 - نفسه، ص 25.

- 10 - التنظير :هو إسناد البحث التطبيقي إلى خلفيات نظرية معروفة ، إذ يمكن الإشارة إلى اختلاف العلماء خاصة في مجالات البحث النفسي الرياضي إلى نظريات مختلفة كنظريات التحليل النفسي أو نظريات العوامل المتعددة في دراسة الشخصية مثلاً.
- 11 - محمود عبد الفتاح عنان:المشكلات المنهجية في بحوث علم نفس الرياضة، مجلة الجمعية المصرية لعلم النفس الرياضي، طبع دار(ج.م.س)، مصر، 1999، ص ص 32-27 .
- 12 -انور الخولي أمين : الرياضة والمجتمع، مجلة عالم المعرفة، عدد216، مطابع السياسة، الكويت، 1996، ص 16.
17. نفسه، ص - 13.
- 14 -Richard,(B.A):Manuel de Psychologie du Sport,1986,éd Vigot,p119.
- 15 -Weinberg,(R.S): Psychologie du Sport de L'Activité Physique, 1997,ed Vigot,Paris.
- 16 - راتب أسامه كامل:المرجع السابق، ص 22.
- 17 - علاوي محمد حسن:علم النفس الرياضي، دار المعارف، القاهرة، 1987، ص 41 .
- 18 - راتب أسامه كامل:المرجع السابق، ص 28.
- 19 - راتب أسامه كامل:المنافسة الرياضية والنمو النفسي للناشئ الرياضي، مجلة الجمعية المصرية لعلم النفس الرياضي، طبع دار(ج.م.س)، مصر، 1999، ص 27.
- 20 -لم تشهد الساحة العلمية الوطنية إلا القلة من الدراسات والبحوث التي تأخذ القدرات الابتكارية موضوعاً لها، من بينها بحث سعد الله الطاهر المقدم للحصول على شهادة الماجستير في التربية وعلم النفس من جامعة الجزائر، أما في ميدان علم النفس الرياضي لا زال هذا الموضوع لم يحظ بالدراسة والبحث في بلادنا.
- 21 - عبد ربه خليفة إبراهيم:سيكولوجية الابتكار في المجال الرياضي، مجلة الجمعية المصرية لعلم النفس الرياضي، طبع دار(ج.م.س)، مصر، 1999، ص 41.
- 22 - سعد الله الطاهر، علاقة القدرة على التفكير ألابتكاري بالتحصيل الدراسي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط1991، ص 08.
- 23 - نفسه، ص 08.
- 24 - عبد ربه خليفة إبراهيم:سيكولوجية الابتكار في المجال الرياضي، 1999، ص 43.
- 25 - قام الباحث بدراسة في هذا المجال للحصول على شهادة الماجستير في نظرية ومنهجية التربية البدنية والرياضية من جامعة الجزائر، سنة 1998، بعنوان "سمات الشخصية وعلاقتها بالقدرة على الأداء المهاري في الرياضات الجماعية"
- 26 - في موضوع التدريب العقلي، شارك الباحث في الملتقى الدولي حول "علوم الرياضة والصحة" في افريل 2001 بالجزائر، بمدخله بعنوان "اقتراح برنامج للتدريب العقلي لتحسين مستوى أداء رمية 7 أمتار في كرة اليد "

قياس التغير الهيكلي في الاقتصاد الجزائري

بقلم

د. مبارك بلالطة

نائب رئيس جامعة الجزائر للتنمية والاستشراف



المخلص

حاولنا من خلال هذا المقال التطرق إلى كيفية قياس التغير الهيكلي في الاقتصاد الجزائري عن طريق جدول المدخلات - المخرجات لسنتي 1979 و 1989 باعتبارهما آخر جدولين نشرتهما مديرية الحسابات الاقتصادية بالدويان الوطني للإحصائيات. تناولنا في محور أول الأسس النظرية للتغير الهيكلي، أشرنا بهذا الصدد أنه لا يوجد تعريف متفق عليه فيما يخص التغير الهيكلي، مبينين أن تحليلنا للتغير يعني التغير الحاصل في المعاملات الفنية والطلب النهائي، كما أشرنا إلى طرق القياس التي اعتمدنا عليها والمتمثلة في طريقة الاستهلاك الوسيط وطريقة التحليل الهيكلي وطريقة إدراج الصادرات والواردات ثم قمنا بإسقاطها على الاقتصاد الجزائري. حيث تراءى لنا من خلال النتائج المتوصل إليها أن الطريقة الثالثة أكثر تفصيلا من الطريقتين السابقتين، إذ أنها ترجع التغير الكلي في الإنتاج إلى تغير خمسة عوامل هي الطلب النهائي، الصادرات، الواردات الموجهة إلى الاستهلاك الوسيط، الواردات الموجهة للاستهلاك النهائي، والمعاملات الفنية للإنتاج.

: Résumé

A travers cet article , nous avons essayé d'aborder la méthode de la mesure du changement structurel de l'économie algérienne et ce à partir du tableau input-output des années 1979- 1989, en les concernant comme les derniers tableaux publiés par la direction économique des comptes à l'office national des statistiques.

Dans le premier axe, nous avons parlé des principes théoriques du changement structurel ,et nous avons mentionné à cet égard qu'il n y a pas une définition qui montre que notre analyse du changement structurel implique le changement dans les coefficients techniques et la demande finale .

Comme nous avons abordé dans un deuxième axe les méthodes de mesure que nous avons utilisées et qui sont , la méthode de la consommation moyenne , la méthode de l'analyse structurelle et la méthode de l'établissement des importation , exportations.

Après, nous les avons élaborées dans l'économie algérienne , comme nous avons vu d'après les résultats que la troisième méthode est plus détaillée que les deux précédentes , et que le changement général de la production revient au changement de cinq facteurs : la demande finale , exportations, importations destinées vers la consommation intermédiaire, les importations destinées vers la consommation finale et les coefficients technique de la production

مقدمة

إن مشكلة الارتباطات المتبادلة في الاقتصاد مر بعدد من الحلقات قبل ظهور تقنية المدخلات - المخرجات، وتعود أول محاولة لمعالجة هذه المشكلة الاقتصادية للفرنسي فانسوا كيناي في القرن الثامن عشر، وذلك من خلال الجدول الاقتصادي المعروف، إذ حاول تبيان كيفية حدوث حركة انتقال السلع والنقود بين القطاعات، فأبرز دور الجدول الاقتصادي باعتبار الإنتاج الفلاحي أساس توليد الدخل في المجتمع. ثم جاء ماركس بمخطط خاص بعملية إعادة الإنتاج حيث بسط التشابك بين القطاعات على أساس تجميعها إلى قطاعين فقط، ولم يرق جدول المخلات - المخرجات إلى شكله المعروف إلا على يد الاقتصادي السوفياتي المشهور فاسيلي ليونتييف في كتابه هيكل الاقتصاد الأمريكي عام 1942 ولا يزال هذا الجدول يتطور من حين لآخر ويأخذ عدة أشكال وأوجه تبعاً لنشاط وحرية الاقتصاد في أي بلد.

سنحاول معالجة قياس التغير الهيكلي عن طريق الدور الفعال الذي يلعبه جدول المدخلات المخرجات في هذه العملية من خلال مناقشة نقطتين أساسيتين، تتمثل النقطة الأولى في دراسة التغير الهيكلي لفروع الاقتصاد الوطني وطرق قياسه، والنقطة الثانية في تطبيق طرائق القياس على الاقتصاد الجزائري.

1- التغير الهيكلي وطرق القياس:

1-1 تعريف التغير الهيكلي:

من بين الاهتمامات الرئيسية للمحللين الاقتصاديين دراسة و تحليل التغير الهيكلي الذي يعد نتيجة لمسار النمو والتطور الاقتصادي.

لا يوجد تعريف متفق عليه فيما يخص مفهوم التغير الهيكلي، إذ يرى كوزنتس (kuzents)⁽¹⁾ أن التصنيع، التمدن (إضفاء صفة المدينة على منطقة ما)، التغير في توزيع المداخل والتغير الحاصل في مكونات الطلب النهائي، تعتبر تغيرات هيكلية، فهو يعتقد أن التغير الهيكلي مرتبط بتغيير بعض المؤشرات الأساسية في الاقتصاد. أما شنري⁽²⁾ فيرى أن التغير في الهياكل الصناعية والتجارية هي عبارة عن تغيرات هيكلية.

أما ليونتييف⁽³⁾ فيعتقد أن التغير في المعاملات الفنية للإنتاج هو أحد السمات الرئيسية للتغير الهيكلي.

سنعتمد في تحليلنا للتغير الهيكلي على اعتبار أنه يعني التغير الحاصل في المعاملات الفنية، والتغير الحاصل في الطلب النهائي.

في الواقع إن التغير الحاصل في المعاملات الفنية للإنتاج يرجع إلى ثلاثة عوامل رئيسية :

1- تغير الأسعار النسبية لعوامل الإنتاج .

2- التقدم التكنولوجي

3- تغير حجم الطلب.

إن التغير في مستوى الأسعار النسبية لعوامل الإنتاج يجبر المنتجين على تغيير نسبة مزج عوامل الإنتاج، وهذا عن طريق استبدال عوامل الإنتاج الداخلة في المسار الإنتاجي، بعوامل أخرى بديلة تكون أقل ثمنا وهذا لتخفيض كلفة الإنتاج، وهو ما يؤدي إلى ظهور تقنيات جديدة للتوليف بين مستلزمات الإنتاج الأولية، هذه التقنيات تعرف بالتطور التكنولوجي .

في حالة بقاء الأسعار النسبية لعوامل الإنتاج ثابتة، فإن كل تغير في المعاملات الفنية يفسر بأنه تغير هيكلية .

إن ظهور هذه التقنيات الجديدة التي تعني التقدم التكنولوجي، إضافة إلى حدوث تغير في بنية الطلب النهائي، يؤدي إلى بروز فروع صناعية جديدة، والتي من شأنها أن تساهم في النشاط الاقتصادي، وهذا ما يؤدي حتما إلى حدوث تغيرات على مستوى مصفوفة المعاملات الفنية من أجل تكييف الصناعات الحديثة للظهور للعمل ضمن هذا الاقتصاد.

2-1 طرق القياس :

سنقوم باستعراض بعض الطرائق الخاصة بقياس التغير الهيكلي الحاصل في اقتصاد ما اعتمادا على جدول المدخلات المخرجات، مع الإشارة إلى أن قياس التغير الهيكلي يتم بين فترتين متباعدتين . لذا فإننا نستعمل جدول المدخلات - المخرجات لسنة 1979 وسنة 1989 باعتبارهما آخر جدولين نشرتهما مديرية الحسابات الاقتصادية بالديوان الوطني للإحصائيات، لقياس التغير الهيكلي في الاقتصاد الجزائري .

يوجد ثلاث طرق لقياس التغير الهيكلي :

- الطريقة الأولى هي طريقة الاستهلاك الوسيط والتي ترى أن التغير الكلي في الإنتاج، و بالتالي التغير الهيكلي للاقتصاد، يرجع إلى تغير التطور التكنولوجي و تغير الطلب النهائي .

- الطريقة الثانية تسمى طريقة التحليل الهيكلي والتي تفسر التغير في الإنتاج بالتغير في معاملات الطلب النهائي والتغير في المعاملات الفنية للإنتاج .

- الطريقة الثالثة هي طريقة إدراج الصادرات والواردات، والتي ترجع التغير الهيكلي للاقتصاد نتيجة تغير كل من الطلب النهائي، الصادرات، الفن الإنتاجي، واردات السلع الاستهلاكية و الإنتاجية .

أولاً - طريقة الاستهلاك الوسيط :

استعملت هذه الطريقة من طرف الاقتصادي كارتر⁽⁴⁾ و تهدف إلى اختبار و معاينة التغير الحاصل في قيمة الاستهلاكات الوسيطة، لشرح التغير الهيكلي في فروع النشاط الاقتصادي، عن طريق التوليف بين المعاملات الفنية و الطلب النهائي .

لتبيان كيفية تطبيق هذه الطريقة نتفق على الاصطلاحات التالية :

X_{t1} : عمود إنتاج فروع الاقتصاد، خلال الفترة t_1 ، و الذي يعطى بالعلاقة :

$$X_{t1} = (I - A_{t1}) Y_{t1}$$

X_{t2} : عمود إنتاج فروع الاقتصاد، خلال الفترة t_2 ، و الذي يعطى بالعلاقة :

$$X_{t2} = (I - A_{t2}) Y_{t2}$$

حيث إن :

Y_{t1} : هو شعاع الطلب النهائي في الفترة t_1

Y_{t2} : هو شعاع الطلب النهائي في الفترة t_2

A_{t1} : هي مصفوفة المعاملات الفنية للإنتاج في الفترة t_1

A_{t2} : هي مصفوفة المعاملات الفنية للإنتاج t_2

قيمة الإنتاج الواجب إنتاجه لغرض الاستهلاك الوسيط للفترة t_1 الضروري لمواجهة

احتياجات

الطلب النهائي للفترة t_1 هو :

$$X_{t1} = (I - A_{t1}) Y_{t1} - Y_{t1}$$

و بالتالي فان قيمة الإنتاج الواجب إنتاجه لغرض الاستهلاك الوسيط للفترة t_2

باستعمال نفس تكنولوجيا الفترة t_1 ، أي باستعمال المصفوفة A_{t1} ، والضروري لمواجهة

احتياجات الطلب النهائي للفترة t_2 هو :

$$X_{t1,t2} = (I - A_{t1}) Y_{t2} - Y_{t2}$$

نسمح لنا هذه المعادلة فصل أثر التغير الحاصل في هيكل أو بنية قطاع ما، عن أثر

التغير الحاصل في الطلب النهائي لهذا القطاع.

قيمة الإنتاج الواجب إنتاجه لغرض الاستهلاك الوسيط للفترة t_2 الضروري لمواجهة

احتياجات الطلب النهائي للفترة t_2 هو :

$$X_{t2} = (I - A_{t2}) Y_{t2} - Y_{t2}$$

الفرق بين قيمة الاستهلاك الوسيط الضروري لتلبية الطلب النهائي في الفترة t_1 و الفترة t_2 يعطى بالعلاقة :

$$\Delta X = \{(I - At_2) Y_{t2} - (I - At_1) Y_{t2}\} + \{(I - At_1) Y_{t2} - (I - At_1) Y_{t1}\}$$

$$\rightarrow \Delta X = \Delta x_a + \Delta x_d$$

حيث :

$$\Delta x_a = (I - At_2) Y_{t2} - (I - At_1) Y_{t1}$$

وهو يمثل مقدار التغير في إنتاج الفترة t_2 الراجع إلى تغير المعاملات الفنية للإنتاج، أي ذلك التغير الذي يرجع إلى التغير التكنولوجي.

أما $\Delta x_d = (I - At_1) Y_{t2} - (I - At_1) Y_{t1}$ يمثل مقدار التغير الحاصل في إنتاج الفترة t_2 الذي يرجع إلى تغير الطلب النهائي. وبالتالي الزيادة الكلية الحاصلة في إنتاج الفترة t_2 ترجع إلى سببين هما :

- تغير الفن الإنتاجي

- زيادة الطلب النهائي

فإذا كان المقدار $\Delta x_a < 0$ ، يعني أن الاقتصاد يحقق زيادة في الإنتاج راجعة إلى التطور التكنولوجي، وأنه يحتاج إلى كمية إضافية من الاستهلاكات الوسيطة لتلبية احتياجات الطلب النهائي، ومنه نقول عن هذا الاقتصاد أنه في حالة نمو وتطور تكنولوجي.

و إذا كان $\Delta x_a < 0$ نقول بأن هذا الاقتصاد قد سجل تراجعاً تكنولوجياً.

و إذا كان $\Delta x_a = 0$ نقول أن هذا الاقتصاد في حالة استقرار تكنولوجي .

و بالتالي معرفة قيمة هذا المقدار بالنسبة لكل قطاع، يمكننا من معرفة هل أن القطاع نما و تطور تقنيا أم بقي راكداً.

ثانياً : طريقة التحليل الهيكلية (Rowscaler)

تستعمل هذه الطريقة نفس مبدأ الطريقة السابقة، وتجد أصلها انطلاقا من أبحاث ليونتييف في دراسته لهيكل الاقتصاد الأمريكي سنة 1941، ثم من الاقتصادي شنري سنة 1962 في دراساته لتحليل مسار التطور، وفي الأخير الاقتصادي كارتر في سنة 1980، الذي جاء بمفهوم حديث يعرض من خلاله طريقة لتحليل و قياس التغير الهيكلية لاقتصاد ما باسم Rowscaler والتي سنقوم بعرضها.

نفترض أن العلاقة بين المنتجين و المشترين تتغير بمرور الزمن، أي وجود تغير في الطلب النهائي بين الفترتين t_1 و t_2 .

لتكن t_1 هي سنة الأساس و t_2 السنة الجارية، مؤشر التحليل الهيكلي يعرف بأنه نسبة الإنتاج الفعلي (الحقيقي) للسنة الجارية t_2 إلى الإنتاج المولد (X_i^*) وهو يعني قيمة الإنتاج المحصل عليه في الفترة t_2 باستعمال نفس الفن الإنتاجي لفترة الأساس t_1 أي باستعمال مصفوفة المعاملات الفنية للإنتاج لفترة الأساس، ومعاملات الطلب النهائي d_{ij} لفترة الأساس.

إن التغير في العلاقة بين المشتريين والمنتجين يمكن اكتشافه عن طريق الجمع بين معطيات الإنتاج والطلب النهائي في السنة الجارية t_2 وسنة الأساس t_1 .
لقد قام كل من فلدمان و بالمر بتطبيق هذه الطريقة سنة 1985، لتحليل التغير الهيكلي للأربع مائة فرع مكون للاقتصاد الأمريكي بين سنة الأساس 1963 والسنة الجارية 1981.

كما قام هولاند و كوك بتطبيقها سنة 1992، من أجل تحليل التغير الهيكلي لاقتصاد مقاطعة واشنطن بين سنتي 1963 و 1982، كما أن الاقتصادي CHEN قام بتطبيق نفس الطريقة سنة 1993 على اقتصاد تايوان بين سنتي 1971 و 1989، كما طبقها الباحث Eric C. Wang سنة 1996 لتحليل التغير الهيكلي في اقتصاد دولة تايوان بين سنتي 1966 و 1991.

تتلخص هذه الطريقة فيما يلي :

X_{ij} هي قيمة الإنتاج الذي يبيعه القطاع I إلى القطاع J من استعماله كاستهلاك وسيط من طرف هذا الأخير (j).

يحدد المعامل الفني للإنتاج a_{ij} بالعلاقة : $a_{ij} = x_{ij}/X_j$ حيث X_j يمثل قيمة إنتاج الفرع J.

لقد كنا نعتبر في السابق أن الطلب النهائي عبارة عن شعاع عمودي ذو أبعاد $1 \times n^*$ ، ويكتب بالشكل :

$$Y = \begin{pmatrix} Y_1 \\ Y_2 \\ \vdots \\ Y_n \end{pmatrix}$$

أما الآن فإننا نعتبره مصفوفة مربعة ذات أبعاد $n \times n^*$ وتكتب بالشكل :

$$\begin{pmatrix} y_{11} & y_{12} & \dots & y_{1n} \\ y_{21} & y_{22} & \dots & y_{2n} \\ \vdots & \vdots & \ddots & \vdots \\ y_{n1} & y_{n2} & \dots & y_{nn} \end{pmatrix}$$

$$Y = \begin{pmatrix} y_{n1} & y_{n2} & \dots & y_{nn} \end{pmatrix}$$

حيث أن مجموع السطر الأول في المصفوفة y هو نفسه العنصر الأول في الشعاع y الذي يمثل الطلب النهائي على منتجات الفرع الأول . أي

$$Y_1 = y_{11} + y_{12} + y_{13} + \dots + y_{1n} = \sum_{j=1}^n y_{ij}$$

و بصفة عامة مجموع السطر i في المصفوفة y هو نفسه العنصر رقم i في الشعاع y و الذي يمثل الطلب النهائي على منتجات الفرع رقم i أي :

$$Y_i = y_{i1} + y_{i2} + \dots + y_{in} = \sum_{j=1}^n y_{ij}$$

بمعنى أن الطلب النهائي على منتجات كل فرع يقسم إلى n جزء كما هو موضح في المصفوفة y أعلاه . و بما أن معاملات الطلب النهائي معرفة بالعلاقة :

$$d_{ij} = y_{ij} / y_i \quad \dots \quad 1$$

و عليه فان مصفوفة معاملات الطلب النهائي D ترتب كما يلي :

$$D = \begin{pmatrix} d_{11} & d_{12} & \dots & d_{1n} \\ d_{21} & d_{22} & \dots & d_{2n} \\ \vdots & \vdots & \ddots & \vdots \\ d_{n1} & d_{n2} & \dots & d_{nn} \end{pmatrix}$$

انطلاقا من العلاقة (1) يكون : $y_{ij} = d_{ij} \cdot y_i$

ومنه يمكن كتابة المعادلة $Y = D \cdot Y$ باستعمال المصفوفات كما يلي :

$$\begin{pmatrix} Y_1 \\ Y_2 \\ \vdots \\ Y_n \end{pmatrix} = \begin{pmatrix} d_{11} & d_{12} & \dots & d_{1n} \\ d_{21} & d_{22} & \dots & d_{2n} \\ \vdots & \vdots & \ddots & \vdots \\ d_{n1} & d_{n2} & \dots & d_{nn} \end{pmatrix} \begin{pmatrix} Y_1 \\ Y_2 \\ \vdots \\ Y_n \end{pmatrix}$$

و كما هو معروف نموذج ليوتيف يكتب بالشكل : $X = AX + Y$

حيث أن : AX تمثل المشتريات و المبيعات الوسيطة بين مختلف الفروع

Y تمثل مقدار المشتريات الموجهة لتلبية الطلب النهائي

بشكل عام يمكن صياغة النموذج السابق بإدخال مصفوفة الطلب كما يلي :

$$X_i = \sum_{j=1}^n a_{ij} X_j + \sum_{j=1}^n d_{ij} Y_j$$

ومنه تكون قيمة إنتاج الفرع I في اللحظة t معطاة بالعلاقة :

$$X_{it} = \sum_{j=1}^n a_{ij} x_{jt} + \sum_{j=1}^n d_{ij} y_{jt}$$

بعد المقارنة بين الإنتاج الجاري للفرع i مع الإنتاج المولد يمكننا حساب مؤشر التحليل الهيكلي الذي يعطينا مدى التغير في المعاملات الفنية لهذا الفرع بين السنة الجارية t_2 وسنة الأساس t_1

- إذا كانت قيمة الإنتاج في السنة الجارية أكبر من قيمة الإنتاج المولد للقطاع i ، نقول أن المعاملات قد تغيرت إيجابيا ، وهذا يعني أن القطاع قد سجل نموا بين سنة الأساس وسنة المقارنة ، وأن قيمة الطلب النهائي قد ارتفع.

- إذا كانت قيمة الإنتاج في السنة الجارية مساوية إلى قيمة الإنتاج المولد نقول أن القطاع I يشهد استقرارا.

- وإذا كانت قيمة الإنتاج أصغر من قيمة الإنتاج المولد هذا يعني أن القطاع يعرف تراجعا.

إن شرط تطبيق طريقة المؤشرات Rowscaler يتطلب استعمال الأسعار الثابتة ⁽⁵⁾ ، وما يوجب استعمال جدول المدخلات - المخرجات بالأسعار الثابتة ⁽⁶⁾ (أسعار سنة الأساس).

ثالثا: طريقة إدراج الصادرات والواردات

اعتبرنا في الطريقة السابقة أن التغيرات الحاصلة في الإنتاج تابعة للتغير في المعاملات الفنية للإنتاج ومعاملات الطلب النهائي بين فترة الأساس t_1 و فترة المقارنة t_2 . ومن أجل التحديد الدقيق لسبب ومصدر التغير الهيكلي ندرج الصادرات والواردات من سلع الاستهلاك الوسيط والاستهلاك النهائي ، يكون الإنتاج الكلي (X) هو :

$$\begin{aligned} X + M_m + M_f &= AX + Y_d + E \quad (1) \\ X &= AX + Y_d + E - M_m - M_f \\ M_m &= C_m \cdot AX \\ M_f &= C_f \cdot Y_d \end{aligned}$$

حيث إن :

X : شعاع الإنتاج الخام

A : مصفوفة المعاملات الفنية

M : شعاع الواردات الموجهة للاستهلاك الإنتاجي

C : مصفوفة قطرية لمعاملات الاستيراد الموجه للاستهلاك الوسيط

Mf : شعاع الواردات الموجه للاستهلاك النهائي

Cf : مصفوفة قطرية لمعاملات الاستيراد الموجه للاستهلاك النهائي

Y : شعاع الطلب النهائي المحلي

E : شعاع الصادرات

بتعويض Mm و Mf في المعادلة (1) أعلاه نجد أن :

$$X=[I-(I-C_m)A]^{-1} [E+(I-C_f)Y_d]$$

الزيادة في الإنتاج القطاعي بين سنة الأساس t1 و السنة الجارية t2 هو ΔX حيث :

$$\Delta X = \{ [I-(I-C^2_f)A^2]^{-1} \{ E^2 + (I-C^2_f)Y^2_d \} - \{ [I-(I-C^1_m)A^1]^{-1} \{ E^1 + (I-C^1_f)Y^1_d \} \} \} \dots 2$$

نضع :

$$H1=[I-(I-C^1_m)A^1]^{-1}, G=[E^1+(I-C^1_f)Y^1_d]$$

$$H2=[I-(I-C^2_m)A^2]^{-1}, G2=[E^2+(I-C^2_f)Y^2_d]$$

$$\Delta H=H2-H1 \rightarrow H2=\Delta H+H1$$

$$\Delta G=G2-G1 \rightarrow G2=\Delta G+G1$$

و بالتعويض في المعادلة (2) نجد أن :

$$\Delta X=H2. \Delta G+ \Delta H G1 \dots \dots \dots (3)$$

بوضع

$$H^* = [I-(I-C^1_m)A^1]^{-1}$$

$\Delta H=H2-H1$ و بالتعويض نجد

$$\Delta H = \{ [I-(I-C^2_m)A^2]^{-1} - [I-(I-C^1_m)A^1] \} + \{ [I-(I-C^1_m)A^1]^{-1} - [I-(I-C^1_m)A^1]^{-1} \}$$

$H2-H^*$: تبين أثر التغير في معاملات المصفوفة C_m مع بقاء الفن الإنتاجي ثابت، أي ثبات معاملات المصفوفة A.

$H1-H^*$: تبين أثر التغير في الفن الإنتاجي ، أي تغير معاملات المصفوفة A ، مع ثبات معاملات المصفوفة A.

وبنفس الكيفية نقوم بتحليل المقدار ΔG فنجد أن :

$$\Delta G = \{ [E^2 + (I-C^2_f)Y^2_d] - [E^2 + (I-C^1_f)Y^2_d] \} + \{ [E^2 + (I-C^1_f)Y^2_d] - [E^1 + (I-C^1_f)Y^1_d] \}$$

$G2-G^*$: تبين أثر التغير في معاملات المصفوفة C_f مع ثبات شعاع الطلب النهائي Y_d

و شعاع الصادرات E.

$G^*_I - G_I$: تبين أثر التغير في شعاع الصادرات E و شعاع الطلب النهائي Y_d مع ثبات معاملات المصفوفة C_f .

و بالرجوع إلى المعادلة (3) و التعويض نجد أن

$$\Delta X = H[(I - C_f^2)Y_d^2 - (I - C_f^1)Y_d^1 + H_2(E^2 - H^1) + H_2[(I - C_f^1)Y_d^2 - (I - C_f^1)Y_d^1] + (H_2 - H^*) + (H^* - H_1)]. [E^1 + (I - C_f^1)Y_d^1]$$

$$\Delta X = \Delta X_1 + \Delta X_2 + \Delta X_3 + \Delta X_4 + \Delta X_5$$

حيث أن :

ΔX هو التغير الكلي في الإنتاج
 ΔX_1 التغير في الإنتاج يرجع إلى التغير في معاملات مصفوفة واردات الاستهلاك النهائي

ΔX_2 التغير في الإنتاج يرجع إلى تغير الصادرات
 ΔX_3 التغير في الإنتاج يرجع إلى التغير في الطلب النهائي
 ΔX_4 التغير في الإنتاج يرجع إلى في معاملات مصفوفة واردات الاستهلاك الوسيط
 ΔX_5 التغير في الإنتاج يرجع إلى تغير معاملات المصفوفة الفنية للإنتاج.

2- تطبيق طرق القياس باستعمال جدول المدخلات - المخرجات

سنقوم بقياس التغير الهيكلي للاقتصاد الجزائري بين سنتي 1979 و 1989، وهذا بتطبيق التقنيات الثلاث التي تناولناها في النقطة الأولى.

1-2 تطبيق طريقة الاستهلاك الوسيط

تتمثل هذه الطريقة في عزل الاستهلاك الوسيط عن الطلب النهائي⁽⁷⁾ في كل فرع، كما سبق وأن رأينا، عن طريق المعادلة: $x_t = (I - A_t)^{-1} Y_t - Y_t$ حيث أن Y_t شعاع الطلب النهائي

x_t قيمة الإنتاج الواجب توجيهه للاستهلاك الوسيط
 A_t مصفوفة المعاملات الفنية للإنتاج للفترة t.

وبالتالي $x_{ti} = (I - A_{ti})^{-1} Y_{ti} - Y_{ti}$ تكون : حيث أن :

x_{ti} قيمة ذلك الجزء من الإنتاج الواجب توجيهه للاستهلاك الوسيط خلال سنة 1979 الضروري لمواجهة احتياجات الطلب النهائي لسنة 1979.

Y_{ti} شعاع الطلب النهائي لسنة 1979

A_{ti} مصفوفة المعاملات الفنية للإنتاج لسنة 1979.

وأن x_{t2} تكون بالشكل : $x_{t2} = (I - A_{t2})^{-1} Y_{t2} - Y_{t2}$ حيث أن :
 X_{t2} قيمة الإنتاج الواجب إنتاجه لغرض الاستهلاك الوسيط خلال سنة 1989
الضروري لمواجهة احتياجات الطلب النهائي لسنة 1989.
 Y_{t2} شعاع الكلب النهائي لسنة 1989.
 A_{t2} مصفوفة المعاملات الفنية للإنتاج لسنة 1989.
أما عبارة $x_{t1,t2}$ تعطى بالشكل : $x_{t1,t2} = (I - A_{t1})^{-1} Y_{t2} - Y_{t2}$
وتعني قيمة ذلك الجزء من الإنتاج الواجب إنتاجه و توجيهه للاستهلاك الوسيط
لسنة 1989 باستعمال نفس تكنولوجيا 1979 ، والطلب النهائي لسنة 1989.

Δx_a تعطى بالعلاقة :
 $\Delta x_a = x_{t2} - x_{t1,t2} = [(I - A_{t2})^{-1} Y_{t2} - (I - A_{t1})^{-1} Y_{t2}]$
تدل على مقدار التغير في إنتاج سنة 1989 الذي يراجع إلى تغير المعاملات الفنية
للإنتاج بين سنتي 1979 و 1989 ، باستعمال الطلب النهائي لسنة 1989.

Δx_d تعطى بالعلاقة :
 $\Delta x_d = x_{t1,t2} - x_{t1} + Y_{t1} - Y_{t2} = [(I - A_{t1})^{-1} Y_{t2} - (I - A_{t1})^{-1} Y_{t1}]$
و تعني مقدار التغير الحاصل في إنتاج سنة 1989 الذي يرجع إلى تغير الطلب النهائي بين
سنتي 1979 و 1989.

الجدول رقم(1) يوضح لنا نتائج تطبيق طريقة الاستهلاك الوسيط. و من أجل
المعرفة الدقيقة للتغير الهيكلي والوقوف على الفروع التي حققت نموا و تطورا تقنيا،
والفروع التي حققت تراجعاً، استعملنا جدول المدخلات - المخرجات لسنة 1979
و 1989 المكونين من 94 فرع⁽⁸⁾.

جدول رقم(1) يبين نتائج تطبيق طريقة الاستهلاك الوسيط

رقم الفرع	X_{t1}	X_{t2}	$X_{t1,t2}$	ΔX_a	ΔX_d	ΔX
1	13.6	322.6	78.4	3244.2	64.8	3309.0
2	388.3	2617.8	1487.1	1130.7	1098.8	2229.5
6-3	14274.3	68461.2	63197.7	5263.5	48923.4	54186.9
7	1028.2	9358.7	3545.9	5812.8	2517.7	8330.5
8	108.0	924.2	468.6	455.6	360.6	816.2
9	284.3	3498.9	1100.9	2398.0	816.6	3214.6
10	2885.9	53676.1	14179.3	39496.8	11293.4	50790.2
11	2495.03	19406.1	8459.4	10946.7	5964.37	16911.1
12	103.5	1089.6	402.6	687.0	299.1	986.1
13	2474.9	6372.1	5848.9	478.2	3374	3852.2
14	9396.9	3239.1	14906.3	11667.2-	5509.4	6157.8-
15	737.5	2690.7	2055.7	635.0	1318.2	1953.2
16	428.2	1267.7	1175.9	91.8	747.7	839.5

17	747.5	5306.2	2446.05	2860.15	1698.55	4558.7
18	838.4	4630.04	3012.3	1617.74	2173.9	3791.6
19	28.7	110.1	97.6	12.5	68.9	81.4
20	100.1	187.8	496.8	309-	396.7	87.7
21	357.5	933.9	1301.3	367.4-	943.8	576.4
22	12990.1	35252.8	37903.4	2650.6-	24913.3	22262.7
23	1986.7	12266.5	6493.9	5772.6	4507.2	10279.8
24	101104.4	39121.3	38083.2	1038.1	63021.2-	61983.1-
25	64.7	2865.5	193.2	2663.3	128.5	2791.8
26	0	0	0	0	0	0
27	295.9	863.2	977.0	113.8-	681.1	567.3
28	318.05	2744.08	1088.2	1655.88	770.15	2426.0
29	1836.05	1183.1	3544.5	2361.4-	1708.45	653.0-
30	306.8	5140.08	1227.7	3912.38	920.9	4833.3
31	620.2	2791.0	2601.8	189.2	1981.6	2170.8
32	21.5	72.2	92.4	20.2-	70.9	50.7
33	61.5	12.8	264.5	251.7-	203.0	48.7-
34	301.9	42.8	1297.5	1254.7-	995.6	259.1-
35	0	100.8	0	100.8	0	100.8
36	423.6	2457.9	1926.4	531.5	1502.8	2034.3
37	667.7	2458.6	2205.8	252.8	1538.1	1790.9
38	11.2	1.2	67.1	65.9-	55.9	10.0-
39	1320.3	6345.7	4485.8	1859.9	3165.5	5025.4
40	783.5	4060.9	2850.5	1210.4	2067.0	3277.4

تابع الجدول رقم (1)

رقم الفرع	X_{i1}	X_{i2}	$X_{i1,i2}$	ΔX_a	ΔX_d	ΔX
43-41	1294.2	7051.0	4304.8	2746.2	3040.6	5786.8
44	1158.3	6398.2	4489.5	1908.7	3331.2	5239.9
45	1438.6	3201.1	5945.2	2744.1-	4506.6	1762.5
46	1755.1	14541.4	6901.2	7640.2	5146.1	12786.3
47	1060.02	9850.2	4445.7	5404.5	3385.68	8790.2
48	1371.6	7657.4	5704.1	1953.3	4332.5	6285.8
49	622.07	2658.1	2018.8	639.3	1396.73	2036.0
50	64.9	368.04	240.3	127.74	175.4	303.1
51	407.07	2372.02	1464.4	907.62	1057.33	1965.0
52	1005.3	4104.8	3790.5	314.3	2785.2	3099.5
53	0	556.2	0	556.2	0	556.2
54	1472.5	28174.9	5655.4	22519.5	4182.9	26702.4
55	1418.7	1340.4	4074.6	2734.2-	2655.9	78.3-
56	1133.03	42493.4	4000.4	38493	2867.37	41360.4
57	434.9	4573.08	2357.03	2309.2-	1922.13	387.1-
58	90.9	47.8	486.3	10004.4	395.4	10399.8
59	373.2	10490.7	1319.5	10206.8	946.3	1153.1
60	407.1	11526.3	2086.6	1405.9-	1679.5	273.6
61	69.4	680.7	256.7	863	187.3	1050.3
62	250.6	1119.7	1267.9	5649.5	1017.3	6666.8
63	1008.5	6917.4	4194.2	11421.1	3185.7	14597.8
64	5943.8	15606.3	24025.7	21871-	18081.9	3789.5-
65	231.9	2154.3	911.9	761.5	680	1441.5
66	366.2	1673.4	1733.06	1524.1-	1366.86	157.3-
67	43.4	208.9	207.2	12342.1	163.8	12505.9

68	2648.9	12549.3	8932.4	8874.3-	6283.5	2590.8-
69	0	58.1	0	3.5	0	3.5
70	0	3.5	0	158	0	158
71	49.2	158.0	162.2	22284.9	113	22397.9
72	2617.7	22447.1	9978.9	8263.3-	7361.2	902.1-
73	333.8	1715.6	861.4	1458.4	527.6	1986
74	364.8	2319.8	1281.9	13788.1	917.1	14705.2
79-75	5758.9	15070.0	19449.8	14916-	13690.9	1225.5-
80	525.5	4533.4	1570.5	1570.5-	1045	525.5-
88-81	0	0	0	5907.4	0	5907.4
92-89	766.9	5907.4	2420.7	42174.7	1653.8	43828.5
93	8931.2	44595.4	27960.9	26370-	19029.7	7340.5-
94	1315.8	1590.7	4494.3	4494.3-	3178.5	1315.8-

المصدر: من إعداد الباحث اعتمادا على معطيات ONS

العمود ΔX_a في الجدول (1) يدل عن مقدار التغير في الإنتاج، الناجم عن التغير في المعاملات الفنية، أي التغير في الفن الإنتاجي . وبتفحصنا لهذا العمود نلاحظ أن الفروع:

(75-، 14، 20، 21، 22، 27، 29، 32، 33، 34، 38، 45، 55، 57، 60، 64، 66، 68، 72، 80، 93، 94 و قد سجلت تراجعاً تكنولوجياً .

أما العمود ΔX_d في نفس الجدول السابق فهو يخبرنا عن مقدار التغير في الإنتاج الناجم عن التغير في الطلب النهائي . وبتفحصنا لهذا العمود، نلاحظ أن كل فروع الاقتصاد الوطني قد حققت نمواً في الإنتاج راجعاً إلى تغير الطلب النهائي، باستثناء الفرع رقم 24 (فرع السلع الوسيطة المعدنية، الميكانيكية والكهربائية).

أما العمود الأخير في الجدول فيدلنا عن التغير الكلي الحاصل في الإنتاج بين سنتي 1979 و 1989، والذي يرجع إلى تغير الفن الإنتاجي و الطلب النهائي . وبتفحصنا لهذا العمود نرى أن الفروع رقم: 80، 93، 94، (79-75)، 14، 24، 29، 33، 34، 38، 55، 57، 64، 66، 68، 72 قد

سجلت تراجعاً في الإنتاج.

2-2 تطبيق طريقة التحليل الهيكلي (ROWSCALER).

من أجل الوصول إلى نتائج مرضية تستعمل هذه الطريقة جدول المدخلات - المخرجات لسنة المقارنة 1989 بالأسعار الثابتة، أي بأسعار 1979. ونظراً لصعوبة وتعقيد الحسابات استعملنا جدول المدخلات - المخرجات المكون من 94 فرع، نكتفي باستعمال مدونة الأنشطة ذات 19 فرع.

نعلم أن :

RS_i^t هو مؤشر (ROWSCALER) الكلي للفرع I حيث:

$$RS_i^t = \frac{\sum_{j=1}^n a_{ijt2} X_{jt2} + \sum_{j=1}^n d_{ijt2} Y_{jt2}}{\sum_{j=1}^n a_{ijt1} X_{jt2} + \sum_{j=1}^n d_{ijt1} Y_{jt2}}$$

RS_i^a هو مؤشر ROWSCALER للتغير التكنولوجي حيث أن :

$$RS_i^a = \frac{\sum_{j=1}^n a_{ijt2} X_{jt2} + \sum_{j=1}^n d_{ijt2} Y_{jt2}}{\sum_{j=1}^n a_{ijt1} X_{jt2} + \sum_{j=1}^n d_{ijt1} Y_{jt2}}$$

RS_i^d هو مؤشر ROWSCALER لتغير الطلب النهائي حيث أن :

$$RS_i^d = \frac{\sum_{j=1}^n a_{ijt2} X_{jt2} + \sum_{j=1}^n d_{ijt2} Y_{jt2}}{\sum_{j=1}^n a_{ijt1} X_{jt2} + \sum_{j=1}^n d_{ijt1} Y_{jt2}}$$

علما أن :

a_{ijt1}, a_{ijt2} هي المعاملات الفنية للإنتاج لسنتي 1979 و 1989 على الترتيب.
 d_{ijt1}, d_{ijt2} هي معاملات الطلب النهائي لسنتي 1979 و 1989 على الترتيب.
 X_{jt1}, X_{jt2} هو الإنتاج الكلي للفرع j في سنتي 1979 و 1989 .

ترتبط المؤشرات الثلاث العلاقة :

$$1 - RS_i^t = RS_i^a + RS_i^d$$

وهو ما يمكن التحقق منه بالنظر إلى الجدول رقم (2) أدناه ، الذي يمثل نتائج تطبيق

هذه الطريقة.

جدول رقم (2) يبين نتائج تطبيق طريقة التحليل الهيكلي

رقم الفرع	RS_i^t	RS_i^a	RS_i^d
1	0.815	0.884	0.930
2	1.257	1.134	1.123
3	1.288	1.329	0.959
4	0.506	0.669	0.837
5	0.869	0.901	0.968
6	0.868	0.808	1.060
7	1.242	1.214	1.027
8	1.425	0.989	1.436
9	1.050	1.0113	1.039

3.998	1.195	4.194	10
0.939	0.935	0.874	11
1.092	0.988	1.080	12
0.982	1.280	1.262	13
0.829	1.028	0.858	14
1.265	0.693	0.958	15
-	-	-	16
1.451	0.948	1.400	17
0.597	1.113	0.710	18
0.929	0.811	0.741	19

المصدر: من إعداد الباحث، اعتماداً على معطيات الديوان الوطني للإحصاء

إذا كان المؤشر $RS_i^t < 1$ (وهو ما يعني كذلك أن المتوسط الحسابي للمؤشرين RS_i^d , RS_i^a أكبر من الواحد أي أن $(RS_i^a + RS_i^d) / 2 > 1$) فنقول أن الفرع I قد حقق نمواً، راجعاً إلى التغير الهيكلي لهذا الفرع.

و بالرجوع إلى الجدول رقم (2) نجد أن الفروع التي حققت نمواً هي :

رقم الفرع	أسم الفرع
2	الماء و الطاقة
3	المحروقات
7	مواد البناء، الخنزف، و الزجاج
8	البناء و الأشغال العمومية
9	الصناعات الكيماوية، المطاطية و البلاستيكية
10	الصناعات الغذائية - الفلاحية
12	صناعة الجلود و الأحذية
13	صناعة الخشب، الفلين و الورق
17	خدمات الفنادق، المقاهي و المطاعم

و بمقارنة المؤشرين RS_i^d و RS_i^a يمكن القول أن النمو المسجل في القطاع i يرجع أساساً إلى التغير في الفن الإنتاجي إذا كان $RS_i^a > RS_i^d$.

أو يرجع إلى التغير في الطلب النهائي إذا كان $RS_i^d > RS_i^a$

وبملاحظة الجدول رقم (2) نقول أن التغير الهيكلي في الفروع رقم :

1، 4، 5، 6، 8، 9، 10، 11، 12، 15، 17، 19 يعود أساساً إلى التغير في الطلب النهائي.

أما التغير الهيكلي في الفروع رقم : 2، 3، 7، 13، 14، 18 يرجع إلى التغير في الفن الإنتاجي.

2-3 طريقة إدراج الصادرات والواردات.

تكلمنا سابقاً على أن التغير الهيكلي يرجع إلى خمسة عناصر هي :

- 1- التغير في واردات الاستهلاك النهائي
 - 2- التغير في الصادرات
 - 3- التغير في الطلب النهائي المحلي
 - 4- التغير في واردات الاستهلاك الإنتاجي
 - 5- التغير في معاملات المصفوفة الفنية للإنتاج
- سنقوم بتحديد التغير الكلي في إنتاج فروع النشاط الاقتصادي مع ابراز المساهمة الفردية للعناصر الخمس السابقة الذكر في هذا التغير.
- نشير إلى أننا استخدمنا مدونة الأنشطة و المنتجات ذات 94 فرع ، من أجل الاحاطة و الدراسة الوافية للتغير الهيكلي لفروع الاقتصاد الوطني.
- بتطبيق المفاهيم النظرية التي تم شرحها و تفصيلها في المحور الأول ، نحصل على النتائج التالية ، و التي يبينها الجدول رقم(3).

جدول رقم(3) يبين نتائج تطبيق طريقة إدراج الصادرات و الواردات (%)

الفرع	Δx_1	Δx_2	Δx_3	Δx_4	Δx_5	$\Delta x = \Delta x_1 + \Delta x_2 + \Delta x_3 + \Delta x_4 + \Delta x_5$
1	405.0-	17.43	350.53	21.7-	148.8 4	90.02
2	19.29-	0.6-	8.49-	123.55-	46.17	105.76-
6-3	20.25-	1.02-	110.68	29.01-	0.8-	59.6
7	-202.9	11.9	226.34	18.19-	81.21	98.28
8	121.4-	6.54	95.1	4.78-	23.29	1.27-
9	314.4-	14.55	108.79	21.64-	116.7	96-
10	3.02-	21.17-	5.59	0.1-	11.77	6.93-
11	36.58-	136.26	57.3	2.27	16.11	175.36
12	421	142.26	19.64	0.11-	4.13	586.92
13	3.21-	18.76-	5.96	0.08-	7.15	8.94-
14	0.36-	2.51-	35.76-	0.01-	- 87.67	126.31-
15	0	0	0	0	0	0
16	6.11-	50.36-	10.21	16.46-	16.33	46.39-
17	51.85-	30.86	49.47	134.55-	112.5 8	6.51
18	20.71-	2.24	215.24	182.75	67.69	447.21
19	35.32-	9.1	14.94	4.96-	4.04-	20.28-
20	4.28-	47.98-	21.06	3.57-	31.9-	66.67-
21	87.39-	2.31-	0.08-	58.94-	- 60.26	208.98-
22	18.17-	3.53	4.26	38.6-	0.97-	49.95-
23	127.2-	67.28	44.02	94.04-	32.03	78-
24	28.21-	0.66	12.7	70.44-	- 12.05	97.34-
25	613.6-	22.54	105.01	65.82	94.64	325.68-
26	486.0-	0.01	72.81	0	0	413.21-

27	2306-	8.97	761.38	7.37	6.94-	1535.55-
28	872.2-	31.51	255.45-	72.54	17.59	1006.08-
29	646.2-	16.39	33.81-	12.99	27.1-	677.75-
30	2353-	21.94	389.25	237.32	88.96	1615.95-
31	955.7-	1.7	146.08	9.59	0.77	797.57-
32	54.29-	58.32	18.71-	5.29	0.98	8.41-
33	0	0	0	0	0	0
34	821.3-	620.5	62.78-	50.33	- 32.33	245.61-
35	0	0	0	0	0	0
36	205.5-	2.29	335.99	116.55	58.49	307.74
37	2.82-	1.4	56.36	0.068-	28.21	83.082
38	204.28	3.02	223.08	0.06-	- 20.45	409.87
39	1.76-	1.67-	54.1	24.11-	20.51	47.07
40	5.95-	0.74	58.92	6.59	35.23	95.53

تابع الجدول رقم (3)

رقم الفرع	Δx_1	Δx_2	Δx_3	Δx_4	Δx_5	$\Delta x = \Delta x_1 + \Delta x_2 + \Delta x_3 + \Delta x_4 + \Delta x_5$
43-41	4.95-	0.08	56.38	-0.56	1.07	52.02
44	182.14	19.23	24.64	-237.4	38.39	27.8
45	31.29-	17.88	126.69	-25.93	-136.29	-48.94
46	0	0	0	0	0	0
47	444.74-	3	165.26	-61.61	146.13	-191.96
48	57.9	7.22	3.9	-137.16	46.92	-21.22
49	74.45-	18.06	61.1	-2.96	19.7	21.45
50	-2149.9	-0.31	312.15	15.68	4.86	-1817.6
51	-381.41	2.07	164.82	-16.76	14.2	-217.08
52	1455.1 -4	-0.95	214.2	-207.93	110.25	-1339.57
53	-355.19	-2.84	136.93	-11.4	34.04	-198.46
54	-283.29	-0.95	48.21	-57.02	61.09	-231.96
55	-41.91	-0.02	18.18	-0.56	-19.83	-44.14
56	-171.13	-0.48	14.96	-278.4	205.11	-229.94
57	613.54	59.63	155.23	-302.47	136.76	662.69
58	-0.58	-0.53	109.29	-0.08	-27.55	80.55
59	-358.53	0	56.9	-71.89	79.33	-294.19
60	-71.31	2.44	151.62	-2.94	26.04	105.85
61	-204.48	-2.33	78.91	-14.07	26.25	-115.72
62	-61.27	0.12	229.38	-1.26	2.39	169.36
63	-29.3	-1.46	171.69	-49.14	94.33	186.12
64	-284.63	7.75	108.36	46.53	-55.54	-177.53
65	-295.43	0.13	127.64	1.18	5.76	-160.82
66	-241.18	-1.88	129.39	0.27	-5.3	-118.7
67	-330.56	3.5	137.79	0.4	-0.25	-189.01
68	-5.78	1.13	75.38	-126.37	25.01	-30.63
69	-52.66	0.29	51.04	-0.09	0.75	-0.67
70	-19.28	0.12	-48.95	-0.16	0.81	-28.9
71	-20.81	6.1	54.28	-2.67	-20.27	16.63
72	-22.34	0.92	83.74	-151.4	102.19	13.11

73	-292.29	15.36	191.83	26.47	21.93	-36.7
74	-476.1	2.71	126.19	17.95	5.1	-324.15
79-75	-16.51	-4.2	65.09	-1.29	-12.44	30.65
80	-163.33	7.19	138.27	-8.67	40.86	14.32
88-81	0	0	0	0	0	0
92-89	-307.51	13.67	155.18	-16.14	9.54	-145.26
93	-375.17	-11.28	103.95	190.14	59.78	-32.58
94	-2.05	-0.31	63.99	-0.8	-20.87	39.96

المصدر: من إعداد الباحث ، اعتمادا على معطيات الديوان الوطني للإحصائيات

نلاحظ من خلال الجدول رقم(3) أن أغلب فروع النشاط الاقتصادي قد حققت نموا في الإنتاج راجعا إلى التغير في الطلب النهائي ، غير أن بعض الفروع الأخرى عرفت تراجعا في إنتاجها نتيجة التغير في الطلب النهائي ، و هي الفروع رقم : 32،29،28،21،14،2،34و70 (انظر القيم السالبة في العمود $\Delta x3$ من الجدول السابق).

من خلال العمود $\Delta x2$ نلاحظ أن الصادرات أثرت بشكل كبير في ارتفاع إنتاج المحروقات ، باستثناء الفرع رقم 10 (البتروال الخام و الغاز) الذي سجل تراجعا في قيمة الإنتاج المتأتي من الصادرات بـ: 21.17%، وهو يرجع إلى انخفاض أسعار البترول، التي عرفت انهيارا في سنة 1986 واستمرت في الانخفاض عدة سنوات . و الفرع رقم13 (نقل المحروقات عبر القنوات)، الذي بدوره عرف تراجعا يقدر بـ 18.76%0. كما نلاحظ أن الصادرات أثرت بشكل كبير في ارتفاع إنتاج بعض الفروع الأخرى بنسب متفاوتة وتمثلها القيم الموجبة في العمود $\Delta x2$.

كما أدى التغير في الصادرات إلى تراجع الإنتاج في فروع أخرى بنسب ضئيلة.

- نعلم أن ارتفاع الواردات الموجهة للاستهلاك النهائي يكون على حساب الإنتاج المحلي أي أنها تؤدي إلى انخفاضه ، و الاقتصاد الجزائري خلال السنوات الأخيرة عرف تفتحاً نحو الخارج و توسعا كبيرا في واردات الاستهلاك النهائي ، وهو ما سيؤدي إلى انخفاض الإنتاج المحلي ، ومن خلال الجدول رقم (3) نلاحظ أن قيم العمود $\Delta x1$ معظمها سالبة و كبيرة بالقيم المطلقة ، وهذا ما يدل دلالة واضحة على أن ارتفاع واردات الاستهلاك النهائي أدى إلى انخفاض كبير في إنتاج فروع النشاط الاقتصادي باستثناء الفروع رقم : 70،57،44،38،12.

- نفس الشيء بالنسبة للواردات الموجهة للاستهلاك الوسيط ، فقد أدى ارتفاع هذه الواردات إلى انخفاض في قيمة إنتاج أغلب فروع النشاط الاقتصادي، لكن بعض الفروع الأخرى سجلت نموا في الإنتاج راجعا إلى ارتفاع واردات الاستهلاك الإنتاجي،

وهي الفروع رقم: 27، 25، 18، 11 حتى 64، 50، 40، 36، 34، 32، 93، 74، 73، 67. غير أن هذا النمو طفيف في أغلب الأحيان خاصة بالنسبة للفروع رقم: 65، 11، 67 (العمود $\Delta x4$).

نلاحظ من خلال العمود ($\Delta x5$) أن بعض الفروع حققت انخفاضا في الإنتاج يرجع إلى تغير المعاملات الفنية للإنتاج ، و تصدر هذه الفروع الفرع رقم 45 الذي سجل انخفاضا يقدر بـ 87.67% ، والفرع رقم 64 بـ 55.54%، والبعض الآخر من الفروع سجل زيادة في الإنتاج نتيجة التغير في المعاملات الفنية للإنتاج، تصدر هذه المجموعة من الفروع، الفرع رقم 56 بزيادة تقدر بـ 205.11%، ويليه الفرع رقم 1 بـ 148.84%، و الفرع 47 بـ 146.13% (العمود $\Delta x5$ في الجدول رقم 3).

و من خلال العمود ($\Delta x5$). الذي يمثل التغير الكلي في الإنتاج بين سنتي الأساس و المقارنة 1979 و 1989 على الترتيب، الناتج عن التغير في العوامل الخمسة التي سبق ذكرها في المحور الأول، نلاحظ أن الفروع رقم: 36، 18، 17، 12، 11، 7، 4، 3، 1-72، 71، 63، 62، 60، 58، 57، 49، 44، 41، 40، 94، 80، 75 قد حققت نموا في الإنتاج الكلي . تصدر هذه الفروع الفرع رقم 57 بنمو في الإنتاج بين سنتي الأساس والمقارنة يقدر بـ 662.69% ويليه كل من الفرع 12 و 18 بـ 586.92% و 447.21% على الترتيب. أما باقي الفروع الأخرى قد سجلت تراجعا في الإنتاج الكلي، وبالخصوص الفرع رقم 50 (منتجات صيدلانية)، 30 (سلع تجهز كهربائية) و 27 (سلع نهائية كهربائية)، حيث انخفض إنتاجهم بـ 1817.60%، 1615.95% و 1535.55% على الترتيب، يرجع هذا الانخفاض إلى الارتفاع الهيب في واردات الاستهلاك النهائي من هذه المنتجات بين سنتي 1979 و 1989 (العمود $\Delta x1$).

الختام

بعد تعرفنا على كيفية قياس التغير الهيكلي من خلال استعراض النظريات والتقنيات التي توصل إليها الاقتصاديون والباحثون ، حاولنا تطبيق المفاهيم المكتسبة على معطيات الاقتصاد الجزائري بهدف قياس التغير الذي حدث خلال العشرية 1979 - 1989 التي تميزت بتحول اقتصادي متسارعة، وجدنا أن التغير الكلي في الإنتاج لأي فرع يرجع إلى تغير كل من الفن الإنتاجي والطلب النهائي حسب الطريقة الأولى والثانية.

أما الطريقة الثالثة فهي أكثر تفصيلا من الطريقتين السابقتين، إذ أنها ترجع التغير الكلي في الإنتاج إلى تغير العوامل الخمس: الطلب النهائي، الصادرات، الواردات الموجهة للاستهلاك الوسيط، الواردات الموجهة للاستهلاك النهائي والمعاملات الفنية.

المراجع :

- باللغة العربية :

1 - عصام شريف - المخلات - المخرجات - ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1983 .

- باللغة الأجنبية

1 - H.B.chennery,paterns of industrialgrowth American Economic ,Reviuew.vol n° 50. 1960. p 34.

2 - Jean Arrous,Analyse multisectorielle et croissance, Edition Economica, France 1987,p75.

3 - Lange,O.introduction to Econometrics,Pergamon press WN,warsaw,1965p223

4 - s.kuznets,modern economic growth,rate,structure and spread.yale university press.1966.p25.

5 - W.Léontief,structural change, in W.léontif and others, studies in the structure of Amirican Economy. New-york.oxford university press 1953.p85

الهوامش :

1 - s.kuznets,modern economic growth,rate,structure and spread.yale university press.1966.p25.

2 - H.B.chennery,paterns of industrial growth.American Economic Review.voln50.1960.p34.

3 - W.Léontief,structural change,in W.léontif and others,studies in the structure of American Economy.new york.oxford university press 1953.p85.

4- Jean Arrous,Analyse multisectorielle et croissance, Edition Economica, France 1987,p75.

5 .عصام شريف ، تحليل المدخلات المخرجات ، OPU الجزائر، 1983 ، ص 85.

6 .عصام شريف ، تحليل المدخلات المخرجات ، OPU الجزائر، 1983 ، ص 85.

7 - Lange,O.introduction to Econometrics,Pergamon press WN,warsaw,1965p223

8. أنظر مدونة الأنشطة و المنتجات المكونة من 94 فرع المدرجة في الملحق.

الخصوصية

القاعدة الأهم لاقتصاد السوق

« دراسة حالة - الجزائر »

إعداد :

عبيد شابي

أستاذ مساعد مكلف بالدروس
معهد العلوم التجارية
جامعة الوادي - الجزائر

مكي دراجي

أستاذ مساعد مكلف بالدروس
معهد العلوم القانونية والإدارية
جامعة الوادي - الجزائر



ملخص

إن هذا المقال يلخص مفهوم الخصوصية من حيث أنها خيار مفروض على الدول النامية وقد عرض تعريفات متعددة لها، ثم أشار هذا المقال لأهم مبادئ الخصوصية المتبعة، خاصة في الجزائر من بيع في البورصة إلى المزايدة ... الخ، كما عرج على أهم أدواتها وغاياتها وطرقها وأخير أشار هذا المقال لأهم آثار الخصوصية الإيجابية منها والسلبية بصيغة موضوعية بعيدا عن الذاتية والتأثيرات السياسية المختلفة.

Résumé

Cet article a résumé le concept de privatisation étant un choix imposé aux pays en développement il a exposé les différentes définitions, ainsi que les principes de privatisation et ses objectifs surtout en Algérie et enfin l'article a soudé les principales conséquences positives et négatives d'une manière objective et loin de subjectivisme.

مقدمة :

إن التطورات المعاصرة في جميع نواحي الحياة وخاصة منها الناحية الاقتصادية مع ظهور النظام العالمي الجديد⁽¹⁾ . أدى بغالبية الدول للتكتل أو الانضمام إلى منظمات لضمان الأمن الاقتصادي و عدم التهميش ، و لكي يتسنى هذا وجدت الدول أنه من الأجدر لها تغيير أنظمتها الاقتصادية وفقاً لما يتناسب مع المعطيات الجديدة⁽²⁾ .

وبما أن الجزائر من الدول النامية التي عانت من ويلات الاستعمار و الذي تسبب في تأخرها عن الركب الاقتصادي و إتباعها كباقي الدول المستقلة حديثاً النظام الاشتراكي الذي أثبت فشله وجب عليها تغيير نظامها الاقتصادي بما يضمن لها تحقيق هدفين رئيسيين هما :

1. تحقيق التطور و النمو المتناسب مع ما تمتلكه من معطيات بشرية و اقتصادية و جغرافية.

2. استمرار هذا التطور و نموه وفق شبكة من العلاقات الاقتصادية الخارجية و هذا لا يتسنى لها إلا بالدخول في علاقات شراكة و انضمامها إلى المنظمات الاقتصادية و المالية العالمية .

و من هنا بدأت فكرة التحول الاقتصادي الكبير الذي بدأت تعرفه الجزائر منذ أكثر من عشرة و هو دخولها إلى النظام الاقتصادي المفتوح غير أن هذا التوجه الجديد انبثقت عنه عدة تغيرات أهمها ما سنتناوله بالبحث و التحليل في هذه المقالة و هي الخصخصة محاولين توضيح الرؤيا . خاصة أن هذا الموضوع أصبح يحظى باهتمام واسع من مختلف الشرائح. من خلال ما سبق ذكره. ما معنى الخصخصة ؟ أهي عملية تحويل القطاع الحكومي من ملكية عامة للدولة إلى ملكية خاصة ؟ وهل قبولت بالرفض ؟ بسبب ذهنية المواطن ؟ و لماذا ينظر غالبية الأفراد إلى الخصخصة أو الخصخصة بمنظور تسريح العمال و انتشار البطالة ؟! بعد طرح هذه التساؤلات سنحاول معالجة الموضوع من خلال ما يلي :

I - مفهوم الخصوصية ومبادئها.

II - الأدوات التبريرية للخصوصية وغاياتها.

III - طرق و كفاءات الخصوصية.

IV - آثارها.

I - مفهوم الخصوصية ومبادئها :

قبل التطرق إلى مفهوم الخصوصية ومبادئها ، لابد من التعرض إلى جذورها التاريخية ،

بحيث يعود هذا المصطلح إلى مرحلة أواخر السبعينات عندما بدأت الدول الصناعية تعاني ، لأول مرة في تاريخها الحديث ثنائية الجمود والتضخم .ولقد جاءت طروحات « اقتصاديات جانب العرض » لتشكل المواجهة النظرية لحالة الجمود والتضخم.وبهذا نجح الاقتصاديون الذين روجوا للإيديولوجية اقتصاديات جانب العرض.وهكذا صاغوا سياسة الرئيس الأمريكي « ريغان» الاقتصادية التي خفضت الضرائب ، وألغت كثيرا من التنظيمات التي كانت تحكم بعض الأنشطة الاقتصادية وتجمدت في إلحاح « ريغان» ورجاله على ضرورة انسحاب الدولة من الحياة الاقتصادية .وساعد على ذلك أن مجمل الرأسمالية الأمريكية وافقت على إعطاء الأولوية لمكافحة التضخم ، ولو كان ذلك تحمّل نتائج الركود سنتين أو ثلاثا ، وتحملت الفئات الفقيرة عبء هذا الركود بسبب امتناع الدولة عن تقديم المعونات الاجتماعية ...

ومن ناحية أخرى ضغطت آليات النظام الرأسمالي العالمي على حلفاء أمريكا التي سجلت جميعا تراجعا لدور الدولة ودرجات تمجيد القطاع الخاص .وهكذا أخذ الغرب يدعوا العالم الثالث إلى تبني سياسة الرأسمالية بلا قيود أو حدود⁽³⁾ .

① مفهومها : تعتبر الخصوصية أسلوبا جديدا بالنظر إلى متطلبات حاجيات المجتمع وإعادة النظر في دور الحكومة في تلبية هذه الحاجيات ، وهذا يعني

الاعتماد بشكل أكبر على مؤسسات المجتمع الخاصة بدلا من المؤسسات الحكومية إن عملية التخاصية هي العملية التي يتم من خلالها تقليل دور الحكومة وزيادة دور القطاع الخاص في إدارة و امتلاك الممتلكات⁽⁴⁾.

و يرى السيد عامر ذياب التميمي بأن التخصخص هو تحويل الملكية العامة في المؤسسات والشركات إلى الملكية الخاصة سواء كانت هذه الملكية فردية أو مؤسسة ، وسواء كانت الملكية محصورة في أفراد أو مؤسسات أو أنها مدرجة للتداول في سوق الأوراق المالية⁽⁵⁾.

وتُعدّ «الخصوصية وسيلة هيكلية إجمالية للاقتصاد. وهي غير منفصلة على الإصلاحات الإجمالية كإصلاحات الجهاز المالي والجهاز الاجتماعي والتنظيمي من أجل أن تأقلم مع التطور في المعلومات ...»⁽⁶⁾ ♦

أما السيد ضياء مجيد الموسوي فيعتبر أن الخصوصية هي التفويض لصالح القطاع الخاص أو «التخصيص» أو «الخاصة» أو «الأهنة» أو «الخاصصة» أو «التقزيم»⁽⁷⁾.

و يعرفها د/ عبد الرحمن مبتول : بأنها تلك الحالة التي تتنازل فيها الحكومة عن مؤسسات تملكها سواء جملة أو بكتلة من الأسهم لصالح مستثمرين خواص وطنيين أو أجانب ، وهذا يمكن أن يشمل الصناعة ، الأراضي ، العمارات السكنية ، والقطاعات كالتجارة ، وبدرجة أقل القطاعات الجماعية ، كالتعليم و الصحة ، ورفع الفضلات المنزلية⁽⁸⁾.

ويشير الباحث عبد الحميد بوالوذنين بأن الخصوصية تقوم على مبدأين اثنين مختلفين يعتمد الأول على تحويل غط التسيير بدون أن يمس ملكية الدولة لوسائل الإنتاج . ونجد في هذا الإطار كل من الإيجار LEASING وعقد التسيير ، والإعانة في التسيير. أما المبدأ الثاني فيقوم على التحويل الجزئي أو الكلي لأصول المؤسسة العمومية إلى القطاع الخاص الداخلي أو الأجنبي (الوطني أو الخارجي)⁽⁹⁾.

في حين يشير السيد رابح بالطاهر إلى أن مصطلح الخوصصة قد ظهر لأول مرة في المعجم سنة 1983 حيث كانت تعرف في إطار محدود كنتيجة للمصلحة الخاصة ، بل أكثر من ذلك المرور من نشاط أو قطاع يتميز بنظام المراقبة أو الملكية الجماعية إلى نظام خاص⁽¹⁰⁾ .

و يقول عنها أ/ بن عنتر عبد الرحمن بأنها تعني تحويل ملكية القطاع العمومي إلى القطاع الخاص و التعامل بقواعد السوق في تحديد الأسعار و السعي إلى تعظيم الربح⁽¹¹⁾ .

ويذهب الباحث د/ سنوسي خنيش في حديثه عن الخوصصة فيقول بأنها الفعل الذي يهدف إلى تقليل دور الدولة أو زيادة في دور القطاع الخاص في مجال نشاط معين أو في مجال ملكية وسائل الإنتاج⁽¹²⁾ .

و هناك من يرى بأن الخوصصة هي العمل على تحويل نشاطات الشركات العامة إلى أشخاص خواص أو إلى مؤسسات حسب طرق مختلفة و تقترح الخوصصة من طرف المؤسسات العامة أو من طرف الحكومة ، كما يمكن أن تقترح من طرف الشركات الأجنبية⁽¹³⁾ .

بالرغم من إيماننا بموضوعية التعاريف السابقة الذكر : إلا أننا نؤيد من حيث الشمول ما ذهب إليه د/ مهدي إسماعيل الجزاف في تعريفه لها حين قال⁽¹⁴⁾ : بأنها إدارة نشاط اقتصادي ما إما جزئيا أو كليا من القطاع العام إلى القطاع الخاص ، و لا تعتبر الخصخصة غاية بحد ذاتها و إنما هي أداة من برنامج شامل ذو أدوات متعددة يهدف إلى إصلاح الاقتصاد في دولة ما لذا غالبا ما تواكب الخصخصة تغيرات جذرية لمفهوم أو فلسفة مسؤولية الدولة في إدارة الاقتصاد ودورها السياسي و الاقتصادي .

و بالنسبة للجزائر فقد عرفها المشرع الجزائري وفي المادة الأولى من الأمر رقم 95-22 بأنها تعني القيام بمعاملة أو معاملات تجارية تتجسد إما في تحويل تسيير مؤسسات عمومية إلى أشخاص طبيعيين أو معنويين تابعين للقانون الخاص ،

وذلك بواسطة صيغ تعاقدية يجب أن تحدد كيفية تحويل التسيير وممارسته و شروطه (15).

ما يمكن ملاحظته أن هذا الأمر قد حقق للعمال نوعاً آخر للمشاركة لم يسبق لهم أن عرفوه من قبل ، و المتمثل في المشاركة في الملكية ، فبعد تجربة المشاركة الغير مباشرة و الرسمية في التسيير جاء الأمر رقم 22/95 المتعلق بالخصوصية يمنحهم حق الحصول على حصص في رأس مال مؤسستهم القابلة للخصوصية .وهو ما يمكنهم من تملك جزئي أو كلي لأصول المؤسسة و هنا يحتم عليهم الأمر أن ينظموا في شركة يتم تكوينها حسب أحد الأشكال التي ينص عليها القانون (16).

وقد أوضح الأمر الجديد رقم 04/01 هذه الكيفية خاصة ما نصت عليه أحكام المادة 13 و التي تقر بأن الخصوصية هي كل صفقة تتجسد في نقل الملكية إلى أشخاص طبيعيين أو معنويين خاضعين للقانون الخاص من غير المؤسسات العمومية ، و تشمل هذه الملكية :

- كل رأسمال المؤسسة أو جزء منه تحوزه الدولة مباشرة أو غير مباشرة و / أو الأشخاص المعنويين الخاضعين للقانون العام ، وذلك عن طريق التنازل عن الأسهم أو حصص اجتماعية أو اكتتاب لزيادة في الرأسمال .

- الأصول التي تشكل وحدة استغلال مستقلة في المؤسسات التابعة للدولة (17).

فإن كانت هذه هي أهم مميزات الخصوصية حسب ما تناولها المشرع الجزائري فماذا إذن عن أهم مبادئها ؟

2 مبادئها :

فقد تم تحديدها كالآتي : (18)

1. مبدأ التدرج : إن عملية الخصوصية تتسم بطريقة تدريجية بحيث يتم إدراج المؤسسات القابلة للخصوصية ، ضمن برنامج الحكومة حتى تقدم بشكل مضبوط .

2. حماية مصالح الدولة : تعني بذلك أن تخضع عملية التقييم لمعايير موضوعية من شأنها الحفاظ على مصالح الخزينة العمومية ، فلا تباع الشركات بأثمان بخسة وتوضع دفاتر للشروط تحدد التزامات المشتريين أو على العموم في حالة الخوصصة الجزئية عن طريق المحافظة على الأسهم العينية .

3. الشفافية : تضمن عملية الشفافية بإطلاع الجمهور وكل المعنيين بأي صفقة تحويل ملكية عن طريق الإشهار الواسع و تخضع لجميع الأحكام القانونية و التنظيمية السارية المفعول . و من ثم يرجع في هذا المجال إلى كل المنظومة القانونية سواء في القانون المدني أو التجاري و المتعلق بعقد البيع .

4. عدم التمييز : و نعني بذلك عدم التفرقة بين الفئات الاجتماعية و هو أمر لا يتناقض مع بعض الإمتيازات الخاصة المتعلقة بالإجراءات الواردة في هذا القانون.

و كمثال على ذلك فإن تخصيص الأسهم الواجب بيعها للعمال بالمجان أو بشروط تفصيلية لا يمكن اعتبارها عملا تمييزيا ، و ذلك لأن العامل و لفترة طويلة ساهم في بناء هذه المؤسسات العمومية و سهر على حمايتها ومنه أيضا تولد ما يسمى بحق "الشفعة" و هو مبدأ قانوني معروف في القانون المدني لذلك نص المشرع في عرض أسباب هذا القانون على حماية مصالح العمال عن طريق حق هؤلاء العمال في الشفعة في استرداد أصول مؤسستهم كليا أو جزئيا و في المشاركة في رأسمالها بنسبة 20%⁽¹⁹⁾ ، و هو ما تمت الإشارة إليه سابقا .

لم تستقر الدولة عند هذا المرسوم بل واصلت إصلاحاتها من خلال مرسوم آخر 2001/08/20 الذي جاءت به وزارة المساهمة و تنسيق الإصلاحات ، لإدخال تعديلات على بعض القوانين السابقة

خاصة منها مرسوم 95/22 و مرسوم 95/25 و مزج بين هذين المرسومين ، إذ تم إنشاء مجلس مساهمات الدولة «CPE» و الذي عوض المجلس الوطني للخوصصة للدولة «CNPE» ، في حين أن الشركات القابضة ، الأمانة الدائمة التقنية ، مجلس الخوصصة و هيكلها على التوالي قد حلت . إن هذه العملية

حسب بعض التصريحات جاءت من أجل إدخال بعض التعديلات على القوانين الأخرى ، كالتعريف الجمركية ، إصلاح البنوك و غيرها كلها في الحقيقة تدخل في إطار الإنعاش الاقتصادي الذي تسعى الحكومة لتنفيذه خلال الخطة الرباعية (2001- 2004) و تحضير دخول الجزائر في المنظمة الدولية للتجارة و إمضاء عقد الشراكة مع الدول الأوروبية . أما بالنسبة لعملية الخصخصة حسب نفس التصريحات فهي « ليست بالدواء الشافي لكل الأمراض إلا أنها عمل تسيير تسعى إلى وضع المؤسسة في ظروف تطور قوية »⁽²⁰⁾.

إن تقديم تعاريف للخصخصة و توضيح أهم مبادئها هو عمل غير كاف لتوضيح المعالم الكبرى للخصخصة ، بل لابد من تبين أهم العناصر التي أدت إلى ذلك ، و ما تصبوا إليه الخصخصة. هذا ما سنحاول عرضه في العنصر القادم.

II - الأدوات التبريرية للخصخصة وغايتها :

أ. الأدوات التبريرية للخصخصة :

1. من العناصر المبررة للخصخصة هي قدرة الخواص على توفير إدارة أكفأ مما يقتصد في استخدام الموارد بحسن أداء المؤسسات فيزيد بذلك من معدلات النمو الاقتصادي، وتقديم الحوافز على تعبئة وتوجيه الادخار نحو المشاريع المربحة و تعميم الملكية على قطاع أكبر من المواطنين بخلق سوق مالية نشطة تشجع على الادخار و توفير قناة مناسبة للتمويل .

و هذا بالإضافة إلى تخفيف الأعباء المالية التي تتحملها الحكومة من حيث تمويل المشاريع العامة و مواجهة الخسائر التي تتعرض إليها⁽²¹⁾ .

2. إن الخصخصة تؤدي بالدولة للحصول على مداخيل إضافية نتيجة التخلي عن المؤسسات العمومية^(*) ، كما تسمح بادخار الأموال التي تعودت على تقديمها لهذه المؤسسات لتغطية عجزها في إطار الدعم و التحويلات الجارية و تسمح هذه الدولة للحكومة بتخفيض عجز الميزانية بالنسبة إلى إجمالي الناتج المحلي و بالتالي التخلي عن التمويل النقدي للاقتصاد الذي

تعودت أغلب الدول النامية على اللجوء إلى استعماله بالرغم من طابعه التضخمي⁽²²⁾.

3. إن عملية الخصخصة تبعد المؤسسة عن المواعيد و الإجراءات السياسية و تحصنها من كل الأمراض المميتة التي عادة ما تصيب المؤسسات العمومية⁽²³⁾.....

4. أفول النظام الاشتراكي وعدم تحقيق النتائج المرجوة من النماذج التنموية السابقة كتجربة الصناعات المصنعة في الجزائر.

5. إن الخصخصة إجراء من بين الإجراءات الأساسية المعتمدة في شرعية المؤسسات المالية الدولية و على رأسها صندوق النقد الدولي و البنك العالمي و المنظمة العالمية للتجارة.

6. الاحتكار الممارس من قبل الدولة على مجموع دوائر الحياة الاجتماعية أدى إلى شلل الاقتصاد و شجع اللامعالة الاجتماعية و هو ما تجسد فيما يلي :

- غياب المنافسة و تشجيع الرداءة .
- غياب الدافع من جهة الحكومة مستعملة المؤسسات العامة لتمويل المستهلكين المنتجين أو الفرق الاجتماعية في إطار العلاقات الرعية.
- غياب الأرباح و ذلك بسبب دافع عدم فعالية المؤسسات العامة مما يؤدي بالعجز الحاد .
- عدم توازن الاقتصاد الكلي ، هذا العجز ينجر عنه ديون خارجية أو رفع الضرائب حول النشاطات الظاهرة⁽²⁴⁾.....

ب . غايات الخصخصة :

يتحدث عنها د/ مهدي إسماعيل الجزاف فيقول⁽²⁵⁾ تتفاوت أهداف الخصخصة من دولة إلى أخرى بحسب ظروفها السياسية والاقتصادية والمالية

الاجتماعية وما تسعى الدولة إلى تحقيقه من هذه العمليات فبشكل عام، تسعى معظم الدول إلى تحقيق بعض الأهداف التالية :

1. تقليص المصروفات الحكومية وزيادة الإيرادات العامة .
2. رفع الكفاءة الإنتاجية للأنشطة الاقتصادية.
3. رفع مستوى الخدمات وتطوير خدمات المشتركين أو العملاء.
4. توسعة نطاق مشاركة المستثمر المحلي والأجنبي في الأنشطة الاقتصادية.
5. توفير فرص عمل حقيقية على المديين المتوسط والطويل للعمالة الوطنية.
6. إعادة توزيع ثروات البلاد على شرائح أعرض من المجتمع.
7. تقليص دور الدولة في النشاط الاقتصادي.
8. تنمية سوق رأس المال.

ولا شك أن الأهمية النسبية لهذه الأهداف تختلف من دولة إلى أخرى فتولي الدول النامية أهمية أكبر نسبيا لتقليص المصروفات المتنامية للقطاع العام، ومعالجة العجز المالي. بينما تولي الدول المتقدمة أهمية أكبر لزيادة كفاءة الأنشطة الاقتصادية. ويغفل أن تحدد تشريعات الخصخصة الأهداف المرجو تحقيقها بالترتيب وذلك حسب أولويتها وأهميتها للدولة⁽²⁶⁾ .

أما في الجزائر فإن الهدف الأساسي من الخصخصة هو إبراز دور جديد للدولة في الميدان الاقتصادي الذي لا يقل أهمية عن الدور السياسي.

إضافة إلى إدماج بنايات الاقتصاد الجزائري وفق نظام التقسيم الدولي للعمل والتنظيم الدولي للتجارة... والذي من خلاله يتم التوجه نحو إلغاء مفهوم المؤسسة العمومية الاقتصادية إلى نمط آخر هو مفهوم شركات الاقتصاد المختلط وما ينجر عنها من إجراءات تنظيمية وتطبيقية من شأنها أن تعيد ترتيب مبادئ سير الاقتصاد الوطني لفترة تاريخية جديدة⁽²⁷⁾ .

كما تعمل الخصخصة على إزالة الإختلالات الداخلية ورفع مستوى الكفاءة

الإنتاجية

والفعالية في استخدام الموارد الاقتصادية. فضلا عن التقليل من التدخل السياسي في المؤسسات الاقتصادية والمساهمة في تنمية الأسواق المالية وتعبئة مدخرات الخواص من أجل الاستثمار⁽²⁸⁾.

بعد أن تعرفنا على مفهوم الخصوصية ومبادئها ثم أدواتها التبريرية وغاياتها سنحاول أن نتعرف في العنصر القادم على طرق وكيفيات الخصوصية.

III - طرق وكيفيات الخصوصية :

يمكننا أن نعتبر أن الخصوصية في بلدان العالم الثالث هي وصفة علاجية من صندوق

النقد الدولي غير أن هذه الوصفة أعطيت صالحة للبرازيل وأي دولة أخرى بغض النظر عن بنيته الاقتصادية وموارده⁽²⁹⁾

وعلى هذا الأساس نلمس أن صندوق الدولي عندما يطرح وصفة الخصوصية على بلد فإنه لا يراعى أي مقومات لهذا البلد غير أن هذه البلدان تكيف هذه الخصخصة على حسب ظروفها ولكن حسب مبادئ صندوق النقد الدولي. وعليه كيف كانت طرق الخصوصية العامة في الجزائر؟

① طرق الخصوصية: هناك عدة طرق من بينها :

أ - التنازل عن طريق السوق المالية : و تتم إما بعرض بيع أسهم و قيم منقولة أخرى في بورصة القيم المنقولة وإما بعرض علني للبيع بسعر ثابت ، وإما بتظافر هذين الأسلوبين معا ، على أن يكون الدخول للبورصة بتقييم القيم المنقولة بتحديد السعر الأول مساويا على الأقل لسعر العرض الذي حدده المجلس .

ب - التنازل عن طريق المزايدة : يتم من خلال هذه الطريقة التنازل عن الأسهم و القيم المنقولة الأخرى ، و كذلك التنازل الكلي أو الجزئي لأصول

المؤسسات العمومية القابلة للخصوصية عن طريق مزيدة محدودة أو مفتوحة وطنية أو دولية⁽³⁰⁾.

ج - التنازل عن طريق إبرام عقد التراضي : حسب ما جاءت به نص المادة 31 من الأمر 22/95 فإن اللجوء لعقد التراضي هو إجراء استثنائي يكون في الحالات التالية :

- في حالة التحويل التكنولوجي النوعي.

- في حالة ضرورة اكتساب تسيير متخصص.

د - التنازل الصالح الأجر : وهو ما نصت عليه أحكام المادة 36 وفق لما يلي : «حيث يخصص مجانا في إطار مؤسسة عمومية تتم بموجب هذا الأمر 10% من أقصى رأسمال المؤسسة العمومية القابلة للخصوصية المعينة إلى مجموع الأجراء بمعنى إشراكهم في نتائج المؤسسة العمومية المعنية وهذه الحصة ممثلة بأسهم دون حق تصويت ولا تمثيل في مجلس الإدارة»⁽³¹⁾ ♦♦

كما وضع الأمر رقم 04.01 المؤرخ 20 أوت 2001 والمتعلق بتنظيم المؤسسات العمومية الاقتصادية طرق التنازل وتسييرها وخصوصيتها.الذي جاء بعد الأمر 95-22 بحوالي 6 سنوات.

فإن كانت هذه هي أهم طرق الخصوصية فماذا إذن عن كفاءاتها؟!

② كفاءات الخصوصية : يوجد مستويين للخصوصية في الجزائر هما⁽³²⁾ :

أ- المستوى الأول : و لا يتم فيه المساس بالملكية العمومية لرأس المال وإنما يكفي بإدخال التقنيات في التسيير . وعلى هذا المستوى تبرز لنا أربعة إمكانيات كالآتي :

▪ استقلالية المؤسسات .

▪ تأجير المؤسسة العمومية إلى مؤسسة خاصة وهذا ما أ صطلح عليه بـ LEASING : ويكون ذلك مقتصرًا على ميادين مختلفة منها السياحة والصناعة و الحديد.

▪ أن تقوم شركة خاصة بالتسيير لصالح شركة عمومية ، عن طريق تسيير ممتلكاتها أو جزء منها .

▪ أن تستفيد المؤسسات العمومية من مساعدات مصالح شركة خاصة في ميدان التسيير .

ب - المستوى الثاني : وفيه يحدث تحويل كامل أو جزئي من الأسهم أو الحصص الاجتماعية و بذلك تسقط الملكية عن المؤسسات العمومية ، أو تقسم بينها و بين الشركات الخاصة و نجد على هذا المستوى أربع تقنيات قانونية و مالية محددة كالتالي :

♦ بيع المؤسسات العمومية للعمال بواسطة الاقتراض من البنوك وهذا ما يحدث فعلا في دول أوروبا الشرقية ، و تعدى ذلك إلى بيع المؤسسات العمومية إلى كافة المواطنين مثلما حدث في روسيا و تشيكوسلوفاكيا سابقا .

♦ الزيادة في رأسمال المؤسسة العمومية ، عن طريق بيع الأسهم للقطاع الخاص ، على أن يقلل رأسمال الدولة ، وبهذا تستخدم الأموال الجديدة في القضاء على عجز المؤسسة المالي ، و من ثم إعادة هيكلتها و بعثها من جديد .

♦ بيع الأسهم المالية و يكون ذلك بتحديد أسعار محددة و هذا ما يتطلب ضرورة إيجاد سوق مالي.....

♦ بيع الأصول الحقيقية للمؤسسة ، و هذا ما حدث فعلا في الجزائر خصوصا في قطاع البناء و الأشغال العمومية .

♦ تنازل الدولة عن الأسهم ، حيث تقوم الدولة باختيار مجموعة من المشترين و من ثم تحول لهم كل فوائدها أو أجزاء من المؤسسة محل الخصخصة .

بعد أن تناولنا طرق و كفيات الخوصصة في العنصر الثالث ماذا إذن عن آثارها؟.

IV - آثار الخوصصة : هناك آثار إيجابية و أخرى سلبية .

أ - الآثار الإيجابية: حددها د/ عبد الرحمن مبتول فيما يلي :

(1) فوائد وحدوية الاقتصاد :

▪ إن الخوصصة يمكنها أن توفر رؤوس أموال جديدة بواسطة بيع الأسهم بالنقد المحلي أو بالعملة الصعبة .

▪ التخفيض من قيمة الإنتاج و تحسين الفعالية عن طريق لا مركزية القرارات موازنة مع عدم البيروقراطية و عدم الاحتكار في كل المجالات .

▪ تجسيد الإدارة التي هي جامدة في بديهيات الماضي و ذلك بمؤهلات جديدة لمسؤولي التسيير تخص الكمية و النوعية للمنتجات التي تصنع الأسعار المطبقة حسب المواصفات الدولية .

▪ جلب رؤوس أموال جديدة و بإدارة جديدة مرفوقة بتكوين دائم و عام بتقنيات جديدة محركة للمؤسسات التي هي في طريقها للخوصصة .

(2) فوائد الاقتصاد الكلي :

▪ تعزيز المنافسة و ذلك بوضع إصلاحات منظمة من طرف الدولة المنظمة التي يمكنها التدخل في مجالات غير تنافسية ، و لكي تستقر أو تساعد قطاعات ذات فائدة موازية و تدخل ضمن منافسة دولية .

▪ إن استقرار الميزانية ، ارتفاع النفقات العامة هي مصادر التوترات التضخمية التي تمنع استقرار الاقتصاد و تبطئ الإصلاحات ، في حين أن تقنيات التمويل مثل : SWAP (تبادل الديون المشكوك فيها) تسهل من تخفيض المديونية الخارجية تحت

غطاء أن هذه المبالغ التي توضع في الخزينة العامة و هذا سينشر الحصة المالية المحلية ولكن إعادة استثمارها في المؤسسة نفسها .

▪ إن الخصوصية تشجع نمو سوق رؤوس الأموال خاصة التأمينات ، صناديق التقاعد ، البنوك ، إن تجربة الشيلي فيما يخص الحماية الاجتماعية تعتبر كطعم لسوق رؤوس

الأموال و ذلك لضعف الوساطة المالية . و تلعب الدولة دور شبكة الحماية و تلح على الإصلاح .

▪ بسبب سياسة الخصوصية سيضع المستثمرون الثقة و يساعدون العجز العام للتوفير. إن تجربة زمبيا بينت أنه كان هناك تضيق كبير للوقت و المال في سياسة إعادة الهيكلة للمؤسسات جاءت بالفشل ، هذه السياسة ضاعفت من عدم التوازن للميزانية المرتبطة بالمحافظة على المساعدات المالية و مبتعدة عن أي محاولة لتحسين الفعالية .

▪ إن للخصوصية تأثير إيجابي على المستهلك الذي سيكون إنتاجه بسعر منخفض و نوعية جيدة ، حيث أن مبيعات الخصوصية تشجع وضع شبكة الحماية الاجتماعية مخففة من التأثيرات المؤلمة ذات المدى القصير للإصلاحات التنظيمية ، خاصة أنها تدفع إلى التطور أي إلى مناصب شغل قارة التي تمثل حماية اجتماعية أكثر فعالية⁽³³⁾ .

▪ كما أن للخصوصية دور إيجابي في تسيير المؤسسات الاقتصادية ، لأنها تساعد على إزالة التداخل الذي قد يحدث بين القرارات السياسية و الإدارية . وكذلك فهي تركز الصرامة في التسيير المالي للمؤسسة ، و تقوي المنافسة ، كما أن الخصوصية تخلق فوائد مالية عن طريق إنشاء السوق المالي ، و تساهم أيضا في تحديد الأجور و استقرارها بالتوافق مع متطلبات السوق و خاصة سوق اليد العاملة⁽³⁴⁾ .

▪ يرى فيها البعض بأنها تكريس لسياسة التبعية ...أو بعبارة أخرى ما هي إلا سياسة لتطبيق الرأسمالية المتوحشة و التي تظهر جليا في انخفاض القدرة الشرائية للمواطن و تسريح العمال ، و انخفاض قيمة العملة الوطنية و ازدياد الهوة بين الطبقات الاجتماعية و رهن اقتصاد البلاد للشركات و البنوك الرأسمالية الدولية و انعكاس هذه التكنولوجيا على الإنسان و البيئة⁽³⁵⁾

▪ و من الناحية الأمبريقية فإن الواقع الاجتماعي و الاقتصادي رغم أن التجربة لم تنته بعد - يثبت بأن هناك تدمرا كبيرا في الأوساط الاجتماعية ، و خاصة منها العمالية التي ترى بأن الاقتصاد السليم و العلمي هو ذلك الذي يأخذ في اعتباره الرفاه الاجتماعي و توزيع الدخل ، و تطبيق العدالة الاجتماعية⁽³⁶⁾

▪ إن عملية الخصخصة تأتي في إطار عملية تحول شامل شرعت فيها الجزائر منذ بداية التسعينات ، والتي ستؤدي لآ محالة إلى تسريح فئة من العمال وهو ما وقع فعلاً. إذ تحدث بعض الأوساط الإعلامية عن تسريح ما يفوق عن ستة مائة ألف و يبقى التساؤل الجوهرى كيف يمكن إقناع العمال بضرورة التحول الشامل وما يترتب عن هذا التحول من نتائج اجتماعية قاسية يصعب تحملها⁽³⁷⁾

▪ تشير بعض التجارب الدولية في الخصخصة إلى إمكانية حصول فساد إداري و اختلاسات مالية أثناء تنفيذ برامج الخصخصة . من قبل بعض المسؤولين و المتنفذين و أعضاء مجالس الإدارات في الشركات الحكومية المؤقتة التي ستؤول ملكيتها للقطاع الخاص ، نظرا للحجم الهائل من الأسهم و الأصول و الممتلكات التي سيتم تداولها . فعلى سبيل المثال تشوهت صورة الخصخصة الأولى في بولندا و هنغاريا حول حصول فساد إداري و اختلاسات و رشاوى قبل أن يضع المشرع لها ضوابط تحكم بعمليات الخصخصة لذا من المجدي أن تتضمن قوانين الخصخصة أسس و أدوات المحاسبة الإدارية و محاربة الفساد الإداري و معاقبة الرشوة و محاكمة المختلسين من عمليات الخصخصة⁽³⁸⁾ .

▪ صعوبة تسعير الخدمات والسلع المنتجة من المشروعات ذات الطبيعة الاحتكارية ، بخاصة الخدمات (مثل الكهرباء والماء والتعليم وغيرها) ، حيث إن محدودية السوق وضيقها سيحولان دون وجود عدد كبير من هذه المشروعات ذات التكاليف الرأسمالية الضخمة الأمر الذي يعني بالضرورة استبدال الاحتكار الحكومي الحالي لهذه الخدمات .وهذا ما يتعارض أصلا مع فلسفة الخصوصية وأهدافها⁽³⁹⁾.

▪ كما لا يجب أن نغفل الآثار السياسية المحتملة التي قد تفوق تكلفتها الآثار الاقتصادية المتوقعة للخصوصية ، بخاصة عن تحويل بعض المشروعات الحيوية والمرافق العامة ، الأمر الذي سيؤثر قي بعض اعتبارات السرية والأمن القومي المرتبطة بهذه المشروعات كمثال على ذلك ما حدث للاقتصاد المصري الذي نعتبره خير مثال عما جرى لها بعد الخصوصية من تعثر في النمو الاقتصادي ثم تدهور للنتائج المحلي الإجمالي في سنوات الخطة الخماسية 83/82 ، 87/86 وتضخم جامع والإنجاز النمو للقطاعات الخدمية ، والتجارية على حساب ركود الزراعة والصناعة... وفساد على نطاق واسع ، وهروب وتهريب للأموال... وبطالة واسعة الانتشار خصوصا في صفوف المتعلمين⁽⁴⁰⁾.

الخاتمة

من خلال هذه الرؤية أو الزاوية التي فتحناها عبر هذا المقال المقتضب عن الخصخصة حاولنا دراسة النواحي القانونية والتنظيمية لعملية الخصخصة ، خاصة التي اتخذتها الجزائر منذ فترة كخيار اقتصادي في إطار اتفاقيات صندوق النقد الدولي وانضمامها إلى المنظمة العالمية للتجارة . فقد يرى العام أو الطبقة العمالية أن هذا الخيار مجحف في حق الطبقة العمالية والمجتمع . إلا أن ما يمكن قوله أن حتى كلمة خيار لا تجدد موقعها و إذ أصبح أن الخصخصة هي تحصيل حاصل إذا ما أرادت الجزائر مواكبة النظام العالمي الجديد و افتكاك مكان لها ضمن هذا الزخم الهائل من الدول التي تتسابق من أجل حجز موقع في هذا التطور الاقتصادي وأن

العالم الآن يدخل مرحلة جديدة الأجدر فيها اقتصاديا هو الأبقى ، و لذلك فكر الاقتصاديون الجزائريون في النظام الاقتصادي الذي اتبعته الجزائر و الذي يرون أنه المخرج من التخلف ⁽⁴¹⁾ و بما أن الجزائر لها طاقات معطلة كثيرة يمكن استغلالها فقد شرعت في عملية الخصخصة و هو ما رآه أغلبية الاقتصاديين لتشغيل هذه الطاقات المعطلة ضمن المنظومة الجديدة التي وضعتها الجزائر في هذا الإطار .

إن انضمام الجزائر إلى المنظمات العالمية التجارية و الاقتصادية المالية هو حتمية للبقاء و النمو و التطور ضمن أطر الشراكة و التعاون قد لا يعلمه العام .

ولهذا فإن انضمامنا لمثل هذه المنظمات يتطلب شروطا و ضريبة تدفع كتعديل النظام الجمركي و الاتفاقيات الجمركية و الخصخصة و غيرها و التي قد ينظر لها بالمنظور الطبي بأنها العملية الجراحية المؤلمة من أجل مواصلة الحياة لتشغيل أكبر قدر ممكن من الطاقات المعطلة و التي تتمتع بها الجزائر في ظل ثروتها البشرية و الجغرافية و الطبيعية .

إن الخصخصة كما وضحناها سابقا هي القاعدة الاقتصادية القوية لبناء اقتصاد السوق . كما أنها طريقة أخرى لجلب الاستثمار الخارجي الذي سيعطي دفعة لعجلة النمو و التنمية الاقتصادية.

الهوامش :

1. BERNARD GRANOTHER : POUR UN GOVERNEMENT MONDIAL ET FLAMMARION, PARIS, 1984, P36.

2. BERMEJO RONALDO: VERS UN NOUVELLE ORDRE INTERNATIONNAL, UNIVERSITE, FRIBOURG (SUISSE), 1982 .

3. ضياء مجيد الموسوي (بتصرف)، الخوصصة والتصحيحات الهيكلية، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية 2001، ص 48، 49.

4. ي، س، ، التخاصية من أجل حكومة أفضل ، (ترجمة : سارة أبو الرب) الأردن ، مركز الكتب الأردني 1989 ، ص 11.

5. عامر ذياب التميمي ، « الخصخصة و التكيف الهيكلي » مجلة العربي ، الكويت، العدد 457، 1996، ص 38.

6. ABDERRAHMANE MEBTOUL, l'algerie face aux defis de la mondialisation T1, Algerie , op 4 ,2002 ,p135.

7. نقلا عن : ضياء مجد الموسوي ، المرجع نفسه ، ص29.
8. عبد الرحمن مبتول ، « لا وجود لإقتصاد سوق ببول عمومية » جريدة الخبر ، العدد 1087 ، 30 ماي 1994 ، ص 02.
9. عبد الحميد بوالوذين ، « هل التحول للقطاع الخاص هو الحل ؟ » جريدة المساء ، 22 نوفمبر 1994 ، ص 06.
10. LAPRIVATION DESENTREPRISEPU ,RABAHBENTAHAR
REVUE AL GERIENNE DE COMPTABILITE ET D'ODUIT , BLIOUE
ALGER , N°2,1994, P23.
11. عبد الرحمن بن عنتر « مراحل تطور المؤسسة الاقتصادية الجزائرية وأفاقها المستقبلية » ،
مجلة العلوم الإنسانية ، الجزائر ، جامعة محمد خضير بسكرة ، العدد 02 ، 2002 ، ص 127.
12. سنوسي خنيش ، الإدارة و البيئة في النظرية و التطبيق ، رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر ،
معهد العلوم السياسية و العلاقات الدولية ، 1998 ، ص 303.
13. فاطمة زواني ، « الخصوصية مفتاح إقتصاد السوق » مجلة القبس ، الجزائر ، 1995 ، ص 16.
14. مهدي إسماعيل الجزاف ، « الجوانب القانونية للخصخصة » مجلة الحقوق ، تصدر عن
مجلس النشر العلمي جامعة الكويت ، العدد 4 ، 1998 ، ص 291.
15. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، أمر رقم : 22.95 و المتعلق بخصوصية المؤسسات
العمومية ، الجريدة الرسمية ، العدد 48 الصادر بتاريخ : 03/09/1995 ، ص 04.
16. ليندة رقام ، « مشاركة العمال في تسيير المؤسسة الوطنية واقع و تحديات » ، مجلة العلوم
الإنسانية ، مرجع نفسه ، ص 135.
17. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، أمر رقم : 04. 01 ، المتعلق بتنظيم المؤسسات
العمومية الإقتصادية ، و تسييرها و خصوصتها ، الجريدة الرسمية ، الصادرة بتاريخ : 20 غشت 2001
، العدد 47 ، ص : 12.11.
18. محفوظ لعشب ، سلسلة القانون الإقتصادي ، الجزائر ، د.م.ج ، 1997 ، ص 68.
19. المرجع نفسه ، ص 69.
20. نقلا عن : د/محمد بوفرة (بتصرف) ، « بعض آثار الإصلاحات على المؤسسة الاقتصادية
العمومية الجزائرية. حالة بعض المؤسسات » مجلة العلوم الإنسانية ، الجزائر ، جامعة محمد خضير بسكرة
، العدد 01 ، 2001 ، ص 71.
21. ضياء مجيد الموسوي ، مرجع السابق ، ص 20.
- (♦) لمزيد من المعلومات حول مسار المؤسسات العمومية الاقتصادية الجزائرية أنظر في ذلك :
- عمر صخري : إقتصاد المؤسسة ، الجزائر ، د.م.ج ، 1993 .
- عباس النصراوي ، محمد محمود الإمام ، و آخرون ، القطاع العام و القطاع الخاص في الوطن
العربي ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية 1990.

22. عبد الحميد بوالوذنين ، مرجع نفسه .
23. محفوظ لشعب ، مرجع سابق ، ص 113.
24. عبد الرحمن مېتول (بتصرف) ، مرجع نفسه ، نفس المكان.
25. مهدي إسماعيل الجزاف ، مرجع نفسه ، ص 299 .
26. المرجع نفسه
27. يزيد مزعاش (بتصرف) ، تناقضات المؤسسة العمومية الإقتصادية الجزائرية في ظل المرحلة الانتقالية ، رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر ، معهد العلوم السياسية والعلاقات الدولية ، 1994 : ص 130 .
28. صالح فيلاي ، علي غربي . وآخرون . مستقبل الديمقراطية في الجزائر ، ط 1 ، لبنان ، مركز دراسات الوحدة العربية ، 2002 ، ص 234.
29. ضياء مجيد الموسوي (بتصرف) ، مرجع سابق ، ص 35.
30. محفوظ لشعب ، مرجع سابق ، ص 73.
31. أمر رقم 22/95 الجريدة الرسمية ، العدد 48 ، ص 8.
- ♦♦ أنظر في ذلك : تعليمة رقم 02 تتعلق بالتنازل الصالح الأجراء عن أحوال المؤسسات العمومية غير المستغلة بتاريخ 1997/09/15 ، ص 5.6.
32. سنوسي خنيش ، مرجع نفسه ، ص 303=305 .
33. عبد الرحمن مېتول ، مرجع سابق.
34. سنوسي خنيش ، مرجع سابق ، ص 306 .
35. مرجع نفسه ، ص 308.
36. نفس المكان.
37. سعدون بوكبوس: الإقتصاد الجزائري محاليتين من أجل التنمية (1962.1989.2005). أطروحة دكتوراه دولة ، جامعة الجزائر ، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير ، 1999 ، ص 208.
38. مهدي إسماعيل الجزاف ، مرجع نفسه ، ص 321-322.
39. ضياء مجيد الموسوي (بتصرف) ، مرجع سابق ، ص 71-72.
40. مرجع نفسه (بتصرف) ، ص 74=76.
41. لمزيد من المعلومات أنظر في ذلك : محمد عبد العزيز عجمية ، وآخرون ، مقدمة في التنمية و التخطيط ، دار النهضة العربية 1983.

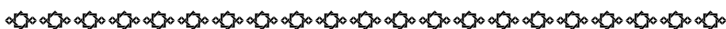
اقتصاديات التعليم والنمو الاقتصادي

بقلم

نور الدين حمام

أستاذ مساعد مكلف بالدروس بقسم العلوم الاقتصادية

جامعة محمد خيضر بسكرة. الجزائر



الملخص :

يهدف هذا المقال إلى التعريف باقتصاديات التعليم ، وبأسباب اهتمام الاقتصاديين بالتربية ، ودراسة عائد الأموال المنفقة في مجال التربية والتعليم وأثرها في النمو الاقتصادي ، وأثرها على التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، كما يوضح أن لنوعية التعليم ومعدلات الالتحاق بالمدارس وسنوات الدراسة دورا مهما في النمو الاقتصادي، هذا بدون إغفال الجانب الصحي للأفراد ، إذ أن الشخص الذي يتمتع بصحة جيدة لا يعمل بكفاءة أكبر فحسب ، ولكنه يكرس أيضا وقتا أكثر للأنشطة الإنتاجية .

Résumé :

L'objectif de cet article est la définition de l'économie de l'éducation , et les causes pour les quelles les économistes s'intéressent à l'éducation , et d'étudier le rendement des capitaux dépensés dans le domaine de l'éducation et ses effets sur la croissance économique et le développement économique et social, et éclaire aussi que la qualité de l'enseignement et les taux de scolarisation et la durée des années de l'enseignement ont un rôle très important dans la croissance économique .

مقدمة :

أخذ الاهتمام بالتربية في الربع الأخير من هذا القرن طورا جديدا تمثل في المزيد من دراسة الوظيفة الاقتصادية للتربية بجانب العناية بالوظائف الخلقية والثقافية وأصبحت اقتصاديات التعليم أحد الموضوعات الرئيسية في مجال علم الاقتصاد وكذلك لدى المتخصصين في علوم التربية وأصبح هذا الاهتمام يمثل موضوع دراسة قائمة بذاتها.

وترجع عناية الاقتصاديين الخاصة بالتربية وبدراسة آثارها إلى عوامل متعددة أهمها :

1 - دور التربية المتزايد في دفع عملية التقدم والنمو الاقتصادي حيث أثبتت الأبحاث المتعددة أن الإنفاق على التعليم يمثل استثمارا للموارد البشرية بجانب كونه يمثل خدمة استهلاكية.

2 - تزايد نفقات التعليم في السنوات الأخيرة في شتى البلدان تزايدا ملحوظا وضخامة ما يتفق عليه من الميزانية العامة للدول، الأمر الذي دعا إلى البحث عن مدى الفائدة الاقتصادية التي ترجى من إنفاق هذه الأموال على التربية وأثرها على التنمية الاقتصادية والاجتماعية وذلك بغرض الموازنة بين العائدات الاقتصادية للتربية وعائدات الأموال التي تستثمر في المشروعات المختلفة الأخرى.

3 - التزايد الكبير في أعداد الطلاب وعجز كثير من بلدان العالم عن القيام بأعبائها التعليمية كاملة ومن ثم ظهور الحاجة إلى دراسة عملية تساعد في الوصول إلى أحسن عائد ممكن بأقل التكاليف الممكنة، ويؤدي بالتالي إلى ترشيد هذه النفقات بالاستناد إلى الوسائل الفنية المختلفة⁽¹⁾.

4 - الحاجة إلى البحث عن مصادر التمويل المختلفة التي يمكن أن تغذي التعليم وتسد نفقاته وحاجاته.

وجاء هذا الاهتمام المتزايد نتيجة لأعمال الرواد الأوائل في مجال اقتصاديات التعليم.

رواد اقتصاديات التعليم⁽²⁾ :

1 - آدم سميث Adam Smith : وقد اتضحت اهتمامات "آدم سميث" بالعنصر البشري في كتابه الشهير "ثروة الأمم" حيث بين في أكثر من موضوع أهمية التربية، وجعل بين عناصر التربية رأس المال الثابت (الذي عرفه بالقابليات المكتسبة والمفيدة لبعض أعضاء المجتمع والتي تساهم التربية في بنائها) .

2 - ألفريد مارشال Alfred Marshall : وقد وقف "ألفريد مارشال" عند أهمية التربية بوصفها (استثمارا قوميا) وتمثل أجرى صورا رأس المال عطاء بالنسبة للمجتمع.

3 - وليام بيتي William Petty : هناك محاولات جادة لتقدير قيمة الكائن الإنساني منها محاولة " بيتي " : الذي بنى تقديراته على أساس أن إجمالي مكاسب العمل هي البقية المتبقية للنفقات الكلية بعد خصم الأرباح من الأرض ومصادر أخرى وكذلك قيمة البشر تساوي عشرين مرة قدرة مكاسب العمل السنوي العالية.

4 - ماركس Marx : احتل عنصر العمل البشري أو الإنساني بمفهومه الواسع مكان الصدارة في الفكر الماركسي وقد انعكست أهمية النظرة الماركسية للإنسان في الأهمية القصوى التي أولاها الفكر الماركسي للتربية باعتبار دورها الخلاق في إعداد وتكوين الإنسان وتنمية قدراته بشكل عام وقدراته الذهنية والفكرية بشكل خاص.

5 - مالتس Maltus : جاء " مالتس " وأنصاره ليؤكدوا من جديد أهمية التربية ومكانتها كعامل من عوامل التنمية الاقتصادية وإذا تتبعنا آرائهم لوجدنا أنهم يشيرون إلى دور التربية في تنظيم العلاقة بين نمو السكان ونمو الموارد الطبيعية ، إلا أن كتاباتهم لم تعرض بشكل صريح لفكرة الاستثمار البشري .

6- فيشر Irving fisher : ادخل " فيشر " في نظريته راس المال المعنوي (العنصر الإنساني) ضمن عناصر راس المال . وقد أكد " فيشر " وجوب استخدام راس المال الإنساني أينما وجد وإذا كان راس المال هو الرصيد الذي يؤدي إلى مزيد من الدخل بمضي الوقت فان الأموال التي تنفق على التعليم تؤدي إلى مزيد من الدخل من وجهة نظر الفرد والمجتمع وهي بهذا المعنى تعتبر نوعا من أنواع المال باعتبار العنصر البشري يمثل الوعاء الذي ترصد فيه هذه الأموال .

7. ليدنبرج Eric Lundberg : لقد أثبت " اريك ليندبرج " إن التاج يزيد مع مضي الوقت بالرغم من ثبات راس المال العادي ولقد أدى ما أثبتته "ليندبرج" إلى ضرورة البحث عن أسباب هذه الزيادة ومدى مالها من علاقة بالتعليم والخبرة والتدريب حيث توصل في ختام أبحاثه إلى وجود علاقة بين هذه الزيادة وبين عوامل التعليم والتدريب والخبرة .

8 - دينسون Edward Denison : تناول " دينسون " في بحثه عوامل النمو الاقتصادي في الولايات المتحدة والعوامل البديلة وقياس اثر كل العوامل المختلفة ومن بينها (المستوى التربوي) على مستوى الدخل القومي وتوصل إلى أن عامل التربية يساهم بحوالي 23 % من مجموع الزيادة في الدخل القومي وقد مهدت هذه الأبحاث بوجه عام لظهور فكرة الاستثمار البشري وان كانت في حاجة إلى المزيد من الوضوح والدقة ، وقد تعرضت أبحاثه لاعتراضات كثيرة بسبب صعوبة قياس هذا الجزء من الزيادة في الدخل الذي يرجع إلى عنصر التربية سواء لعوامل تتصل بدقة البيانات أو تغيير الأسعار ، أو تغيير الأسلوب الفني للإنتاج أو غير ذلك من العوامل إلى أن جاء " شولتز ، وبيكر ، وجونفيزي " واستطاعوا التغلب على بعض هذه الصعوبات خاصة فيما يتعلق بتطور بعض طرق حساب العائد الاقتصادي .

9- شولتز T.W.Schultz : تكاد تكون أبحاث " شولتز " من الأبحاث الرائدة في مجال قياس العائد الاقتصادي للتعليم ، فقد اتجه " شولتز " في أبحاثه إلى فكرة الاستثمار في البشر مباشرة وبكل وضوح وتمكن من عرض هذه الثورة الجديدة .

ثورة الاستثمار البشري بكل تفصيل في كتابه - القيمة الاقتصادية للتربية- لقد ذكر " شولتز " أن الاهتمام بهذا الموضوع قد بدا خلال عام 1957-56م حين استرعى نظره عجز الوسائل المستخدمة عن تغيير زيادة الإنتاج بمضي الوقت فقد ركز " شولتز " في أبحاثه على قياس الزيادة في الإنتاج وظاهرة التحسن التي سادت الولايات المتحدة الأمريكية خلال تلك الفترة والتي أرجعها " شولتز " إلى زيادة استثمار الأمريكيين لأموالهم في أنفسهم واعتبر " شولتز " أن هذا الاستثمار هو الذي يفسر ما تتميز به ظاهرة النمو الاقتصادي في تلك البلاد وإن مفتاح الاستثمار البشري يكمن في التربية .

وقام " شولتز " بدراسات عديدة في هذا المجال ، وفي دراسة له عن الإنتاج الزراعي في الفترة من 1910 . 1914 . 1945 - 1949 وجد أن 17% من الزيادة في الإنتاج الزراعي ترجع إلى الزيادة في المدخلات ، في حين 83 % تعود إلى العامل المتبقي ، ولقد ذكر " شولتز " أن النمو الاقتصادي الذي حدث في الولايات المتحدة عامي 1929 و 1957 يعود إلى السرعة في الزيادة ما حصل عليه أفراد القوى العاملة من التعليم. ولقد حاول " شولتز " حساب رصيد راس المال البشري في الولايات المتحدة الأمريكية ومدى مساهمته في النمو الاقتصادي في الولايات المتحدة .

10 - دراسة آدم كيرل Adam Curle : يضع " آدم كيرل " تخطيطا عاما للاستراتيجية التربوية في المجتمعات النامية وهو يرى أن ميدان الاستثمار البشري ميدان واسع ويجب التصدي له، كما يجب أن تهدف إلى تمكين المجتمع من الاستخدام الكامل لطاقت رجاله ونسائه وتجنيد جميعا من أجل أهداف التنمية، كما طالب أيضا بالقضاء على سوء استخدام الطاقة البشرية . وقال " آدم كيرل " في هذا الصدد: " هيا بنا نحاول تعليم وتدريب وترقية سكان هذا العالم ليس لأنه شيء ضروري فقط من وجهة النظر الاقتصادية الضيقة ، بل لأننا نقوم بهذا العمل لان من الواجب أن نقوم به ، ولأنه حق أيضا' .

11 - دراسة بيكر Gary Beaker : وفي سنة 1960 نشر "جاري بيكر" دراسة علمية تجريبية لفكرة الاستثمار في التربة وكان لها رد فعل كبير ، لقد تساءل "جاري بيكر" عما إذا كان هناك عدم استثمار في التعليم الجامعي ، واستمر بعد ذلك في أبحاثه يعاونه ، "جاكوب منسر Jacob Mincer" وقد تعرضت أبحاثهما ، كما تعرضت أبحاث غيرهما إلى الكثير من الأسئلة والاعتراضات والمناقشات بسبب إهمال قياس بعض العناصر الهامة وعدم اختيار الأسس التي تقوم عليها الأبحاث بما يتمشى مع سائر الأحوال في البلاد الأخرى ، فما يتوفر في الولايات المتحدة قد يتوفر في غيرها ، وقد قام "جاري بيكر" ببعض الدراسات التي كلفه بها المكتب القومي للبحوث في الولايات وتبين له أن أرباح الذكور السكان في الولايات المتحدة عام 1950 كانت تمثل 14.8% من النفقات التي تنفق على التعليم الثانوي والعالي ، ومعنى هذا أن رؤوس الأموال التي توظف في التعليم تعوض خلال تسع سنوات ومثل هذا يمثل توظيفاً جيد جداً - في الظروف العادية من السوق الاقتصادية .

12 - دراسة كيروف Kairov : لقد قرر الباحث السوفيتي "كيروف" أن إدخال التعليم الابتدائي الإجباري في الاتحاد السوفيتي لمدة أربع سنوات في المراحل الأولى للثورة الروسية قد عاد على الاقتصاد القومي بعائد يبلغ (43) مرة أكثر مما انفق عليه من التكاليف .

13 - دراسة هلت Hallt 1970 : تعتبر هذه الدراسة الأولى في البرازيل وقام بها "هولت" في عام 1970 حيث قام بإجرائها على عينة مكونة من 1200 فرد من العاملين والعاملات في المدينة والأماكن الزراعية ، وحصل على تقديرات لمعدلات العائد الخاص والاجتماعي وذلك لعام 1962 وكان معدل العائد الخاص للتعليم الابتدائي هو 11.3% وللتعليم الثانوي (مرحلة أولى) 22.2% وللتعليم الثاني (مرحلة ثانية) 20.5% ، أما التعليم الجامعي فقد وصل معدل العائد الخاص إلى 83.1% ، ولقد كانت المعدلات الاجتماعية للعائد على التوالي هي : 10.7. 117.3. 14.5%.

14 - كذلك قام "نورمان هكس" وهو من خبراء البنك الدولي - في عام 1980 بقياس العلاقة بين معدل النمو الاقتصادي والإلمام بالقراءة والكتابة ، ومتوسط العمر المرتقب (أو المتوقع أن يعيشه الإنسان) في 83 دولة من دول العالم الثالث خلال الفترة 1960-1977 فوجد أن 12 دولة التي حققت أعلى معدلات في النمو الاقتصادي كانت تتمتع بأعلى المعدلات في التعليم (أي محو الأمية) أو وكذلك يحقق مواطنوها أطول عمر متوقع.

15 - دراسات دييوافيه Debeavats : ويؤكد "دييوافيه" أن على الدول النامية نفسها الاهتمام بدراسة قواها البشرية لتحسين المستوى التربوي المعيشي فيها وان من الضروري تطوير التعليم الابتدائي حيث أن العامل المتعلم أكثر إنتاجا من العامل الأمي وان من الضروري الاهتمام بالتعليم الثانوي بتدريب الفئة المتوسطة ووجودها أساس في نشر التقدم الفني ، وأنه من الضروري تطوير التعليم العالي لأنه الأساس في تدريب النخبة الحديثة من الشبان. وهكذا ساهمت الدراسات الخاصة بالتخطيط التربوي في النهاية في الوصول إلى هذه الحقيقة وهي انه لضمان استثمار البشر في أفضل صورة ممكنة لابد من إقامة التوازن بين الثروة البشرية والإمكانات المادية ، فكما انه لا قيمة للمصانع بدون العمال والمهندسين وكذلك لا قيمة للمهندسين والعمال بدون المصانع ، ولكن إعداد راس المال البشري المطلوب يحتاج إلى وقت طويل ، لذلك كانت محاولات التنبؤ الدقيق ضرورية لإحداث التوازن المطلوب.

وهذا ما يؤكد "جويل إ. كوهين و دافيد إ. بلوم" إن تزويد كل أطفال العالم بنوعية مرتفعة من التعليم الابتدائي والثانوي ، سواء عن طريق الانضمام في المدارس الرسمية ، أو عن طريق وسائل بديلة ، يمكن من حيث المبدأ أن يوفر منافع اقتصادية ، كما يبنى مجتمعات ونظما سياسية قوية ، ويؤدي إلى تحسين الصحة وهو أيضا التزام إنساني معترف به على نطاق واسع واحد حقوق الإنسان المقررة دوليا⁽³⁾ .

وتركز معظم النواحي الاقتصادية للتعليم على مدى التحصيل الدراسي أي " كم " التعليم ، وهذا يبدو منطقيا لكن التحديات التي تواجه معظم البلدان في بداية القرن الحادي والعشرين بما في ذلك البلدان النامية ، هي تلك التي تتعلق بالتنوع أكثر مما تتعلق بالكم⁽⁴⁾ ، إذا أن المجتمع الذي يضم قوة عاملة أكثر تعليما يمكنه أن يتوقع نموا اقتصاديا أسرع ، حيث أن البلدان التي التزمت مسار تحسين نوعية المدارس ، أدت الاستثمارات فيها في مجال التعليم إلى تحقيق مكاسب اقتصادية كبيرة جدا وكذلك تحقيق مكاسب اجتماعية.

2- نوعية التعليم الجيدة تعزز النمو الاقتصادي :

في محاولة لإلقاء الضوء على الدور الذي تلعبه نوعية التعليم في النمو الاقتصادي ، قام "أريك أ. هانوستيك"⁽⁵⁾ ودينيس كيمكو" ، بدراسة الفروق الدولية في المعرفة بالرياضيات والعلوم ، وبينت الدراسة أن لنوعية المدرسة تأثيرا ملحوظا على الفروق في النمو الاقتصادي وكان التحليل صريحا ومباشرا للغاية . فقد تم تشكيل كل نتائج الاختبارات الدولية السابقة المتوافرة في معيار واحد مركب للنوعية ومرتبطة بالفروق في معدلات النمو عبر العالم . وقد فسر النموذج الإحصائي الأساسي ، الذي شمل مستوى الدخل ، وكم التعليم ومعدلات نمو السكان ، ومعدلات النمو الاقتصادي الوطني . ولكن قوة العمل حسبما قيست من خلال نتائج الرياضيات والعلوم ، أثبت أنها مهمة للغاية : إذ أكان فرق انحراف معياري واحد في الأداء في اختبار يرتبط بفرق يبلغ 1 في المائة في معدلات نمو نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي السنوي . وتأثير هذا الفرق في معدلات النمو كبير جدا. إذا أن حدوث نمو أعلى بمقدار نقطة مئوية واحدة - فنقل 1 في المائة في السنة - سوف يدر دخولا أعلى خلال فترة تبلغ خمسين عاما بنسبة 64 في المائة.

ويؤكد الباحثان انه يمكن بسهولة ملاحظة قوة النوعية المحسنة بحساب الأثر الاقتصادي الذي يمكن توقعه من التحسينات التي تطرأ على النوعية . أن نفترض أننا بدأنا في 2005 تنفيذ برنامج لتحسين برنامج التعليم اثبت في النهاية انه برنامج

ناجح، إذ أن مسيرة إصلاح التعليم تتطلب وقتا بالطبع . فهي تستغرق سنوات عديدة قبل أن يشق الخريجون طريقهم إلى قوة العمالة ويجعلوا تأثيرهم ملموسا.

وإن الأثر الذي يمكن توقعه من الإصلاح بمرور الوقت إذا كلل بالنجاح في تحقيق تحسين قوى على نحو معتدل في مجال المعرفة (بمائل زيادة قدرها 0.5 انحراف معياري في حصيلة درجات الاختبار) وإن الناتج المحلي الإجمالي الذي يمكن أن يحدث بخطة لإصلاح تصل إلى هدفها في تحسين التعليم خلال 10، أو 20، أو 30 عاما، تأمل مجرد تحسن البطيء للمدارس خلال فترة 30 سنة في عام 2040، سيزيد الناتج المحلي الإجمالي بمقدار 4 في المائة تقريبا على المقدر مستقبليا بدون إجراء إصلاحات للتعليم وبالطبع إن الإصلاحات الأسرع يمكن أن تحقق مكاسب أعلى حتى من ذلك الناتج المحلي الإجمالي .

ومن ثم فإن النتائج التي تشير إلى نوعية التعليم ترتبط مباشرة بقدرة الفرد على الكسب وإنتاجيته شائعة تماما وحتى في البلدان النامية التي توجد بها قطاعات صغيرة نسبيا من الصناعة التحويلية والخدمات كثيفة الاستخدام للمهارات تبين إن للمهارات تأثيرا قويا على النتائج. ولئن كان الكثير من البحث الكمي حول أهمية المهارات جاء في الأساس من البلدان المتقدمة، فإن الصورة النوعية تصدق على الكثير من البلدان النامية أيضا.

ولكن هل يتحقق تعليم نوعي مع وجود عقبات متعددة في أغلب الدول النامية، كمشكلة فرص الوصول إلى المدارس، خاصة فيما يتعلق بالإنصاف، لأن فرص الالتحاق تتباين تبائنا ملحوظا حسب دخل الأسرة، والموقع في الحضر أو الريف، الجنس إلى غير ذلك حيث يؤكد "آلان مينجات"⁽⁶⁾ أن المدرسة التي تتمتع بمنح وإدارة جيدتين لا يمكنها منع التسرب أو ضمان التعليم الفعال، إذا كان الأطفال جوعى، أو يقطعون مسافات طويلة مشيا على الأقدام، أو يعملون ساعات طويلة في المنزل، أو كان آبائهم أميين. وتشمل التدخلات مردودة التكلفة التي تركز على الفقر، تحسين التغذية من خلال برامج التغذية المدرسية، وبرامج

توفير المواد الغذائية الدقيقة ، والحد من المشي لمسافات طويلة بإنشاء مدارس اصغر متعددة الصفوف ، وتقليل الحاجة إلى عمل الأطفال ، خاصة بالنسبة للفتيات من خلال أجهزة تؤدي إلى توفر العمل والجهد مثل حفر الآبار ، وتقديم دورات لمحو أمية الكبار.

3. التعليم والصحة ضروريان لاستمرار النمو الاقتصادي :

لاشك في أن راس المال البشري - الذي يتمثل في وضع صحي جيد ومستوى عالي للتعليم العلمي - هو دعامة أساسية للاستمرار النمو الاقتصادي في الدول النامية ، ولكن وجه الإخلال في تحقيق ذلك ، هو قصور القطاع العام في الوفاء بهذه الخدمات ، وذلك أما للفساد أو الافتقار إلى عمال مهرة أو ضعف التنظيم.

وهذا ما توصل إليه "إيمانويل بلداسي وآخرون"⁽⁷⁾ من وجود علاقة إيجابية بين معدلات الالتحاق بالمدارس أو سنوات الدراسة ونمو الناتج المحلي الإجمالي في البلدان النامية كما أن لصحة السكان أهمية كبيرة في ذلك ، حيث أن الشخص الذي يتمتع بصحة جيدة لا يعمل بكفاءة أكبر فحسب ، ولكنه يكرس أيضا وقتا أكثر للأنشطة الإنتاجية .

كما يؤكدون واستنادا إلى الأدلة الاقتصادية الجزئية يحاج الكثير من المؤلفين بان الصحة تفسر التباينات في الأجور ، على الأقل بقدر التعليم . وتوحي أيضا البحوث على المستوى الكلي بان راس المال الصحي يؤثر إيجابيا على الناتج الكلي . وقد أوضحت دراسات سابقة أن ما يصل إلى ثلث نمو الناتج المحلي الإجمالي السنوي يمكن أن يعزى إلى راس المال الصحي ، كما أن زيادة متوسط العمر المتوقع بمقدار سنة واحدة ترتبط في المدى الطويل ، بزيادة معدل النمو إلى ما يبلغ 4 نقاط مئوية في كل من البلدان النامية والبلدان الصناعية ، ولكن ليس من الواضحان إنفاق الحكومة مبالغ أكبر من الصحة والتعليم يمكن أن يعزز النمو ، ولماذا قد يكون تخصيص نفقات أكبر غير فعال؟ يرجع أحد أسباب ذلك إلى التأثيرات الاقتصادية الكلية للاعتمادات العامة المفرطة ، وقد توصلت الدراسات التجريبية إلى وجود

علاقات سلبية بين اوجه العجز المالي الكبير والنمو في البلدان النامية . فإذا أدى الإنفاق المرتفع على الصحة والتعليم إلى تضخم اوجه العجز المالي ، فإن التأثير السلبي على استقرار الاقتصاد الكلي والنمو يمكن أن يلغي الآثار المفيدة لذلك الإنفاق على المؤشرات الاجتماعية ، وثمة سبب آخر وهو سوء الإدارة والتنظيم ، كما أن هناك سبب ثالث وهو الاعتمادات الموجهة بصورة سيئة . فعلى سبيل المثال قد يسفر الإنفاق على التعليم العالي عن منافع قليلة للأطفال المنتمين لأسر منخفضة الدخل لا تستطيع حتى أن تتحمل نفقات التعليم في المدرسة الثانوية. وليس من الواضح أيضا أن الاعتمادات الاجتماعية الأكبر تساعد في تحسين المؤشرات الاجتماعية. لماذا لا يحدث ذلك ؟ أحد أسباب ذلك هو أن ضعف المؤسسات قد يقلل من نوعية الإنفاق (فمثلا ، قد يؤدي الفساد إلى تحويل الأموال المخصصة لمستلزمات التعليم إلى مدرسين " أشباح " غير حقيقيين). وعندما يحدث ذلك تنزع عائدات التعليم إلى أن تكون أقل .

الختامة:

مما لاشك فيه أن راس المال البشري مهم ومهم جدا ، لكنه ليس الشيء الوحيد الذي يؤثر في أداء اقتصاد ما وخاصة في الدول النامية ، فمعدلات النمو العالية للسكان والقوى العاملة ، وارتفاع المديونية الخارجية وخدماتها ، وسيطرة القطاع العام ، والأسواق المالية المتخلفة ، والقيود التجارية العالية ونظام أسعار الصرف غير الملائمة ، وتأخر الإصلاحات السياسية ، كلها عوامل تحد من الإقلاع والمضيء في الأداء الاقتصادي لأي بلد نام ، وقد أشار تقرير التنمية البشرية الذي أصدره البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة لسنة 2003 أن أداء الدول النامية يتسم بالضعف فيما يتعلق بالحريات المدنية والسياسية والمساواة بين الجنسين وبصفة عامة كل ما يتصل بغرض التنمية للقدرات والمعارف البشرية والمؤسسات المدنية ، وكذلك عدم استقلالية القضاء ووسائل الإعلام ، وتعرض المنظمات غير حكومية للضغوط من طرف الحكومات ، كلها عوامل لا تساعد مشاركة المواطنين في صنع القرار في هذه الدول .

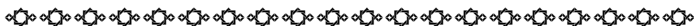
الهوامش :

1. Jacque Delors, l'education est un trésor de dans, berti édition, Paris,1997,p57.
2. سائجيف جويتا، الثورة الهادئة ، التمويل والتنمية ، جوان 2005، ص29.
3. جويل إ. كوهين ودافيد إ. بلوم ، تعهد العقول بالرعاية، التمويل والتنمية ، جوان 2005، ص9.
4. عبد الناصر محمد رشاد، التعليم والتنمية الشاملة، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، القاهرة، 1997، ص 165.
5. إيريك أ. هانوشيك، ما سبب أهمية النوعية بالنسبة للتعليم، التمويل و التنمية ، جوان 2005، ص16.
6. Mingat Alain, La rémunération des enseignants de l'enseignement primaire dans les pays francophones d'Afrique, Banque mondiale, 2004, p139.
7. إيمانويل بالداشي وآخرون، ما الذي تتطلبه مساعدة الفقراء، التمويل والتنمية ، جوان 2005، ص20.

**L'ACCORD D'ASSOCIATION
ENTRE L'ALGERIE ET L'UNION EUROPEENNE UE
ET SES CONSEQUENCES SUR SON ADHESION A L'OMC**

Par Dr. CHIKHA-BELGACEM khalifa

**Faculté des Sciences Economiques et de Gestion
Université d'Alger**



La mondialisation est un processus qui a pour objectif de donner au monde une nouvelle configuration, après la disparition de sa bipolarité avec celle du bloc des pays de l'Est. Cette restructuration passe obligatoirement par la constitution de regroupements régionaux visant à faire face à ce processus irréversible. Dans le cadre de ces rapprochements régionaux, l'Algérie a signé l'accord d'association avec les pays de l'Union européenne UE. Il convient à ce titre de se poser la question de l'opportunité sociale d'un tel accord et de celui du projet de son adhésion à l'OMC.

L'analyse d'une telle question ne peut se faire sans une approche précise des clauses d'un tel accord, en ce qui concerne les tarifs douaniers, la mise à niveau des entreprises algériennes et le problème des prix internes de l'énergie en Algérie.

1)- Les éléments de l'accord d'association entre l'Algérie et l'UE :

La position géographique de l'Algérie, sa proximité de l'Union européenne et la dotation des uns et des autres en produits et services ont été historiquement à l'origine de l'importance de leurs échanges commerciaux . En effet, la France, l'Espagne, l'Italie et l'Allemagne sont les principaux partenaires commerciaux de l'Algérie. La signature de l'Accord d'association avec l'UE constitue une étape importante et surtout essentielle en vue de l'adhésion de l'Algérie à l'OMC.

Les principaux éléments de l'accord d'association entre l'Algérie et l'UE, tournent autour d'un dialogue politique et économique dont l'objectif est l'établissement progressif d'une

zone de libre-échange en conformité avec les règles de l'OMC. Ces dispositions concernent d'une part :

- La liberté d'établissement.
- La libéralisation des services.
- La libre circulation des marchandises et des capitaux.
- L'application des règles communautaires de concurrence.

Celles-ci concernant aussi :

- Le domaine de la justice et des affaires intérieures.
- Le renforcement de la coopération économique et financière.
- L'établissement de la coopération dans le domaine culturel et social.

L'accord prévoit aussi l'instauration d'un conseil et d'un comité d'association disposant de pouvoirs de décisions.

Il convient de souligner une fois de plus l'importance de cet accord vu le volume des échanges entre les deux parties. En 2000, l'UE absorbait près de 63% des exportations de l'Algérie et fournissait un peu moins de 60% (58%) des marchandises importées par cette dernière. Mais à ce titre il convient d'observer que l'économie algérienne reste excessivement tributaire de la rente dégagée par le secteur des hydrocarbures dont les exportations dépassent les 97% de leur valeur totale. Pour cet ensemble de raisons, l'accord d'association avec l'UE interpelle plus que jamais les autorités algérienne en vue de la mise en place d'une nouvelle dynamique pour le développement d'un secteur industriel exportateur hors hydrocarbures, mais concurrentiel, avant l'ouverture de ses frontières au libre-échange. Quant au secteur agricole, le programme national de développement agricole (PNDA) est destiné en principe à mettre à niveau ce secteur.

Concrètement, les principaux défis économiques et sociaux auxquels l'Algérie doit faire face sont :

- La mise en oeuvre du programme de privatisation.
- La mise à niveau du secteur industriel hors hydrocarbures et du cadre réglementaire
- L'assainissement du secteur financier.
- La création d'emplois.

- La construction et la réhabilitation des logements.

Dans le cadre de la coopération financière, le programme MEDA joue un rôle primordial entre les deux parties. Dans ce sens, la période 1996 -1999 a vu le transfert de 164 millions d'euros au profit de plusieurs opérations, dont la facilité d'ajustement structurel (125 millions d'euros dont 30 millions d'euros pour MEDA) :

- La promotion des PME (57 millions d'euros).
- L'appui à la restructuration industrielle et la privatisation (38 millions d'euros).
- La modernisation du secteur financier (23 millions d'euros).
- La bonification d'intérêt d'un prêt de la BEI à des projets de dépollution industrielle (10,7 millions d'euros).

Depuis 2000, 90 millions d'euros ont été engagés par quatre nouveaux programmes:

- L'appui à la réforme des télécommunications et des services postaux (17 millions d'euros).
- L'appui aux journalistes et aux médias (05millins d'euros).
- L'appui à la modernisation de la police (8 millions d'euros).
- La réforme de la formation professionnelle (60 millions d'euros).

A la fin de l'année 2001, le nouveau programme indicatif national pour la période 2002-2004 avait reçu l'avis favorable du comité MED. Il sera orienté essentiellement vers la mise en oeuvre de l'accord d'association ; ces quatre axes d'interventions sont :

- L'appui aux réformes économiques et le renforcement des institutions de l'économie de marché.
- Le développement des infrastructures.
- Le développement des ressources humaines.
- L'état de droit et la bonne gouvernance.

Toutes ces dispositions prises dans le cadre de l'accord d'association vont dans le sens d'une suppression progressive des droits de douane à l'importation.

2)- Les tarifs douaniers :

Sur ce plan, l'accord d'association entre l'Algérie et l'UE prévoit:

- Pour les produits industriels le démantèlement tarifaire s'effectuera en trois étapes.
- Pour les matières premières et demi-produits les droits de douanes sont ramenées de 15 % à 5% dès la mise en oeuvre de l'accord. A l'issue d'une

étape intermédiaire d'une durée de 5 ans à partir de la date de la mise en oeuvre, les taux de droits de douanes seront alors ramenés à zéro.

- Pour les biens d'équipement, les droits de douane diminueront chaque année de 20 %.

La troisième étape sera étalée sur 10 ans et concernera les produits finis pour lesquels les droits de douane diminueront chaque année de 10% .

En ce qui concerne les produits agricoles, les facilités ou concessions réciproques de 1976 sont reconduites. Dès la mise en oeuvre de l'accord, l'introduction des produits qui constituent le commerce traditionnel, entre l'Algérie et l'UE notamment, les dattes, le blé, le lait, le beurre et les produits de la pêche sera facilitée ..Quant aux produits transformés, tels que les boissons, la levure, le concentré de tomate, ils bénéficieront également de ces facilités.

En ce qui concerne les services, l'accord ouvre des possibilités de développer le commerce pour les deux parties. L'accord général de l'OMC sur les services AGCS sera appliqué. Ainsi, il n'y aura pas de discrimination entre les entreprises locales et celles de l'UE.

Cependant, toutes ces mesures prévues par l'accord d'association doivent inciter l'Algérie à mettre plus de volonté pour la mise à niveau de ses entreprises.

3)- La mise à niveau des entreprises algériennes :

La mise à niveau des entreprises algériennes pose à l'Algérie de nombreux problèmes :

Le forum des chefs d'entreprises en Algérie indique que la multiplicité des programmes de mises à niveau marque l'absence d'une stratégie cohérente du gouvernement.

En effet, alors que l'entrée en vigueur de l'accord d'association avec l'UE se rapproche et que le processus d'adhésion de l'Algérie à l'OMC s'accélère, l'amélioration des capacités concurrentielles des entreprises algériennes semble évoluer à un rythme plus lent que celui du démantèlement tarifaire. Selon le gouvernement, il existe 12 programmes différents de « mise à niveau des entreprises ». certains ont bénéficié de la contribution des structures onusiennes, comme l'Office des nations unies pour le développement industriel (ONUDI). D'autres ont bénéficié de

l'aide financière de pays européens comme l'Allemagne, comme pour les cimenteries algériennes par exemple. Les deux principaux programmes demeurent toutefois ceux pilotés l'un par le ministère de la PME-PMI (financé par l'UE) et l'autre par le ministère de l'industrie.

Le premier programme prévoit un «diagnostic des entreprises touchant leur positionnement stratégique et leurs stratégie de développement ». Ce diagnostic précède les actions concrètes de soutien au niveau du management et de l'équipement. Le second programme consiste également en la réalisation d'études de diagnostic au profit des sociétés sélectionnées selon les critères de viabilité. Ces études sont financées à 70 % par le fond national pour la promotion de la compétitivité industrielle (FNPCI) dans la limite de 3 millions de dinars. Elles sont le préalable à la réalisation d'investissements non matériels (management et normalisation) et matériels (rénovation des équipements, etc..)qui, pour l'essentiel, seraient financés sur les fonds propres des entreprises. Les aides gouvernementales à ce niveau se limitent, en fait, au financement de 50% des investissements non matériels (assistance technique, etc...) et de 15 % maximum des investissements matériels. A la différence du programme destiné au PME, celui du ministère de l'industrie ne prévoit pas d'allègement fiscal et parafiscal au profit des sociétés concernées.

Le retard qu'enregistre l'application de ces deux programmes demeure le principal indice des difficultés de la mise à niveau de l'outil de production algérien, dans le cadre d'une préparation à la concurrence internationale. Un protocole d'accord a été récemment signé entre la Confédération algérienne du patronat (CAP) et l'unité de gestion du programme d'appui aux PME de l'UE. Il porte sur la mise à niveau de 1.500 entreprises sur les 3.000 comprises dans le plan de l'UE, pour un montant de 17 millions d'euros, financé dans le cadre du plan MEDA 1 (1999). Ce programme n'a ainsi effectivement démarré qu'une année après la signature de l'accord d'association avec l'UE. Lorsqu'on sait que le délai minimal pour la mise à niveau d'une société est, selon les opérateurs économiques, de 18 mois, le risque que le désarmement tarifaire total prenne de court la production algérienne, déjà mise à

mal par la réduction du taux moyen de protection douanière (17% actuellement), est élevé.

Le programme de mise à niveau du ministère de l'industrie lancé en 2000 n'est pas en meilleur état, il concerne pour l'instant encore moins de sociétés que celui du ministère des PME-PMI. Même s'il avance « concrètement sur le terrain », de l'avis de Fatima Semid, de la direction générale de la restructuration industrielle au ministère de l'industrie : 220 entreprises ont ainsi manifesté leur intérêt pour le dispositif mis en place par le ministère. Les demandes d'adhésion de 136 entreprises ont été examinées par le comité national de la compétitivité industrielle, institué le 16 juillet 2000, 98 de ces demandes ont été retenues (40 d'entreprises publiques et 48 d'entreprises privées).

Fatima Semid reconnaît «une certaine lenteur des procédures », mais elle estime que l'inscription volontaire de ces 98 entreprises au programme sera «un exemple pour toutes les autres » et devrait «accélérer le processus de mise à niveau de l'économie nationale» : 47 de ces 98 entreprises ont déjà lancé leurs études de diagnostic.

Une partie du patronat, représentée par le Forum des chefs d'entreprises (FCE), demeure cependant dubitative devant cet étalage des performances gouvernementales. Elle rappelle que le démantèlement tarifaire est déjà très avancé depuis la promulgation de l'ordonnance du 20 Août 2001, qui a réduit le tarif douanier maximal à 30%. Elle rappelle aussi que la réduction progressive des taux de douane frappant les marchandises en provenance de la zone UE n'attendra pas l'instauration de la zone de libre-échange : elle commencera dès l'entrée en vigueur de l'accord d'association.

Ni les chiffres du ministère de l'industrie, ni l'adhésion de la CAP au programme de mise à niveau des PME ne semblent impressionner le FCE qui, sans être un syndicat patronal, est considéré comme la tête pensante des opérateurs économiques nationaux. La principale critique du FCE face à la stratégie gouvernementale de mise à niveau est justement... « l'absence de stratégie ». Pour le président de l'organisation patronale, Omar Ramdan, cette « multiplicité de plans » est censé prouver que le gouvernement s'occupe de la mise à niveau de l'outil de

production, alors qu'en réalité ce n'est pas le cas : « il faut que tous ces plans soient fusionnés en un seul, qui serait coordonné par une autorité gouvernementale unique », suggère-t-il.

Omar Ramdan rappelle que le FCE avait proposé que l'état mette la main à la poche en dégageant 52 milliards de dinars pour la première étape d'une mise à niveau qui concernerait 1000 sociétés. Ces 52 milliards financeraient des études de diagnostic ainsi que certains «investissements non matériels », comme la formation des personnels. Pour lui, les solutions existent, comme «les crédits à long terme et les crédits bonifiés » ; ces solutions permettraient aux sociétés concernées de financer ces investissements immatériels sans recourir aux largesses du Trésor public.

En plus de toutes ces contraintes il convient d'ajouter la question des prix internes de l'énergie actuellement administrés, posées par des membres influants de l'OMC ,face à l'adhésion de l'Algérie au sein de cette organisation .

4)-Les prix de l'énergie :

Les accords d'associations des pays du Maghreb avec l'Union européenne stipulent que les importations des pays de cette union exonèrent des droits de douanes tous les produits à l'exception des produits pétroliers et certains produits alimentaires .Or les exportations de l'Algérie vers celle-ci sont essentiellement constituées d'hydrocarbures, comme il a été déjà souligné auparavant.Comment peut-on alors interpréter cette disposition concernant les importations des produits pétroliers par les pays de l'UE, dans ces accords d'association ayant pour objectif d'appliquer les dispositions du libre-échange entre les deux partenaires. Si le principe de réciprocité en ce qui concerne tous les produits et services, objet des échanges n'est pas respecté entre l'UE et l'Algérie, sur le plan du prix interne de l'énergie de cette dernière, des questions sont posées par certains pays membres de l'OMC .

En effet, lors du quatrième round qui s'est tenu entre le 20 et le 23 mai 2003, l'Algérie a été tenue d'inclure les questions énergétiques dans son cycle de négociations avec l'OMC. Les discussions portent essentiellement sur le prix intérieur des produits

énergétiques actuellement administrés par l'état. En effet, comparativement à ceux appliqués par les pays membres de l'OMC, ces prix en Algérie se trouvent relativement bas. D'ailleurs, l'adhésion de la Russie à l'OMC se trouve aussi confrontée à la même question.

Les ministres algériens du commerce et de l'énergie ont eu à signaler que l'Algérie continue d'appliquer des prix administrés aux produits de ce secteur et qu'elle est appelée à les réviser à la hausse conformément aux règles et mécanismes du marché. En principe, c'est sur la base de ce que pourrait obtenir la Russie sur cette question pour son adhésion à l'OMC que l'Algérie déterminera les correctifs et révisions qu'elle sera appelée à opérer au sein de ce secteur.

Il est possible de souligner les travers auxquels doit faire face l'Algérie, que ce soit dans son accord d'association avec l'UE ou son projet d'adhésion à l'OMC :

- La non réciprocité du libre-échange tous produits confondus avec les pays de l'UE. Or 97% de la valeur de ses exportations sont constitués d'hydrocarbures.
- Les exportations algériennes d'hydrocarbures sont libellées en dollars alors que le paiement de ses importations s'effectue essentiellement en euros qui ne cesse de s'apprécier par rapport à la monnaie américaine.
- l'une des principales exigences de certains pays membre de l'OMC est la libéralisation des prix intérieurs de l'énergie pour accepter l'adhésion de l'Algérie au sein de cette organisation. Or les ressources énergétiques constituent la principale richesse en ressources naturelles de ce pays. Si l'Algérie n'a plus la capacité de mener une politique de développement ayant pour instrument décisif une politique des prix internes de l'énergie attrayante vis à vis de l'investissement en général et de l'investissement étranger en particulier, sur quoi peut-elle compter ?.

Il est donc possible d'interpréter l'accord d'association entre l'Algérie et l'union européenne d'une part et le projet d'adhésion de l'Algérie à l'OMC d'autre part comme une ouverture du marché

algérien aux produits et services des pays de l'UE et de l'OMC sans contre-partie significative pour l'Algérie, car cette dernière n'a en réalité que des hydrocarbures à exporter, le reste étant actuellement et dans l'immédiat négligeable.

Il convient d'ajouter par ailleurs que tous les accords d'association et d'adhésion reviennent en fait à une libéralisation de la circulation des biens et des services exception faite des hydrocarbures d'une part et une restriction sélective si ce n'est pas une interdiction de la circulation de la main d'oeuvre.

A ce niveau d'analyse, il convient de souligner, dans ces conditions, la difficulté d'admettre l'opportunité sociale de ces accords, pour l'Algérie, à moins de mettre en place parallèlement une stratégie visant son intégration au sein de l'un des regroupements régionaux dominants.

BIBLIOGRAPHIE

Périodiques

Les Temps Modernes
Problèmes Economiques
Revue d'Economie Industrielle
Revue d'Economie Politique
L'Economie Mondiale
Alternatives Economiques
Apsi Algériens Investment Focus
Le Monde Diplomatique
Le Monde
La Tribune
Saidal info Développement industriel et partenariat Groupe
Saidal Algérie n° 6 ; 3° Trim 1998.

Ouvrages et Divers

A.Benachenhou , L'Algérie Aujourd'hui un Pays qui gagne
A.Benachenhou , Algérie : la modernisation maîtrisée
Yves Crozet Les grandes questions de l'économie
internationale Paris,ed Nathan,1997
Youcef Debboub Le nouveau mécanisme économique en
Algérie ,Alger ,ed ,O.P.U. 2000.

Serge Gordellier Mondialisation au-delà des mythes ,Paris
ed La découverte 1997.

Noreddine Ben Fréha Les multinationales et la
mondialisation,enjeux et perspectives en Algérie,Alger et Dahlab
1999.

Michel Rainelli Le commerce international , Paris, ed la
découverte ,1998.

Rapport Partenariat : Cadre général et action de partenariat ,
Algérie , 05/1999.

Documents [http : www.google.com/](http://www.google.com/).